وراء كل مدينة خالدة .. قصة

حكـايـات وأسـرار

أشهر مدن العالم القديم

تـواريـخ وحضـارات

شخصيات وبطولات

انتصارات وانكسارات

قصص وحكايات







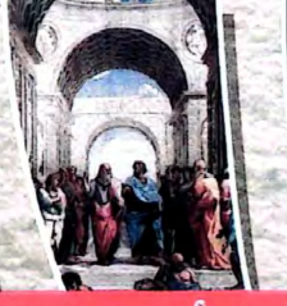
















أحمـد المنيـاوي





أشهرُ مُدُنِ

العالمِ القديمِ

اسم الكتاب : أشهر مدن العالم القديم

اسم المؤلف : أحمد المنياوى

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٩/١٥٢٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 491 -4

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلمى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠١٠



سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢ ـ ٢٣٩٣٣٦٧١

لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤٠٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darelkitab-nassif@hotmail.com

www.darketab.com - info@darketab.com

أشهرُ مُدُنِ العالَمِ القديمِ

تواريخ وحضارات ـ شخصيات وبطولات

انتصارات وانكسارات ـ قصص وحكايات

◆

أحمد المنياوي

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

المقدمــة

للعالم القديم سحره وغموضه.. بهاؤه وجماله.. أسراره وألغازه.. عالم تمتزج فيه الحقيقة بالخيال.. الواقع بالأسطورة.. في هذا العالم كانت هناك مدن مثلت عظمة وروعة هذا العالم وقلبه النابض.. مدن لا تزال آثارها شاهدة على أحداث جسام.. بطولات وانكسارات.. تواريخ وحضارات.. شخصيات وحكايات، وأشياء كثيرة جعلت من هذه المدن أماكنَ خالدةً في ذاكرة التاريخ.

ولأن مدن العالم القديم تحوي الكثير والكثير من أخبار هذا العالم، وكذلك كان لها أكبر الأثر في تغيير مسار التاريخ، فقد فكرنا في إعداد هذا الكتاب لكي يكون إضافة للمكتبة العربية، وموسوعة مصغرة لهذه المدن التاريخية.

في هذا الكتاب سنروي تاريخ أثينا القديمة وحكايتها مع أفلاطون وسقراط، وروما وقصتها مع رومولوس الذي بناها، ونيرون الذي أحرقها، ومنف وطيبة الفرعونيتين وارتباطهما بملك عظيم هو الملك مينا، وأُور التي شهدت مولد خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

في الكتاب أيضا قصة سدوم وعمورة وكيف أهلك الله قوم سيدنا لوط عليه السلام، ومدين، وسبأ، وغرناطة، وسمرقند، وأنطاكية، وفلورنسا، وبابل، وآشور، وبيزنطة، والفسطاط، وأوغاريت، وصبراتة، وغيرها من مدن العالم القديم.

ونحاول في الكتاب تتبع الحياة في هذه المدن والشخصيات التي لعبت الدور الأعظم سواء في نشوئها، أو أحيانا في سقوطها.

هذا الكتاب هو موسوعة مصغرة لمدن العالم القديم الساحرة بكل ما تحويه من أسرار وتواريخ وأحداث وشخصيات لا تزال شاهدة على ذلك العصر الذي وقعت فيه.

أحمد المنياوي

١

بابل.. حمورابي والملك النمرود

تقع مدينة بابل على بعد تسعين كيلو متراً جنوب بغداد. وقد كانت في يوم من الأيام عاصمة المملكة البابلية. ويمكن القول إن بابل هي أشهر الأماكن الأثرية في العراق كله.

وقد برزت مدينة بابل لأول مرة في عهد الملك حامورابي ووصلت إلى ذروة تألقها في ظل حكم الملك نبوخذ نصر الثاني (ستمائة وخمسين قبل الميلاد - ستة وخمسين قبل الميلاد). وتشتهر مدينة بابل بجدرانها العالية الحصينة وفخامة معابدها وقصورها. كما تشتهر بابل بحدائقها المعلَّقة، إحدى عجائب الدنيا السبع، التي بناها الملك نبوخذ نصر لزوجته أميتاس. ويقال إن أميتاس كانت تقطن منطقة جبلية فأمر الملك ببناء الحدائق المعَلقة ليخفف عنها الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن.. إلا أن بابل قد لحق بها الدمار والخراب حتى إنه لم يتبق من أمجادها السابقة سوى تمثال الأسد الحجري الكبير بنقوشه العظيمة.

تقع مدينه بابل الأثرية على ضفاف نهر الفرات القديم " شط الحلة " حاليا، وسط أرض خصبة من بلاد الرافدين . ولقد كانت بلاد بابل تسمى في عصر الملك نبو خذ نصر الثاني باسم بلاد أكد، وهي التسمية القومية الصحيحة للمنطقة الجغرافية المحيطة بمدينة بابل.

ولا يعرف المؤرخون التوقيت الحقيقي الذي ظهرت فيه هذه التسمية على المدينة.ومن أشهر ملوكها الملك حمورابي بين عامي ١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد والذي قام بتشريع قوانينه المشهورة (٢٨٢ ماده قانونية) التي عرفت بـ "شريعة حمورابي " وافتخر بالبقاء بها وحكمها العديد من ملوك العالم القديم وقادته كالإسكندر المقدوني .

والحقيقة أنه لم تذكر الكتب المقدسة الثلاثة مدينة مثلما ذكرت بابل. ولم تذكر كتب التاريخ أرضاً كما ذكرتها، ولم تذكر نصوص وأدبيات الرحالة والجغرافيين الكلاسيكيين واللاحقين مدينة وأرضاً كما ذكروها. ولم تصل أي مدينة قديمة إلى حينها، ولا يختلف اثنان على أنها كانت عاصمة العالم القديم إبان القرن السابع قبل الميلاد وأنها أعطت البشرية من علوم وفنون وعمارة أكثر من أي مدينة سبقتها أو عاصرتها.

وكانت «بابل» تسمى باللغات الرافدينية القديمة «باب أيلوم» وتعني باللغة العربية الحديثة «بوابة الآلهة»، كما ورد اسمها في العهد القديم والجديد كـ «بابلون»، وفي القرآن الكريم وفي سورة البقرة : "بابل".

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار النصوص الأكدية التي تُعْزَى إلى الملك سرجون الأول "٢٣٧٠ - ٢٣٤٠ ق.م" سنجد أنها تذكر في أحد نصوصها الملكية أن سفناً رست في ميناء عاصمتها "أكد" الواقعة على نهر الفرات قادمة من "دلمون"، و"ماجان "، و "ملوخا" . ومن خلال الوصف الجغرافي والتاريخي لمدينة "أكد" لا يستبعد أنها كانت مدينة بابل التي أمست إبان حكم الملك البابلي "حموراي" (١٧٩٢ - ١٧٥٠) قبل الميلاد عاصمة الإمبراطورية البابلية، وفيها كتبت انضج الشرائع الوضعية، ولو أن الملك حموراي زعم أنها إلهية.

كان الإله الرئيسي لمدينة بابل هو الإله "مردوخ". وقد أقيم لهذا الإله وعبر العصور أبنية فخمة محاطةً بأسوار عالية، وقد اعتبر بعض علماء الآثار ان أبنية "مردوخ" هي في الواقع "المؤسسة السماوية" على الأرض وحسب اعتقاد

البابليين. وقد جاء هذا الرأي من خلال سطور الملاحم القديمة التي كانت تنص على أن مدينة بابل هي مركز الكون.

وخلال حكم الملك الذائع الصيت "بنوخذ نصر" (٦٠٥ - ٥٦٢) قبل الميلاد، أمست مدينة بابل أكثر المدن شهرة في العالم القديم حيث بني فيها الملك "نبوخذ نصر" عشرات القصور، ومئات المعابد، والمؤسسات المدنية، وأحاطها بسورين عظيمين إلى جانب تشييده للجناين المعلقة وهذان المَعْلَمان الأخيران اعتبرا قديماً اثنين من عجائب الدنيا السبع لا لضخامتهما فحسب بل لأنماط بنائهما أيضاً.

وخلال حكم الملك "بنوخذ نصر" والملوك الذين خلفوه كتبت في مدينة بابل "أسفار ومزامير" العهد القديم على يد أحبار اليهود بدليل أن كثيراً مما في تلك الأسفار له علاقة مباشرة بأساطير بلاد وادي الرافدين القديمة، ولكن وللأسف الشديد نجد أيضاً في بعض من أسفار العهدين القديم والجديد نعوتاً وأوصافاً لا تليق بعطاء مدينة بابل التي عاش بها كُتَّاب العهد القديم.

في عام ٥٣٩ قبل الميلاد أفل نجم بابل من جديد بعد أن غزاها "العيلاميون" الذين نقلوا كثيراً من فنونها المعمارية والفنية إلى عاصمتهم "برسيوليس"، ولم يدم حكم "العلاميين" طويلاً لبابل حيث دخلها القائد المقدوني الإسكندر في عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبعد مكوثه فيها قليلاً اتخذها عاصمة لحكمه في الشرق لفترة تقرب من ثماني سنوات حيث وافته المنية فيها عام ٣٢٣ قبل الميلاد.

وهناك من يعتقد من المؤرخين أن الإسكندر توفي في بابل ودفن فيها عشية بداية حملته التي خطط لها طويلاً للجزيرة العربية، وأن خطته تلك تبدأ باحتلال الخليج العربي، وإنه استورد جميع متطلبات حملته هذه وقبل مماته بقليل من فينيقيا، وإنه جلب صناعاً فينيقيين لصناعة سفنه في مرافئ بابل.

إن حلم الإسكندر لم يتوار بعد أن واراه الثرى بدليل أن قواده حققوا له حلمه عندما غزوا الخليج العربي برمته وامتد نفوذهم إلى جميع سواحل الجزيرة

العربية، وبعض من دواخلها وأنشأوا فيها كثيراً من المدن والمستعمرات التجارية والحاميات العسكرية، وظلت مدينة بابل منطلقاً لتلك الحملات لحين اتخاذ "السلوقيين" أحفاد الإسكندر عاصمة جديدة لهم تقع على نهر دجلة أطلقوا عليها "سلوقيا ".

بعد ذلك تكالبت الأحداث على بابل لحين هجرها أهلها بعد أن هجرها نهر الفرات حين حول مجراه بعيداً عنها - فتحولت وبمرور الزمن إلى أرض خراب إلا أن صيتها بقي يُسمع ويقرأ في كثير من الأحيان على أنها كانت ذات يوم مدينة المدن وكان يحسب لها ألف ألف حساب.

ظلت أطلال بابل "ينعب فيها الغراب" لأجيال وأجيال، وظل العلماء والرحالة والكتاب يضربون أخماسا بأسداس علهم يجدون لها أثراً يذكر - لحين عام ١٨٩٩، ففي هذا العام وقبل بدايات القرن العشرين بأشهر قليلة عمل فريق صغير من الألمان في حفر جزء من تل مرتفع يقع على مقربة مما يعرف بمدينة " الحلة " الآن وعلى بعد تسعين كيلومتراً جنوب غرب بغداد.

وبعد توالي التنقيب ظهرت لهم وبدون أي سابق إنذار بوابة عشتار التي كانت تزين شارع الموكب الذي كان يمر به " نبوخذ نصر ".

والبوابة هذه كانت مقامة من الأجر المزجج بلون السماء، ومزدانة بأنواع مختلفة من الحيوانات الخرافية الرمزية بهيئة نحت بارز.

نقلت هذه البوابة آجرة. آجرة كما نقلت كنوز بابل الأخرى إلى متحف "برلين" ومنذ ذلك الحين زارها الملايين الملايين من الزوار والباحثين، وهي غريبة عن موطنها الأصلي.

توقفت أعمال الفريق الألماني عام ١٩١٧ نتيجة علامات اندلاع الحرب العالمية الأولى - فأهملت بابل من جديد لحين قيام "مديرية الآثار القديمة العامة" العراقية في خمسينيات القرن الماضي بالكشف عن مزيد من أطلالها ومعالمها التي تعكس أبعاد حضارة بلاد وادي الرافدين بكل الأبعاد.

وبعد غزو الحلفاء للعراق في ٢٠٠٣ تمركزت في مدينة " بابل " كتيبة بولندية عمدت هذه الكتيبة - عن جهل أو عن عمد - على تمزيق هذه المدينة الخالدة حيث قامت بتسخير معالمها وتسوية كثير من مرتفعاتها " تلالها الأثرية " .

ولم تكتف بهذا وذاك بل شقت خندقاً طوله ما يقرب من المائة والثمانين متراً استعملت ركامات ذلك الخندق المملوء بالآثار القديمة بملء أكياس استعملتها كخطوط دفاعية حسب ما تدعي.

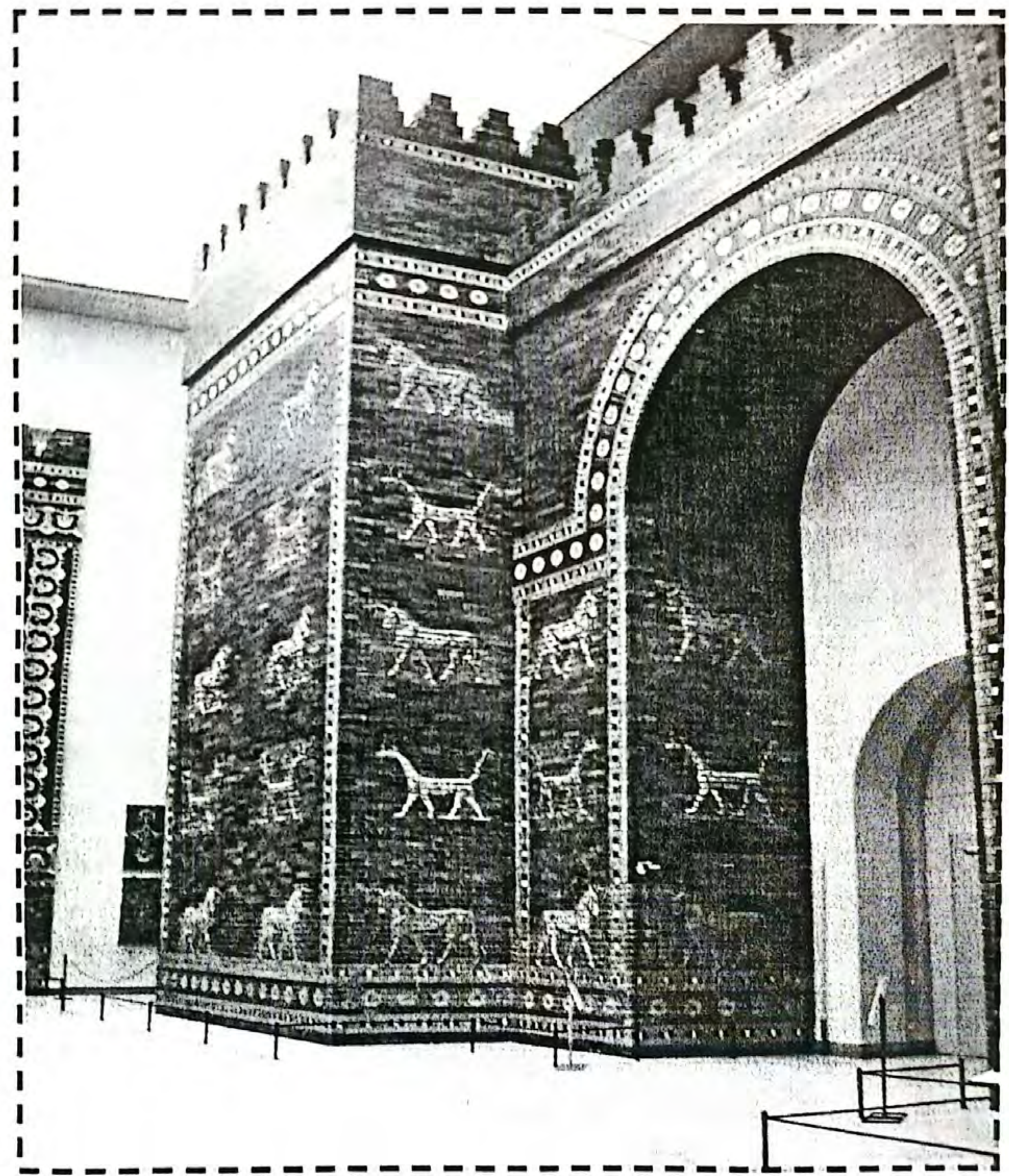
كان هذا والمنظمات الدولية القيمة على الحفاظ على التراث الإنساني تتباكى على أمور، لا يصل مستوى التدمير فيها إلى "آجرة" عليها نقوش بابلية سحقت تحت عجلات التدمير التي كانت تصول وتجول على أطلال بابل.

وعندما رفعت الأصوات شجبت تلك المنظمات الأعمال بالكلام وليس بالأفعال.

وتعد بابل عاصمة المملكة البابلية لإمبراطوريتين بابليتين. و كان السومريون أقدم سكان بلاد بابل، و بابل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم " وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت"، كانت مركزًا دينيا وتجاريا لبلاد بابل.

وصارت بابل بعد سقوط سومر قاعدة إمبراطورية بابل، وقد أنشأها حمورابي حوالي ٢١٠٠ق.م، امتدت من الخليج العربي جنوبًا إلى نهر دجلة شمالا. - وقد دام حكم حمورابي ٤٣ عامًا ازدهرت فيها الحضارات البابلية حيث يعد عصره العصر الذهبي للبلاد العراقية.

وتضم بابل "حدائق بابل المعلقة" التي تعد من عجائب الدنيا السبع. و كان يوجد بها ثماني بوابات، وكان أفخم هذه البوابات بوابة "عشتار" الضخمة. كما كان يوجد بها "معبد مردوك" و يوجد داخل الأسوار ساحة المهرجان الديني الكبير،الواقعة خارج المدينة.



بوابة عشتار لمدينة بابل القديمة محفوظة في متحف برلين

وقد اعتمد الاقتصاد البابلي بصورة رئيسية على الزراعة فقد زرعوا الأرض بالقمح والخضراوات والفواكه. - وحفروا القنوات وربوا المواشي، وصنعوا أشياء من الطين والأحجار والعظام والأخشاب والمعادن، وتعلموا تجفيف المستنقعات وصناعة " الآجر " من الطين.

وقد انقسم المجتمع في بلاد بابل،خلال عصورها المختلفة إلى طبقات متعددة، وهي " الطبقة الأرستقراطية "، التي كانت تضم عادة موظفي الحكومة والكهنة وملاك الأراضي الأثرياء وبعض التجار. و كانت هناك " الطبقة العامة "، وكانت تتألف من الحرفيين والكتبة والمزارعين.

كما كانت هناك " طبقة الرقيق " التي شكلت أدنى طبقات المجتمع البابلي، وكانوا يصنعون أكواخا من القصب والطين.، و يستخدمون الطين المشوي أو المجفف بالشمس لبناء بيوتهم .

وقد بلغ عدد ملوك سلالة بابل والتي عرفت بـ "السلالة الآمورية" أو "العمورية" ١١ملكا حكموا ثلاثة قرون (١٨٩٤ ق.م. -١٥٩٤ ق. م). في هذه الفترة بلغت حضارة العراق أوج عظمتها وازدهارها، وانتشرت فيها "اللغة البابلية" بالمنطقة كلها، حيث إرتقت العلوم والمعارف والفنون وتوسعت التجارة لدرجة لامثيل له في تاريخ المنطقة. وكانت الإدارة مركزية والبلاد تحكم بقانون موحد سنه الملك حمورابي لجميع شعوبها. وقد دمرها الحيثيون عام ١٥٩٥ ق.م.

وقد حكمها " الكاشانيون " عام ١٥١٧ ق.م. وظلت منتعشة مابين عامي ٦٢٦و٥٣٩ ق.م، حيث قامت الإمبراطورية البابلية وكانت تمتد من البحر الأبيض المتوسط وحتى الخليج العربي .

ثم استولى عليها قورش الفارسي سنة ٥٣٩ ق.م، وكانت مبانيها من الطوب الأحمر . واشتهرت بالبنايات البرجية " الزيجورات " . وكان بها معبد " إيزاجيلا " للإله الأكبر " مردوخ " أو " مردوك ". والآن أصبحت أطلالا . و قد عثر بها علي " باب عشتار " وشارع مزين بنقوش الثيران والتنين والأسود الملونة فوق القرميد الأزرق.

حمورابي.. وشريعة حمورابي: حكم حمورابي بابل بين عامي ١٧٩٥ - ١٧٥٠ ق . م وهو من الأموريين، كانت البلاد دويلات منقسمة تتنازع السلطة،فوحدها مكونا إمبراطورية ضمت كل العراق والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل

البحر المتوسط وبلاد عيلام ومناطق أخرى.

وكان حمورابي شخصية عسكرية لها القدرة الادارية والتنظيمية والعسكرية. ومسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود والمحفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس. تعتبر أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم. وتحتوي مسلة حمورابي على ٢٨٢ مادة تعالج مختلف شؤون الحياة. فيها تنظيم لكل مجالات الحياة وعلى جانب كبير من الدقة لواجبات الأفراد وحقوقهم في المجتمع، كل حسب وظيفته ومسؤوليته. بعد وفاة حمورابي تولى الحكم خمسة ملوك آخرهم "سمسو ديتانا" الذي هاجم الحيثيون البلاد في زمنه ١٥ ق. م واحتلوها، وخربوا العاصمة ونهبوا كنوزها بعدها رجعوا إلى جبال طوروس.

تعتبر شريعة حمورابي أول شريعة مكتوبة في التاريخ البشري وتعود إلى العام ١٧٨٠ قبل الميلاد وتتكون من مجموعة من القوانين. وهناك العديد من الشرائع متشابهة لمثل شريعة حامورابي والتي وصلتنا من بلاد ما بين الرافدين منها مجموعات القوانين والتشريعات تتضمن مخطوطة أور-نامو، ومخطوطة إشنونا، ومخطوطة لبت-إشتار ملك آيسن إلا أن تشريعات حمورابي هي الأولى في التاريخ التي تعتبر متكاملة وشمولية لكل نواحي الحياة في بابل.

وهي توصح قوانين وتشريعات وعقوبات لمن يخترق القانون. ولقد ركزت على السرقة، والزراعة (ورعى الأغنام)، وإتلاف الممتلكات، وحقوق المرأة، وحقوق الأطفال، وحقوق العبيد، والقتل، والموت، والإصابات. وتختلف العقوبات على حسب الطبقة التي ينحدر منها المنتهك لإحدى القوانين والضحية. ولا تقبل هذه القوانين الاعتذار، أو توضيح للأخطاء إذا ما وقعت.

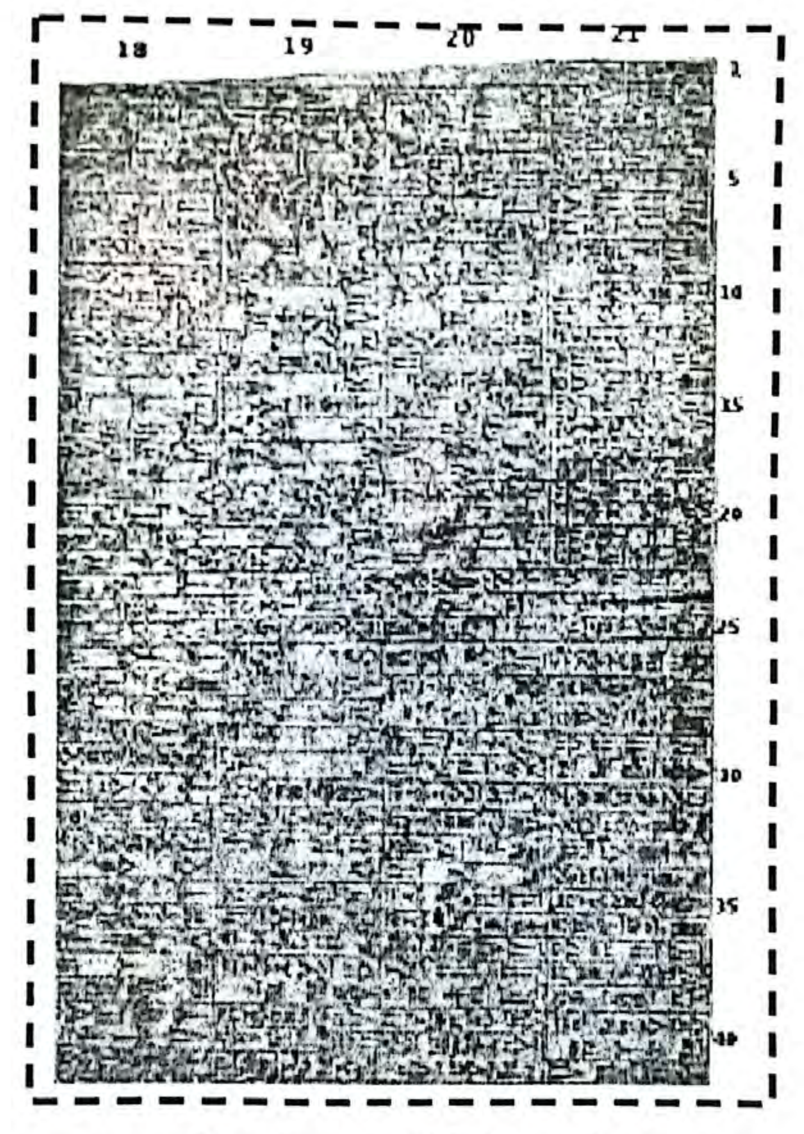
على العكس من بقية ملوك تلك الفترة، فلم يزعم حمورابي أنه سليل آلهة أو ذو ذات إلهية، إلا أنه وصف نفسه بخليل الآلهة. وفي الجزء العلوي من العمود ظهر حمورابي أمام عرش إله الشمس شمش.



مسلة حمورابي التي نقشت عليها شريعة حمورابي

رُقـمت البنود من ١ إلى ٢٨٢ (مع الإشـارة إلى أن البند ١٣، والبنود من ٦٦ لـ ٩٩، و١١٠، و١١١ مفقودة) على عمود طوله ٨ أقدام، ٢,٥ متر، والمكون من حجر الديورت.

ولقد اكتشف هذا العمود عام ١٩٠٩ في سوسا. ويُعرض العمود الآن في متحف اللوفر في باريس، فرنسا. مرسوم على الحجر الملك حمورابي وهو يستمع إلى إله الشمس الجالس على عرشه وهناك كاتب تحت حمورابي يسجل القوانين.



جزء من مخطوطة نقشت عليها شريعة حمورابي

حمورابي، ملك بابل يقف أمام شَماش، إله الشمس في الأساطير القديمة الذي يمثّل العدالة، ويوجد هذا النحت البارز في أعلى نص شريعة حمورابي. وهو يوضّح الإله شماش يأمر حمورابي بسن قوانين عادلة، وقد وجدت هذه

اللوحة الحجرية في سوسا.

ووضع الحجر في مكان عام وسط مدينة بابل لفتح المجال أمام الجميع لرؤية هذه التشريعات الجديدة كي لا يتم التذرع بجهل القوانين.

ولقد تمت الإشارة إلى هذه الشريعة كأول مثال لمفهوم قانوني يشير إلى أن بعض القوانين ضرورية وأساسية حتى إنها تتخطى قدرة الملوك على تغييرها.

وبنقش هذه القوانين على الحجر فإنها دائمة، وبهذا يحيى المفهوم والذي تم تكريسه في الأنظمة القانونية الحديثة وأعطت المصطلح منقوشا على الحجر ماهيته في الأنظمة الحالية.

بحسب التلمود، ولد النبي موسى بعد حمورابي بـ ٤٠٠ سنة وتحتوي شريعة موسى بعض الأجزاء المطابقة لأجزاء معروفة من شريعة حمورابي، وبسبب هذا التطابق زعم بعض العلماء أن العبرانيين استسقوا قوانينهم منها.

بينما نصَّ كتاب وثائق من وقت العهد القديم: "أنه لا أساس لافتراض أن العبرانيين استعاروا بعضاً من قوانين البابليين. ومع اختلاف مجموعتي القوانين في الصياغة، فإنهما مختلفان في الجوهر".

وفي حين حاولت تشريعات حمورابي تنظيم الحياة المدنية داخل المدن ومعاقبة المتسببين بأعمال تودي بالأمن والسلم الأهلي للمدينة.

ومع ذلك لم تخلُ تشريعات حمورابي من أحكام بالموت على مرتكبي الجنح والجرائم التي لاتستحق الموت بمفهومنا اليوم ولكنها كانت ضرورية كما يبدو في حينها.

وتجمع الكثير من المصادر التاريخية على ان إبراهيم الخليل عليه السلام خرج من مدينة أور الكلدانية، أي من سهل شنعار من بلاد بابل الجنوبية على أيام حكم حمورابي.

ملك بابل النمرود.. وسيدنا إبراهيم عليه السلام : الملك النمرود، ذلك الملك العظيم الذي له ملك الدنيا كلها، ومع ذلك كان كافرا بالله... وكما يقول العلماء فقد كان هناك ٤ ملوك ملكوا الدنيا كلها، وهم مؤمنان وكافران.. فأما المؤمنان فهما

ذو القرنين وسليمان، واما الكافران فهما النمرود وبختنصر.

النمـرود هو النمـرود بن كنعـان بن كـوش بن سـام بن نوح عليه السلام.. وكـان ملك بابل.. وقـد استـمـر ملكه ٤٠٠ سنة، يحكم شعـبه بالحـديد والنار، وكـان يعبـد الأصنام ثم جعل نفسه إلها، وطلب من شعبه بأن يعبدوه !!

وقـد رأى النمـرود فـي المنام يومـا، كـوكبـا ظهـر فـي السـمـاء، فـغطى ضـوء الشمس، فسأل حكماء قومه، فأخبروه بأن ولدا " سوف يولد هذه السنة ويقضي على ملكك "، فـأمـر بقـتل جـمـيع الأولاد الذين يولدون تلك السنة... وفـي تلك السنة ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام، فخافت عليه أمه فخبأته في سرداب .

وكان الله يرعاه فلما كبـر أكثـر من الآخـرين، حتى إذا بلغ عمـره سنة واحدة، وكان الناس يحسـبـون أن عـمـره ٣سنوات.. وبذلك استطاعت أمه إخـراجـه من السرداب ولم يتعرض له الملك.

وعنـدمـا أصبح سيدنا إبراهيم شـابا بدأ بمناقشـة أهله وقومـه يدعوهم لعبادة الله، وترك عـبادة النمـرود.. وفي أحد الأيام وبينمـا كـان قومـه يحتفلون خـارج المدينة ذهب سيدنا إبراهيم لأصنامهم وكسرهـا كلهـا، إلا كبيرهم، وعندمـا رجعوا من حفلتهم، وجدوا أصنامهم مهدمة فسألوه، فقـال لهم: إنه كبيرهم الذي كسر الأصنام الأخرى لأنه يغار منهم !!

فـأخذوه للنمرود فبدأ سيدنا إبراهيـم يناقشـه بقـدرة الله وقـال له: ربي الذي يحيى ويميت وبين له دلائله على ذلك.

وعنـدمـا فشل النمـرود في اقناع سـيـدنـا ابراهيم أمـر جنوده بعمل بـرج عـالٍ، ليصل إلى رب ابراهيم ليراه، ثم أمر بعمل نار كبيـرة، وألقى فيها سيدنا ابراهيم، ولكن الله جعلهـا باردة على سـيدنا ابراهيم، فلم تؤذه.. ثم دعـا سـيـدنـا ابراهبم النمرود مرة أخرى ليؤمن بالله ولكنه تكبر وعصى وكفـر بالله .فأرسل الله عليه وعلى جنوده جيشـا من البعوض، هـجم على الجنود فـمص دماءهم، وأكل لحـمـهم وشحمهم وأبقى عظامهم فقط.. فهلكوا جميعا.

وأرسل الله بعوض فدخلت في أنف النمرود، ثم انتقلت لرأسه فآلمته. فكان يطلب من الناس أن ضربوه بالنعال على رأسه ليخف ألم رأسه... وعذبه الله ٤٠٠ سنة، مثل عدد سنين حكمه حتى مات من كثرة الضرب بالنعال.. فمات ذليلا بعد أن كان عزيزا، أعطاه الله الخير والنعم الكثيرة، وبدلا من الشكر كفر به!!

وقد وردت قصة سيدنا إبراهيم و النمرود في القرآن الكريم، في سورة البقرة - الآية ٢٥٨. قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

ويقدم القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الله العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهوَ أحدُ العبيد الضعفاء.

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله، وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار، وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قال مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان طغا وبغا، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاجّ إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: (ربي الذي يحيى ويميت قال: أنا أحيى وأميت).

قال قتادة والسُّدِّي ومُحَمد بن إسحاق: يعني أنه إذا آتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، (هذا دليل) على وجود فاعل. (و) ذلك، الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهَدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها ولهذا قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

فقول هذا الملك الجاهل (أنا أحيي وأميت) إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسُّدِّي ومُحَمَّد بن إسحاق بن يسار فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادّعاه النمرود وانقطاعه جهرة: قَال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإنّ الذي يحيى ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانَع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد، أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة

قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت. ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد ذكر السُّدِّي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرج من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن زَيْد بن أَسْلَم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام.

فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم: وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه؛ فقال: أنَّى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رِزْقٌ رَزَقَهُموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبَّار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم دعاه الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده، وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس وسلّطها الله عليهم، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم وتركتهم عظاماً باديةً، ودخلت واحدةٌ منها في مِنْخَرِ الملكِ فمكثت في منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها .

حدائق بابل المعلقة

كانت حدائق بابل المعلقة شهادة على قدرة رجل واحد إلى خلق واحة نباتية من الجمال وسط كآبة منظر صحراوي، ضدّ كلّ قوانين الطبيعة.

أوجد الملك نبوخذنصّر الحدائق كعلامة احترام لزوجته سيمراميس التي، بحسب الأسطورة، اشتاقت إلى غابات وورود وطنها. كانت الحدائق وسطية ومحاطة بحيطان المدينة وبخندق مائي لصدّ الجيوش الغازية. هناك بقايا شكّ،على أية حال، بين المؤرخين وعلماء الآثار بالنسبة إلى حقيقة وجود هذه الجنة المفقودة أبدا، إذ أن أعمال التنقيب في بابل لم تجد أثرا جازما لها.

يمكن بعض القارئين الحين ما يعرفونها والقليل القليل اللي يعرفونها ويعرفون عنها هذه المعلومات:

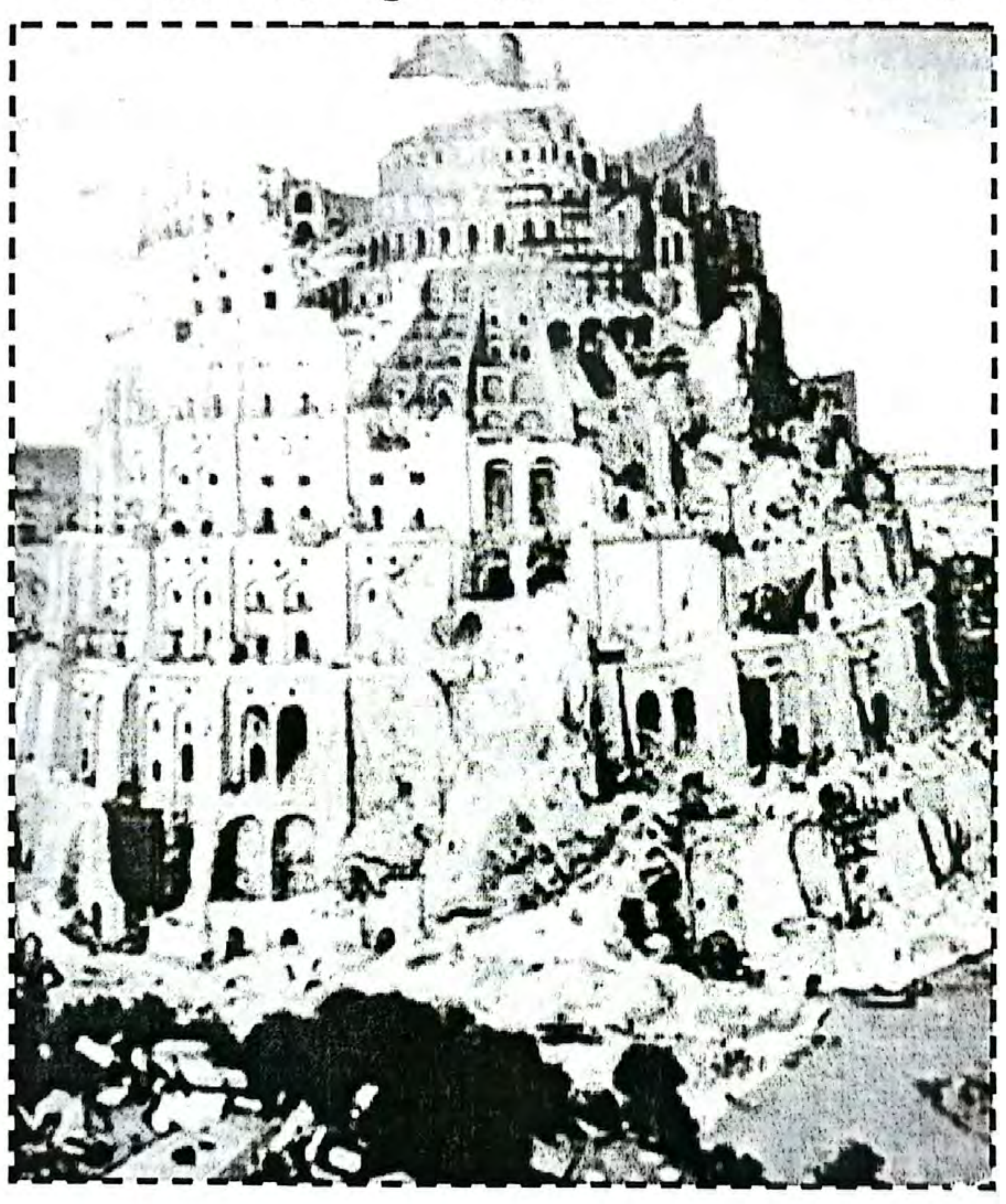
وسميت معلقة لأنها نمت على شرفات القصور وشرفة القصر الملكي ببابل وذلك حوالي ٦٠٠ق. م وحيث انه إكراما لزوجته شيد نبوخذ نصر صاحب الحدائق المعلقة وكان يريد ان يجدد مدينة بابل وذلك لتناسب جمال وفخامة وعظمة زوجته وكانت المدينة ذات أسوار يبلغ ارتفاعها ٣٥٠ قدماً وثخانتها ٨٧ قدما وكان لهذه الأسوار مائة باب مصنوع من الذهب ولكل باب قوائم وسقوف من الذهب أيضاً.

وأعظم ما في المدينةالحدائق المعلقة التي تعتبر فتنة وعجيبة الدول والعصور القديمة أنها بنيت على عقود الحجرالنفيس المقدم هدايا للملك وفي الزراعة كانت طبقات تصلح لمختلف النباتات والأشجار والماء يرفع ويخزن في الطبقات العليا بصهاريج لسقاية الأشجار.

أما البناء فيعد من أعظم الفنون المعمارية التي بلغتها بابل ونَيْنَوى وحيث تتصل الطبقات مع بعضها بدرج واسع وعنما يأتي الربيع وتزهر وتورق الأشجار والورود في هذه الارتفاعات في وسط أجواء الحرارة العالية تكون هذه الحدائق جنة في الأرض تنشر الرائحة العطرة والبرودة واللطافة لتستحق أن تكون من عجائب الدنيا السبع التي بناها نبوخذ نصر لكي تتمتع زوجته بهوائها وجمالهاورائحتها ولطافة جوها وخلابة منظرها.

وقد ظلت مدينة بابل التي تبعد عن بغداد مسافة ٨٥ كيلومترا إلى جنوبها، مصدراً ملهماً لمخيلة أجيال كثيرة من الفنانين والكتاب والمؤرخين وعلماء الآثار.

وهذا ما انعكس في فيض كبير من الأعمال الفنية والفكرية الكبيرة إضافة إلى إنتاج أفلام وموسيقى في عصرنا الحديث تستلهم القصصَ التي رويت عن هذه المدينة المندرسة. من خلال ما تم كشفه من أسرار للمدينة المختفية عن الأنظار على يد علماء الآثار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .



ومن أبشع الجرائم التي ارتكبتها قوات الاحتلال الأمريكي للعراق هو بناء الجيش الأمريكي قاعدة للجنود والدبابات والمروحيات على آثار مدينة بابل العريقة، ما أدى إلى تهشم وتكسر الكثير من الفنون البابلية القديمة. إضافة إلى ذلك، استعمل الجنود الأمريكان آثار البابليين لتعبئة أكياس وأحواض الرمل التي تم ـف للوقاية من الرصاص.

إضافة لذلك، فقد تكبدت بوابة عشتار الأثرية أضرارا هائلة أيضا.

وقد تم توجيه اتهامات ضد الجيش الأمريكي بعد نشر صحيفة "ذا غارديان" أخبار التخريب لآثار بابل.

كان رد الجيش هو أنه كان يعمل لحماية الآثار، وصرح بأنه لو لم يكن الجيش الأمريكي هناك في ذلك الوقت، "لسرقت الآثار" ولكان الثمن "أكثر بكثير"، حسب تعبير قائد الجيش في ذلك الوقت جيمز كونوي.

■ ■ ■

٢

آشور.. وقصة الملكة سميراميس

آشور هي المدينة-الدولة التي أصبحت عاصمة المملكة الآشورية القديمة، اسمها القديم " بال تِل " وشكلت مع " نينوى " و " أربيل " المنطقة النواة للممالك الآشورية المتعاقبة. كانت تقع على بعد ٦٠ ميلا جنوب مدينة الموصل حاليا بشمال العراق على ضفاف نهر الدجلة واندثرت المدينة عام ٦١٢ق.م.

وكانت العاصمة للمملكة الآشورية في شمال وادي الرافدين سنة ٢٥٠٠ ق.م، إلا أن الملك " آشور ناصربال الثاني " (٨٨٣-٨٥٩ ق.م.) قام بنقل العاصمة شمالا إلى مدينة " كالح "، " نمرود حاليا "، بعدما سقطت الإمبراطورية الآشورية عام ٦١٢ق.م. ودمرت مدنها الكبيرة .

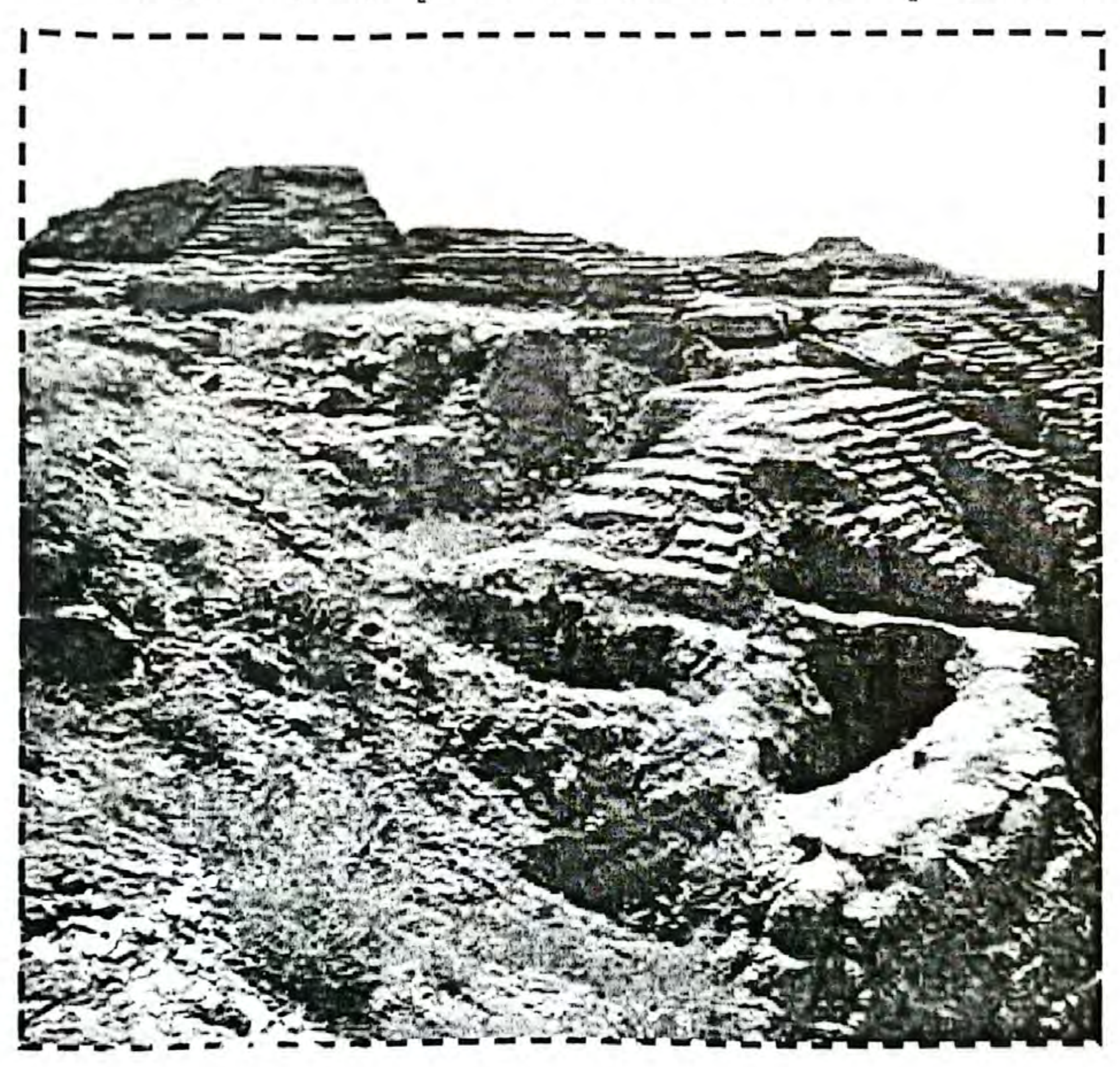
وآشور إمبراطورية قديمة كانت في أعالي نهر دجلة، ببلاد الرافدين، وتشمل الجزء الشمالي تقريبًا من العراق الحديث. أما حضارتها فكانت في أوجه عديدة مماثلة لحضارة جارتها بابل القديمة التي تقع إلى الجنوب منها.

وقد أُطلق على الآشوريين اسم " رومان آسيا " إذ كانوا فاتحين عظماء، كما كانوا يحققون انتصاراتهم بالتنظيم والسلاح والمُعَدَّات الممتازة.

وبلاد آشور أرض هضاب مُمْتدّة. وقد حافظ نهر دجلة، والروافد الصغيرة التي تغذيه، على خصوبة ودْيانها. وإلى الشمال منها، ترتفع جبال أرمينيا، بينما تقع إلى الشرق منها جبال زاغروس، وتلال إيران المرتفعة.

ولم تكن هذه الأراضي الجبلية لتجذب الآشوريين إليها، إلا أن الأراضي الواقعة في الجنوب والغرب كانت أفضل من أراضيهم.

وهكذا كانت أراضي بابل الغنيّة والسهول الخصبة في بلاد ما بين النهرين وسوريا عرضةً للفاتحين الآشوريين. أما المُناخ الطبيعي في آشور فكان أفضل للزراعة منه في بابل، حيث الجوّ أكثر برودة بينما المطر أكثر غزارة. إلا أن الريَّ كان ميسورًا في سهل بابل، بينما كان صعبًا جدا في الهضاب الآشورية.



آثار آشور القديمة

ومنذ أن بدأ الآشوريون السير في طريق الفتوح، فقد استوْلَوْا على ما هو أكثر من الأراضي الزراعية الخصبة المجاورة لهم، حيث ضمت الإمبراطورية الآشورية أراضيَ صالحةً للتعدين، ومناطق غابات، وأنواعًا عديدة أخرى من الأراضي.

أما آشور نفسها فظلت بلادًا زراعية، كما توفرت فيها كميات من حجارة البناء الجيدة، وبعضُ الأخشاب، وقليلٌ من المعادن.

وكان هناك أناس يعيشون في شمال وادي الرافدين قبل أن يَعْمُرها الآشوريون (الذين عُرِفُوا بعد ذلك) بفترة طويلة. فقد بنى م توطنون من جنس مجهول قرى صغيرة حيث قامت آشور وعاشوا في مجتم ات لها بعض خصائص الحياة القبلية. وتُظهِر قطعٌ من الفخار المكسور، والأدو ت الحجَرية، وأساسات لبيوت بدائية، وجود سكان في آشور يعودون إلى العص ر النيوليتي (العصر الحجري الحديث) أي قبل ٦,٠٠٠ أو ٧,٠٠٠ سنة. ويس نطيع علماء الآثار أن يتعقبوا التغيرات التي طرأت على صناعة الفخار، ليخبرونا عن قدوم شعب جديد إلى شور كما أنهم قادرون على وصف التقدم البطيء في الحضارة، إلا أن هؤلاء الأقوام الأوائل لم يتركوا أثرًا مكتوبا وهو ما يجعلنا لا نعرف الكثير عن تاريخهم.

وقبل سنة ٣٠٠٠ ق.م، تدفقت شعوب ساميّه إلى حيث قامت آشور، كما فعل ذلك أيضًا شعب آخر من سهل سومر المجاور. إلا أن الآشوريين في العصور التاريخية كانوا خليطًا من أجناس كثيرة جدا. فعندما يَطلق الكُتّاب صفةَ الشعب السامي على الآشوريين، فهم يقصدون لغتهم أكثر من قصدهم العنصر الذي ينتمون إليه.

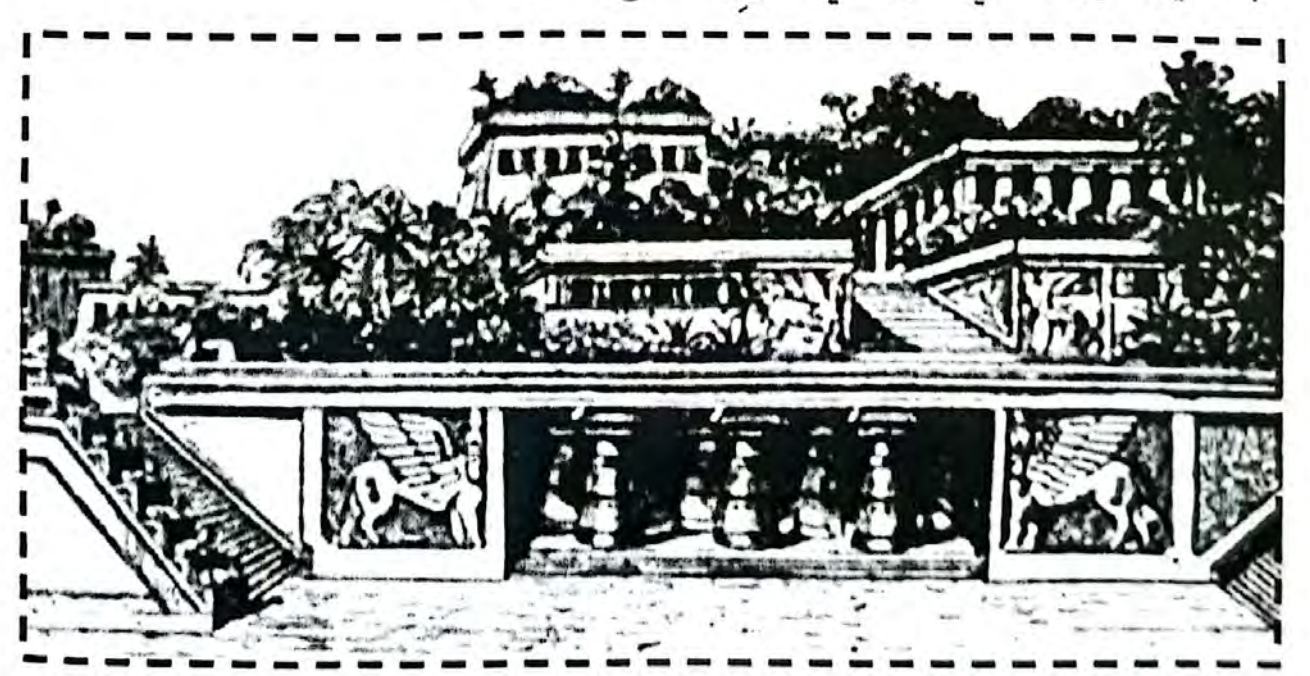
وكان الآشوريون يرتدون الأردية والخف والنعال (الصنادل) (نوع خفيف من الأحذية)، أما شعور رجالهم فكانت طويلة، بينما كان كثير منهم يطلقون لحَاهُم، إذ كان معظم الرجال يطلقون لحى قصيرة، بينما كانت لحى الموظفين من ذوي الرتب العالية طويلةً ومشذبة عند نهايتها على شكل مربع.

وكان معظم الآشوريين سكان مدن ومزارعين وأعضاء في جماعات شبه بدوية، تتجول من مكان إلى آخر قريبا من المناطق الآهلة بالسكّان. أما بلاد آشور فكانت مُقسَّمة إلى إقطاعيات كبيرة يديرها إقطاعيون.

وعاش المزارعون في قرى صغيرة في هذه الإقطاعيات. واشتغلوا في الأرض، وحفروا قنوات الري التي كانت تنقل المياه إلى المزارع، وتساعد في ضبط الفيضانات. وكانوا يعيشون في أكواخ سقوفها من القش، وجدرانها مبْنيّة من الأغصان المجدولة والطين. أما أهم محاصيلهم الزراعية فكان الشعير، كما كان المزارعون في الوقت نفسه يُربُّون المواشي، وينُتجون الحليب، ومنتجات الألبان الأخرى.

وكان في آشور عدد قليل من المدن الكبيرة من أهمها "آشور" و"كالو" و"نينوى". وقد عمل معظم سكان المدن حرفيّين أو تجارًا. وكان الحرفيون يصنعون الفخاريات، ومشغولات من الذهب والفضة والبرونز والعاج والخشب.

أما مدنهم فكانت محاطةً بأسوار يحرسها رماة السهام لحمايتها من أي هجوم يقع عليها. وكان السكان يزرعون الفواكه والخضْراوات والكروم في البساتين الواقعة في الأراضي المَرْويَّة خارج أسوار المدينة.



وكانت الجماعات شبه البدوية تتكون، في معظمها، من العبيد الهاربين والزراع الفاشلين والأشخاص الذين يُطْرَدون من المدن. وكانت جماعات من

هؤلاء تقوم بين وقت وآخر بالإغارة على المدن ونهبها. وهكذا فإن العلاقات بين سكان المدن والجماعات شبه البدوية كانت متوترة باستمرار، بينما كان الملوك يسعون دائما إلى تعزيز سيطرتهم على الأرض وقتما يعتلون العرش.

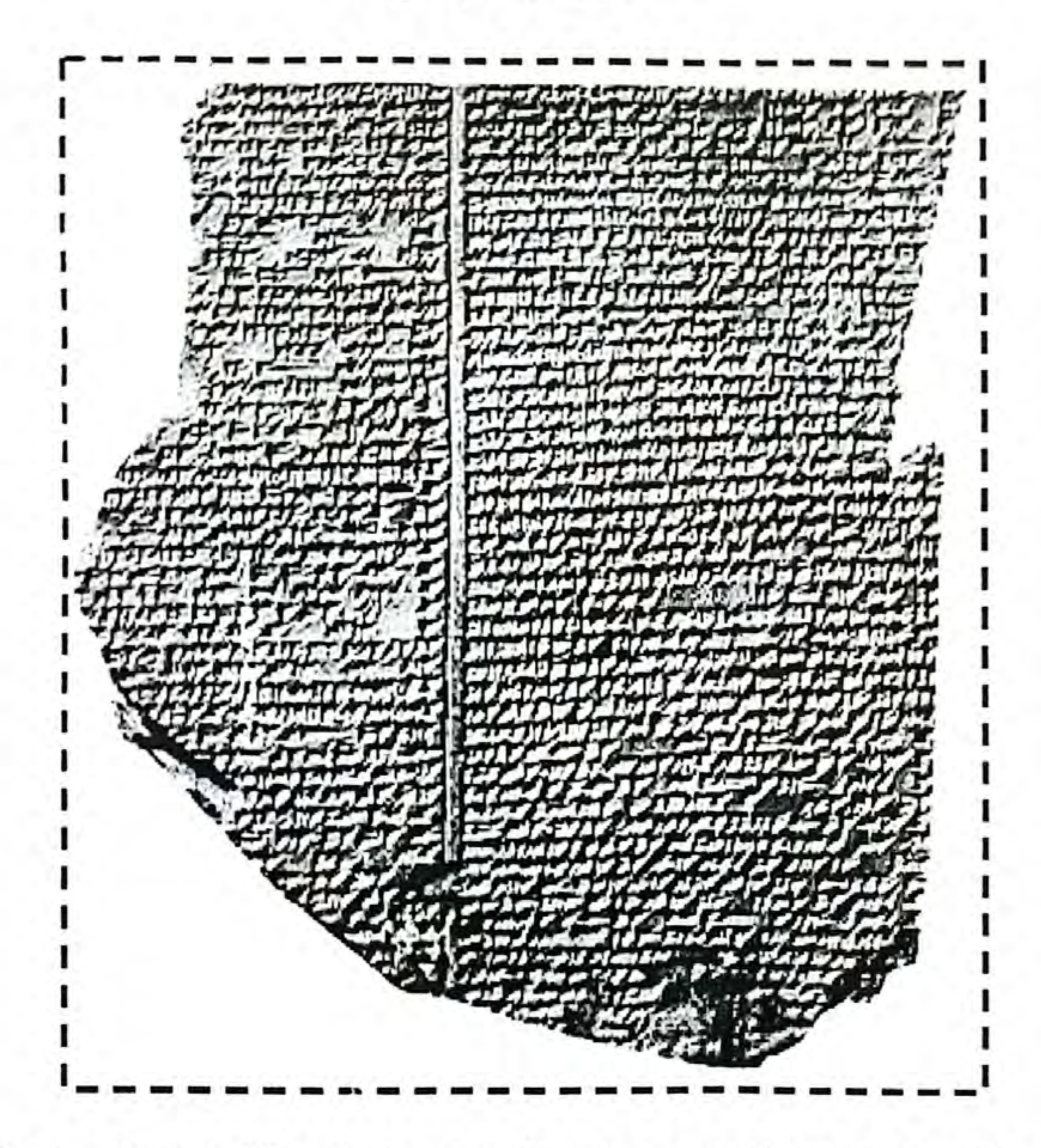
ولم يكن في بلاد آشور إلا أعداد قليلة من العبيد. فمعظمهم كانوا إما أسرى حرب، أو أشخاصًا لم يتمكنوا من تسديد ديونهم. كما كان بعض الآشوريين يُجْبَرون على بيع زوجاتهم وأبنائهم كي يتمكنوا من الوفاء بديونهم.

أما بالنسبة للغة، فقد تكلم الآشوريون الأوائل لغة سامية ذات صلة باللغتين العربية والعبرية الحاليتين، واستخدموا نظامًا في الكتابة عرف باسم الكتابة المسمارية، مستعارة بتطوير من السومرية، وكانت تتكون من رموز مسمارية الشكل منقوشة على ألواح من الطين.

وجمع ملوك آشور ألواح الطين في مكتبات ضخمة. واحتوت مكتبة آشور بانيبال، التي اكتُشفت في نينوى في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، على ألواح تعالج الدين والأدب والطب والتاريخ وموضوعات أخرى. وقد فهرس أمناء المكتبة الآشوريون هذه الألواح بعناية، واحتفظوا بها على رفوف. ويحتفظ المُتّحَف البريطاني في لندن، حاليًا بمعظم ألواح مكتبة آشور بانيبال، وكثير منها موضوع للعرض.

كذلك كتب الآشوريون نصوصًا قانونية. وتعود القوانين الآشورية الوسيطة إلى حوالي عام ١٤٠٠ق.م. مثلها مثل شريعة حمورابي، وتتكون هذه القوانين من نماذج لقضايا صدر في كل منها حكم مًّا. إلا أن العقوبات التي كان يفرضها الآشوريون على منتهكي القانون كانت أكثر قسوة من تلك التي يفرضها البابليون.

وقد تكلم معظم الآشوريين المتأخرين اللغة الآرامية. وكان الكثير من كتاباتهم يُكتب بالخط الآرامي، وربما كانت الكتابة بالحبر على الرِّق. إلا أن الآرامية لم تحل، بشكل كامل، محلّ الكتابة المسمارية؛ تعايشت اللغتان المكتوبتان معًا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، إلا أنهما كانتا تستخدمان لأغراض مختلفة. فبينما كانت النصوص التاريخية والدينية تُكتَب بالخط المسماري.



نص بابلي يعود في تاريخه إلى نحو عام ١٧٠٠ ق.م، وهـ ـاك نسخة آشورية منه وجدت في مكتبة الملك آشور بانيبال (٦٦٨-٦٣٣ ق.م) في العاصمة الآشورية نينوى.

استخدم الآشوريون اللغة الآرامية في أشغالهم اليومية. وقد تلف معظم قطع الرق الآرامية منذ زمن طويل، وبذلك لم يتمكن العلماء إلا من معرفة القليل عن نشاطات الآشوريين التجارية، خلال مئات السنوات القليلة الأخيرة من تاريخهم.

وكان شعار آشور يصور قرص الشمس المجنح وبه معبود: لهم مسلح بقوس. وبلاد آشور عبدت آشور بوصفه إلها للشجاعة العسكرية والإمبراطورية، سميت البلاد باسمه. وتعود هذه المنحوتة الحجرية إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

الدين. الديانة الآشورية وثيقة الصلة بالديانات السومرية والبابلية. وقد آمن الآشوريون بأن هناك آلهة عدة توجه مصير الإنسان وتسيطر على السماء والأرض والماء والعواصف والنار، كما كانوا يؤمنون بالأرواح الخيِّرة والشريرة وبالسحر.

وكان الرمز المسماري في وسط الدائرة: كلمة آشور مكتوبة باللغة الآشورية القديمة العريقة وكان الرمز بعدة ألوان.

اللون الأحمر: اللون الملكي للأمبراطورية الآشورية كما يمثل الشجاعة، والمجد، والفخر وهي رموز التضحية لآشور.

الأزرق الداكن: يمثل الوفرة التي نعتزّ بها في أرض آشور وحكمة أجدادنا، كما يمثل أيضاً اللون الملكي الآشوري.

اللون الأبيض: يمثل السلام والطمأنينة وهي شيَم يتطلع الآشوريين إلى مشاركة الآخرين فيها كما يرمز هذا اللون الى أزلية آشور.

الأحمر والأزرق والأبيض هي أيضاً ألوان العلم الآشوري والخطوط المتماوجة ترمز الى الأنهار الثلاثة الرئيسية في آشور: دجلة والفرات والزَّاب.

الدائرة: رمز الكمال والقدسيَّة وكلمة (أنا) مكتوبة على الجانبين تكتنف كل آشوري يفكر ويكون ويعمل لآشور، لذا وبهذا المعنى كل آشورية وآشوري هم أنا آشور.



شعار آشور

أنا آشور: الأرض التي تكتنف العطاء والإنجازات لحضارة عظيمة هي آشور.

أنا آشور: الهوية وهي التاريخ والثقافة والإرث وكل هذه المقومات تشكل الشخصية الآشورية المميزة.

أنا آشور: اللغة فهي تعبِّر عن الأفكار والمشاعر فكل هذه تربط الآشوريين بعضهم مع البعض.

الأرض، الهوية، واللغة هي القواسم الثلاثة المشتركة التي تكوّن الصوت الحق والعادل لآشورنا ألا وهو أنا آشور.

لذا فكل الأعضاء ومناصري وأصدقاء أنا آشور يرون أنفسهم ويقدّرون كل ما يرمز إليه أنا آشور.

وقد اختلفت ديانة الآشوريين عن الديانات السابقة في بعض الوجوه؛ فإله آشور الأكبر هو آشور أو آسور، وهو الاسم نفسه الذي يُطْلقُه الآشوريون على بلادهم ومدينتهم الأكثر أهمية، بينما كان مردوك هو إله البابليين الأكبر. ولم يكن الملوك البابليون قادة متدينين، إذ كان بإمكانهم أن يدخلوا المعبد مرة واحدة في السنة وفي ظل ظروف خاصة. أما الملك الآشوري فكان حاكمًا، وفي الوقت نفسه كان كاهنًا أكبر، إذ كان الشعب الآشوري يعتبره حاكمًا من قبَلِ الإله آشور على الأرض.

وقد عبد الآشوريون آلهة أخرى، منها نبو، إلهاً للعلم وراعيًا للكتاب، ونينورتا، إلهاً للحرب وعشتار، إلاهةً للحب. وقد اشتهرت عشتار في نينوى حتى أن تمثالها أرسل مرة من هناك إلى مصر اعتقاداً أنها ستساعد الملك المصري في شفائه من مرض ألَمَّ به. كذلك اعتاد الآشوريون تقديم الطعام والأشياء الثمينة إلى آلهتهم. وكان الكهنة يحاولون توقع المستقبل بفحص الأحشاء الداخلية للقرابين وملاحظة ما يحدث في الطبيعة مثل حالات الطقس وتحليق الطيور، وتأويلها.

وتعد "موناليزا نمرود" مثال جيد للفن الآشوري وربما استخدمت هذه المنحوتة العاجية لزخرفة قطعة أثاث آشورية. ويبلغ ارتفاع الرأس نحو ١٥ سم.

ويظهرخادمان ملكيان لسرجون الثاني ملك آشور كما يظهران في منحوتة بارزة ـ باز ريليف جرى ترميمها، عثر عليها في خورساباد في العراق الحديث. ويعود تاريخ المنحوتة الأصلية إلى حوالي سنة ٧٠٠ق.م.

أما بالنسبة للفن والعمارة، فقد شابه فن الآشوريين الأوائل فنون بابل والحضارات الأخرى المجاورة إلا أن أسلوبًا مغايرًا في الفن الآشوري أخذ في التطور في الفترة ما بين ١٤٠٠ و١٠٠٠ق.م. إذ قام الحرفيون الآشوريون بصناعة أجمل أختام أسطوانية أُنتجت في بلاد الرافدين، وكانت هذه الأختام تُدَحرج على الطين الطريّ لتختم بها الوثائق والأشياء الأخرى.

وقد زخرف الآشوريون الأوائل أبنيتهم برسوم جدارية، وبالطين الملوَّن الوضّاء. وفي مرحلة لاحقة، بين سنتي ٩٠٠ و٦٠٠ ق.م، زخرف الآشوريون جدران القصور بألواح حجرية منحوتة، تُظهِر الاحتفالات الدينية أو الانتصارات العسكرية. وأصبحت هذه المنحوتات الحجرية هي الأكثر شيوعًا بين جميع الأعمال الفنية الآشورية كما كانت هناك بعض المنحوتات الأكثر جمالاً، والتي وُجِدت في قصر أشور بانيبال وهي مناظر من الصَّيد. أما الشخوص الإنسانية في الفن الآشوري فلم يكن يظهر عليها أيّ انفعالات، إلا أن المنحوتات في قصر آشور بانيبال أظهرت بشكل حيوي ضراوة الأسود التي اصطيدت ومعاناتها.

وقد صُنِعَتْ المنحوتات الآشورية البارزة بمهارة، إلا أن النحّاتين الآشوريين لم يدركوا كيف يظهرون الأبعاد والأعماق في منحوتاتهم. فباستثناء تماثيل لثيران برؤوس بشرية وأسود، صنعت لحماية القصور، فهم لم يصنعوا إلا القليل من التماثيل الجيدة المجسمة.

وشاد الآشوريون أبنيتهم من الطوب الطيني غير المحروق عادة، بينما كانت الأسس والزخارف الجدارية تُصنَع من الحجارة وكانت جميع أبنيتهم ذوات سقوف مسطحة، حتى إن الكبيرة منها كانت مكونة من طابق واحد فقط. إلا أن بعضها كان يضم غرفًا ترتفع سقوفها إلى تسعة أمتار. وكانت القصور الفخمة

وقاعات الاجتماعات والأروقة تمتد على مساحة فدادين وهكتارات عديدة، بينما ملأت المعابد العظيمة والقصور، إلى جانب الأبنية الأصغر حجمًا، مدن آشور ونينوى وكالّو.

وامتاز الحرفيون الآشوريون بزخرفة الأشياء الصغيرة المشغولة من الحجارة والمعادن والخشب والعاج، كما استوردوا بعض القطع الفنية من فينيقيا ومصر.

وبالنسبة لنظام الحكم، فقد عُرف الملك الآشوري بـ «الملك العظيم» الملك الشرعي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أركان الأرض الأربعة، ملك الملوك، الأمير غير المنافَس والذي يمتد حكمه من البحر الأعلى حتى البحر الأدنى.

وكان الملك رئيسًا أعلى للإمبراطورية الآشورية والكاهن الأكبر للإله آشور. وكان يقود الحملات العسكرية بشخصه إلى مختلف أجزاء الإمبراطورية لتعود بالضرائب وبالمدفوعات الأخرى. وكان من العادة أن يقوم الابن الأكبر للملك ووليّ عهده بتصريف الشؤون الإدارية في البلاد متخذًا من قصر الإدارة سكنًا له.

وتمتع سكان بعض المدن القديمة، مثل آشور ونينوى، ببعض الامتيازات، بما فيها الضرائب المخفضة والإعفاء من الخدمة العسكرية، بينما كان على الإقطاعيين أن يدفعوا الضرائب وأن يمدوا الجيش بشبان من إقطاعياتهم للخدمة فيه. وكانت الإمبراطورية، خارج آشور نفسها، مقسمة إلى ولايات، يدير شؤون كل ولاية منها حاكم مسؤول أمام الحكومة المركزية.

وتشير السجلات المكتوبة والمنحوتات إلى أن الآشوريين عاملوا الشعوب المغلوبة بقسوة، إلا أن المؤرخين غيرُ واثقين من أن الآشوريين تصرفوا فعلاً بمثل هذه الوحشية. فربما كانوا يتظاهرون بالوحشية لإرهاب الشعوب الأخرى ولإرغامها على الخضوع. ذلك أنهم سمحوا، في بعض الأوقات، للشعوب المغلوبة بأن تُبْقِي على حكّامها، إلا أنه في حالة قيام أيّ من هذه الشعوب بالتمرد أو بالامتناع عن دفع الضرائب، فكثيرًا ما كان الآشوريون يدمرون مدنهم ويُرحِّلون الناس إلى مناطق نائية من الإمبراطورية.



ملك آشور

ويعرف العلماء القليل عن تاريخ الآشوريين الأوائل. فأقدم الوثائق المكتشفة، التي تعود إلى قبل سنة ٢٠٠٠ق.م.، تُظهر أن حاكمًا من مدينة أور، جنوب شرق العراق الحالي، حكم آشور. كما تُظهر وثائق تعود إلى فترة لاحقة أن الآشوريين كانوا يتاجرون بكثافة في الأناضول (تركيا الآن).

وفي عام ١٨١٣ق.م نصّب شمشي أدد، وهو زعيم صحراوي للأموريين، نفسه سيدًا لآشور، ووسع من مدى سلطة آشور وحدودها إلا أن آشور وقعت تحت سيطرة البابليين بعد موته.

ولم تُكتشف أية مدوَّنات تعود لمئات السنين التالية. إلا أن المؤرخين يعتقدون أن آشور، خلال جزء من هذه الحقبة، كانت تحت حكم مملكة ميتاني التي تقع في شمال سوريا. وتُظهر المدوَّنات أن آشور عادت دولة مستقلة في أواسط عقود سنة ١٣٠٠ق.م.

وتمتعت آشور بفترات وجيزة من التوسع في القرنين ١٣، ١٢ق.م.، وذلك قبل أن تبني إمبراطوريتها في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد سيطر شلمنصّر الثالث (حكم من ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م.) على طرق التجارة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، كما افتتح تغلات بلسر الثالث (حكم من ٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م.) مناطق واسعة من سوريا وفلسطين وأصبح ملك بابل. وقد تعامل سنحاريب (حكم من ٧٠٤ - ٦٨١ ق.م.) بقسوة مع عدد من الانتفاضات التي قامت في الإمبراطورية، فأخمد ثورة بابل ودمّر المدينة نفسها في أثناء ذلك، كما أخمد ثورات أخرى في سوريا وفلسطين، إلا أنه خسر حكم القدس في يهوذا. وسنحاريب هو الذي أسس نينوى وجعلها عاصمة كما جعل منها مدينة عظيمة. أما خليفته أسرحدون (حكم من ٦٨٠ إلى ٦٦٩ ق.م.) فقد جعل مصر تابعة لإمبراطوريته.

وبدأت آشور تضعف بعد منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وقد وضعت الهجمات التي تعرضت لها من جانب الماديين والبابليين في سنتي ٦١٤ و٦١٢ق.م. نهاية لهذه الإمبراطورية.

وترتبط آشور القديمة بأسطورة الملكة " سميراميس " هذه الأسطورة التي خلبت ألباب البشرية، وفرضت حضورها في الأدب وفي التاريخ وفي الرسم وفي الموسيقى وفي السينما وفي المسرح .

لقد خلبت حكاية هذه الملكة، ألباب الناس في العالم أجمع على مر القرون، منذ أكثر من ألفي عام. فهي تشتهر بالجمال والقوة والحكمة، وبقدرتها الفائقة على إدارة الدولة وقيادة الحروب والتوسع بالفتوحات وروح الإصلاح والتعمير. وتنسب لها الأساطير بأنها هي التي شيدت بابل بحدائقها المعلقة، وأنشأت العديد من المدن وغزت مصر وجزءا كبيرا من آسيا والحبشة، وحاربت الميديين، وأخيرا قادت هجوما فاشلا على الهند، كاد يودي بحياتها. وهناك كتب وروايات لا تعد ولايحصى صدرت عن الملكة سميراميس .

ولم تبخل عليها هوليود بأكبر أفلامها. ويحمل اسم "سميراميس" في جميع أنحاء العالم وفي جميع اللغات ما لايحصى من المراكز السياحية والفنادق ودور التجميل والأنوثة والمتعة.

وصفها الكاتب " ويفي ميليفل "في ثنايا روايته" ساركادون.. أسطورة الملكة العظيمة" : " كانت فائقة الجمال، لا شك في الأمر، ذلك الجمال الذي تعجز الكلمات عن وصفه، إنه الجمال المنتصر، ليس بأقل من الجمال الذي يذعن له الآخرون رغما عن إرادتهم" .

كانت هذه الملكة تشتهر بأن لها قوة خارقة كبطلة بابلية إذ تكاد أن تكون الرديف الأنثوي للبطل الذكوري لـ كلكامش بطل الملحمة الشهيرة التي تحمل اسمه.

كانت تمتلك عيونا ساطعة رغم كثافة رموشها ونظراتها الودودة، لكن يشع منها وهج عبقرية القائد، الذي يستطيع أن يأمر جيشا و يؤسس إمبرلطورية.. شخصيتها الخلابة المهيمنة جعلتها تكتسب شهرة ذائعة الصيت حتى إن "مارجريت" ملكة الدانمارك والسويد والنرويج (١٣٥٣-١٤١٢) وكذلك "كاترين الثانية" قيصرة روسيا (١٧٢٩-١٧٩٦) صنفتا كلتاهما على أنهما "سميراميس" أوربا.

وحسب الأسطورة فإن اسم سميراميس ويعني " الحمامة "، أُطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها ورعتها وأشرفت على غذائها.

وتحكي الأسطورة أنه انسابت سيول عارمة ذات يوم على منابع نهر الفرات ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت الأسماك تستلقي على الشاطئ، وكانت بين تلك الأسماك سمكتان كبيرتان حيث سبحت السمكتان إلى وسط النهر وبدأتا بدفع بيضة كبيرة طافية على السطح إلى ضفة الفرات، وإذ بحمامة بيضاء كبيرة تهبط من السماء وتحتضن البيضة بعيدا عن مجرى النهر.

ورقدت الحمامة على "البيضة " حتى فقست، ومن داخل البيضة خرجت طفلة رائعة الجمال من حولها أسراب من الحمام ترف بعضها عليها بأجنحتها لترد عنها حر النهار وبرد الليل.

ثم بدأت الحمائم تبحث عن غذاء للطفلة، فاهتدت إلى مكان يضع فيه الرعاة ما يصنعون من جبن، وحليب، فتأخذ الحمائم منها بمقدار ما تحمل مناقيرها، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حمائمها سعيدة لا تعرف أبداً طعم الشقاء.

وقد تنبه الرعاة إلى جبنهم المنقور وحليبهم المنقوص، فقرروا ترك أحدهم ليراقب المكان وشهد الراعي الحمائم وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة، وتملأ مناقيرها بالحليب وتطير به إلى مكان ليس ببعيد، فأخبر الراعي رفاقه فتبعوا الحمائم حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع، فأخذوها إلى خيامهم، واتفقوا على أن يبيعوها في سوق " نينوى" العظيمة.

وفي صبيحة ذات يوم حملوا الفتاة وقد أطلقوا عليها اسم "سميراميس "، إلى سوق نينوى. واتفق أن كان ذلك اليوم يوم موسم للزواج الذي يقام كل عام، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحي المملكة، لينتقي كل شاب عروساً شابة، أو ينتقي صبية يحملها إلى داره فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها أو يقدمها عروساً لأحد أبنائه. كانت ساحة سوق "نينوى" تغص بالشيوخ والشبان. دخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء إلى

حيث يعرضونها للبيع. جلس الرعاة مع الصبية في أول الصف، فشاهدهم "سيما" ناظر مرابط خيول الملك، وكان عقيماً لا ولد له فهفا قلبه إلى سميراميس، ورغب في تبنيها.

ودعا "يما" الرعاة وساومهم على ثمنها، وعندما تمت الصفقة، عاد بها إلى منزله. ما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت فرحاً غامراً واعتنت بها عنايتها بابنتها، وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء!

وفي يوم ما كان أونس مستشار للملك، يتفقد الجمهور المحتشد بأمر من الملك واذا بعينه تقع على (سميراميس) وهي الآن في عمر مناسب للزواج، فيصعق مذهولا من جمالها وبراءتها. قام بأخذها معه الى نينوى وتزوجها هناك، وصار لهما طفلان ربما توأمان هما (هيفاتة) و(هيداسفة). يبدو أنهما كانا سعيدين، أما سميراميس فكانت فائقة الذكاء حيث كانت تقدم لزوجها النصح والمشورة في الأمور الخطيرة فأصبح ناجحا في كل مساعيه. أثناء ذلك كان ملك نينوى ينظم حملة عسكرية ضد الجارة باكتريا، فأعد جيشا ضخما لهذا الغرض لأنه كان يدرك صعوبة الاستيلاء عليها.



بعد الهجوم الأول استطاع أن يسيطر على البلد برمته ما عدا العاصمة "باكترا" التي صمدت. شعرالملك بالحاجة الى أونس ولذا أرسل في طلبه، لكن أونس لا يريد مفارقة زوجته الحبيبة فسألها إن كانت ترغب في مرافقته، ففعلت.

هناك بعد أن تابعت سميراميس سير المعارك ودرستها بعناية وضعت العديد من الملاحظات عن الطريقة التي يدار بها الحصار. فبينما كان القتال يجري في السهل فقط وكان كل من المدافعين والمهاجمين لم يعروا القلعة أهمية، طلبت سميراميس إرسال مجموعة من الجنود المدربين على القتال في الجبال، إلى المرتفع الشاهق الذي كان يحمي الموقع. ففعلوا ذلك ملتفين حول خاصرة العدوالمدافع وهكذا وجد الأعداء أنفسهم محاصرين ولا خيار لهم سوى الاستسلام.

في ثنايا هذه الأحداث صار الملك " نينوس" شديد الإعجاب بـ سميراميس لما أبدته من شجاعة ومهارة لحسم المعركة. منذ اللحظة أخذ الملك يتمعن في وجهها الساحر وجمالها المدهش، فأدرك أن قلبه غير قادر على مقاومة سحرها، ولذا طلب منها أن تكون زوجته وملكته. ثم عرض على أونس أن يأخذ ابنته بدلا عنها، إلا أن أونس رفض ذلك. مما حدا بالملك أن يهدده بقلع عينيه، وتحت وطأة الخوف واليأس استسلم أونس لمطلب الملك، غير أنه أنهى حياته بعد فترة وجيزة من زواجها من الملك. هكذا أفلح نينوس بالزواج من (سميراميس) وصار لهم طفل أسمياه " نيناس". بعد موت الملك اعتلت العرش كملكة لنينوى عاصمة بلاد النهرين.

وحسب الأسطورة الرائجة، قد دام حكمها ٤٢ عاما، لكن الواقع أنها كانت تحكم سوية مع زوجها الملك، فقط السنوات الخمس الأخيرة حكمت بمفردها بعد وفاة زوجها.

وقد بدأت حكمها ببناء ضريح فخم في نينوى تمجيدا لزوجها الملك(نينوس). وتنسب إليها أسطورة الشعبية بأنها هي التي بنت مدينة " بابل "، حيث شرعت بعزيمة لا تنثني بحملة واسعة النطاق ببناء مدينة لنفسها ليست بعيدة عن

نينوى، هذه المدينة الجديدة هي بابل. وقد استخدمت لهذا الغرض أكثر من مليوني عامل طبقا لما يقوله المؤرخ الاغريقي " ديودروس "، جالبة إياهم من كل أرجاء الإمبراطورية المترامية الأطراف لإنجاز هذه المهمة الضخمة. إن محيط السور وحده كان حوالي ٦٦ كيلومترا طولا، أما عرضه فقد كان بإمكان ٦ عربات تجرها خيول بالمرور فوقه وهي تسير جنبا إلى جنب، وارتفاعه حوالي١٠٠ متر. تم تشييد ٢٥٠ برجا لحماية المدينة، وأقيم كذلك جسر بطول ٩٠٠ متر على نهر الفرات الذي كان يمر وسط المدينة. وقد أقيمت عند نهاية كل جسر قلعة محصنة كانت الملكة تستخدمها كدار استراحة، هذه القلاع كانت متصلة بعضها ببعص عبر ممرات سرية تحت النهر. وفي هذه لفترة نفسها بنيت الحدائق المعلقة الشهيرة.

ثم أخذت جيوش العراقيين في السنوات اللاحقة بالتوغل بعيدا في آسيا، وهناك أقامت الملكة متنزها فسيحا مقابل جبل باجستان، وعددا آخر من النوافير المزخرفة عند ايكافاتانا. وقد فاقت شهرتها أي من النساء المقاتلات في تلك العصور. يقال إن (سميراميس) كانت مسؤولة عن نشأة العديد من مدن العالم القديمة والتي أقيمت على نهري دجلة والفرات، وكذلك عن إقامة العديد من أجمل وأروع الأضرحة الفريدة والمواقع النادرة الأخرى في كل آسيا. أما عسكريا فقد استولت على ميديا وأخضعت مصر والجزء الأكبر من الحبشة، وكذلك قامت بحملة لاخضاع الهند، فانشأت جيشا جرارا لهذا الغرض ونجحت في عبور نهر السند، لكن جيشها جوبه بأعداد هائلة من الفيلة المدربة مما أفزعوا الخيل والجند، وانسحب جيشها فارا وتعرضت هي نفسها لطعنة كادت تودي بحياتها، و تمكنت بعد جهد شاق من عبور النهر، وهنا أمرت بتدمير الجسر الذي أشادته كي لا يستطيع العدو من العبور عليه لملاحقتها.

ومن الواضح أن معظم هذه الإنجازات قد نسبتها خطأ الأسطورة إلى سميراميس، فليس هي التي بنيت بابل، ثم إن الملك العراقي "نبوخذنصر" هوالذي أشاد هذه الحدائق تلبية لرغبة زوجته الميدية.

ويبدو أن اسم سميراميس هو التحريف الاغريقي للاسم العراقي "سمورامات" وهي ملكة حقيقية مقدسة، وهي أم الملك الآشوري (اداد - نيناري الثالث) الذي حكم بين (٨١٠- ٧٨٣ قبل الميلاد) وزوجة الملك شمشي - اداد الخامس، حكم بين (٨٢٣ - ٨١١ قبل الميلاد)، وهوبدوره ابن شلمنصر الثالث وقد حكم بين (٨٥٩ - ٨٢٤ قبل الميلاد)، وقد تميز حكمها بالغلاظة خاصة بين ٨١٠- ٨٠٥ قبل الميلاد.

ومن المؤكد أن هذه الحكاية الأسطورية مقتبسة من شخصية حقيقية هي الملكة البابلية "سمورات". بعد ذلك بقرون طويلة حرف الاغريق هذا الاسم إلى سميراميس. وهي أصلها من منطقة بابل، وتزوجت من ملك نينوى "شمسو حدد الخامس" (٨٢٣-٨١١ ق.م). بعد أن توفى زوجها لم يكن يبلغ ابنها ولي العهد (حدد نيراني) (٨١١-٧٨٣ق م) سن الرشد، فاستلمت زوجته "سمير امات" المملكة والحكم.

وأصبحت وصية على عرش ولدها لمدة ٥ سنوات حتى بلغ سن الرشد. صحيح أنها استلمت الحكم رسميا لفترة خمس سنوات، إلا أنها كانت تشارك بالحكم منذ أيام زوجها وكذلك مع ابنها. إن شخصيتها القوية وذكاءها الحاد وجمالها الأخاذ جعلها تفرض سطوتها وتمسك بتلابيب دولة بلاد النهرين طيلة عشرات السنين.

وقد عثر على نقش حجري تذكاري في مدينة (آشور) وآخر في (كالح) تصور فيه على أنها الملكة التي حكمت خلفا لزوجها المتوفى. لم تكتف هذه المرأة العظيمة بالسلطة السياسية وإدارة شؤون البلاد بل تعدتها إلى التأثير في الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية. فهي رغم أنها تشارك سكان آشور بالحضارة العراقية المشتركة، إلا أن أصلها الجنوبي منحها بعض الخصوصيات المذهبية والثقافية حيث تمكنت أن تشيع مثل هذه المؤثرات البابلية على طريقة الحكم وعلى الكهنوت الآشوري وعلى عموم الحياة في نينوى. فأضفت نوعا من الرقة والروحانية الجنوبية على المذهب الآشوري الذي كان يتسم أكثر بنوع من

تقديس الفحولة المتمثل بالإله آشور وكذلك الميل إلى منطق القوة والحرب. بل حتى إنها نجحت بإبراز أدوار آلهة كانت ثانوية عند الآشوريين مثل إله الحكمة (نبو). لقد ملكت (سمورامات) كالملوك العظام، حيث أقامت مسلة لتخلد ذكرها في ساحة المسلات في معبد آشور.

وقد سجل على هذه المسلة العبارة التالية: «مسلة سمورامات ملكة سيد القصر - شمس حدد ملك الكون ملك آشور والد حدد نيراني ملك الكون ملك آشور وكنة شلما نصر ملك الجهات الأربع.

وفي كتاب يحمل عنوان: "سميراميس: ملكة آشور وبابل" للكاتب والباحث الإيطالي جيوفاني بيتيناتو، يقول المؤلف إن المعلومات المتاحة بالعربية عن سمُّورامات أو سميراميس مصدرها الأساطير الإغريقية التي قدمتها على أنها شخصية خارقة تصنع المستحيلات. وبالتالي فإن ما كتب عنها يحمل صفة غير واقعية، لذلك تأتي ترجمة هذا الكتاب لتعطي صورة حقيقية عن تاريخ هذه المرأة المتميزة التي أدت دوراً بارزاً في تاريخ بابل وآشور في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد.

بعد سقوط زوجها شمشي أدد الخامس في معركة ضد بابل، تسلمت سميراميس السلطة في آشور، عوضاً عن ابنها القاصر أدد نيراري الثالث، وحكمت خمس سنوات (٨١١- ٨٠٦ ق.م)، تمكنت خلالها من إدارة دفة الحكم ببراعة نادرة، والحفاظ على النفوذ الآشوري. وسلمت السلطة لابنها بعد بلوغه السن التي مكنته من اعتلاء العرش الآشوري.

تؤكد الدراسة أن سميراميس كانت سورية من أصل آرامي، ونظراً إلى نجاحها في إدارة شؤون الدولة الآشورية وتنفيذ مشاريع عمرانية مختلفة، ذاعت شهرتها في معظم أرجاء العالم القديم، وحاول كل شعب الادعاء أنها تنتمي إليه. فالبابليون قالوا إنها بابلية، والإيرانيون قالوا إنها إيرانية، والأرمن نسبوها إليهم.

ويبرز المؤلف محاولة سميراميس في المجال الديني إدخال عبادة الإله البابلي نابو إلى بلاد آشور، وتشييد بعض المعابد له، في محاولة منها لإيجاد تقارب

روحي بين الآشوريين والبابلين، لكن هذه المحاولة فشلت، وبقيت روح العداء هي السائدة بين الشعبين.

يفيد الباحث بأن سميراميس سحرت عدداً كبيراً من الناس، بسبب تلك الصفات التي لخّصها المؤرخ أولمستد بقوله: "الأجمل والأقسى والأقوى والأحيل بين ملكات الشرق". ولهذا دارت حولها أحاديث كثيرة ونُسبت إليها أعمال مدعاة للفخر كالحروب وتأسيس المدن، وبناء بابل المدينة الشهيرة بحدائقها المعلقة. وهذا الادعاء الأخير جعل باحثي العصور القديمة ينقسمون إلى قسمين، قسم يرى أن سميراميس هي بانية هذه المنشأة الرائعة، وآخر يعتبر أن مثل هذا الادعاء غير صحيح تاريخيا، وأن الحدائق المعلقة الرائعة هي من عمل حكام آخرين. ويضيف الكاتب أنه نُسبت أيضاً لسميراميس أعمال سيئة مثل خصي الأطفال واللواط.

ويروي المؤلف أن موت الزوج شمشي أدد المبكر تحت أسوار بابل، وعمر الابن الصغير أدد نيراري ولّدا فراغاً مفاجئاً في السلطة في بلاد آشور، فحلّت سمورامات مكان زوجها القتيل بسرعة، وقضت وهي على رأس الجيش الآشوري، على التمرد البابلي.

وقد أقنع هذا التصرف السريع والسديد المجتمع الآشوري، المعتمد كليا على الرجل، بأن سمورامات قادرة على قيادة البلاد في هذه الساعة الصعبة، فمنحها كبار رجالات الدولة، خصوصاً نائب القائد العام، والمفتش الكبير، وكبير السقاة، ومنادي القصر، ثقتهم ودعمهم.

ويشير إلى أن حكمة هذه المرأة، التي وصلت بمحض الصدفة إلى أكثر عرش رهبةً في الشرق القديم، تظهر في حذرها الذي مارسته في السلطة، فقد تخلت عن إصلاحات محرجة قد تثير الدوائر التقليدية، فمارست نفوذها بهدوء.

يذكر المؤلف أن تأثير سمورامات لم يتوقف مع انتهاء مدة حكمها، بل استمرت في التدخل بشؤون الدولة حتى بعد أن أصبح أدد نيراري ملكاً. ولأنها هي من عيّن مجالس الكبار في الإمبراطورية، وحكام المقاطعات، فإن سياستها استمرت في التأثير لمدة طويلة، وبقي ظلها على الابن حتى وفاتها عام ٧٨٥ق.م.

٣

سَدُوم وعَمُّورة ..
وقصة هلاك قوم لوط

سَدُوم وعمُّورة مدينتان قديمتان من المدن المجاورة للبحر الميِّت تقعان على مقربة من الطرف الجنوبي منه (جنوب الأردن حاليًا). أرسل الله سبحانه وتعالى ـ رسوله لوطًا ـ عليه السلام ـ يدعو أهل المدينتين ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبون من المآثم والمحارم والفواحش التي ابتدعوها ولم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ (الأعراف: ٨٠، ٨١). وأرسل الله الملائكة إلى قوم لوط هؤلاء وأمرهم أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيُّهم بذلك. ونزل الملائكة ضيوفًا على لوط ولم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إلى لوط عندما سمعوا بوجود الضيوف عنده، فخاف لوط أن يمسُّوهم بسوء. قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ (هود: ٧٨). أمرهم بالزواج من بنات مدينتهم عندئذ أمرته الملائكة أن يسري بأهله آخر الليل، فنجَّاه الله من قومه الذين أهلكهم بأن أرسل عليهم حجارة من سجيل منضود وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٤). وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ (الأعراف: ٨٤). وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن

سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢). أما امرأة لوط فقد خانته وكانت خيانتها فى الدين وليست فى العرض فما فرطت امرأة نبى قط فى عرضها عندما أخبرت القوم بوجود الضيوف عنده فأهلكها الله جزاء ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الأعراف: ٨٣).

وهكذا ترتبط سدوم وعمورة بقصة سيدنا لوط . ولوط عليه السلام هو نبي الله لوط ابن هاران بن تارح ـ وهو آزر ـ ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، فإبراهيم وهاران وناحور إخوة.

نزل لوط بمدينة سدوم، وقد اختلفت أقوال المؤرخين المسلمين في موقعها. وذكر ابن الأثير أن مدائن قوم لوط خمس: سدوم، وصبعة وعمرة (أو عمورة) ودوما، وصعوة. وسدوم أكبرها.

آمن لوط بدعوة عمِّه إبراهيم ـ أبي الأنبياء ـ عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٦). وهاجر معه من أرض بابل (العراق) وتبعه في جميع أسفاره، فنزل إبراهيم فلسطين، وأنزل لوطًا الأردن، ثم بعثه الله تعالى إلى أهل سدوم وماجاورها، وابتدأ دعوة أهلها بنهيهم عن الفساد والضلال الذي كان شائعًا بينهم، كما يفعل كل نبي مع قومه.

ذُكرت قصة لوط مع قومه عدة مرات في القرآن الكريم، ومحور القصة أنه نهى قومه عن الفاحشة المقيتة التي كانت سائدة بينهم، فهم يأتون الذكور شهوة دون الإناث، ويقطعون الطريق على السابلة (المرتحلين والتجار). كما ذُكرت قصة الملائكة الذين جاءوا لزيارة لوط تنفيذًا لأمر الله. وهناك روايتان للحادثة، إحداهما رواية قتادة وهي: «ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم؛ فلما انتهوا إليها لقوا لوطًا في أرض له يعمل فيها» قال قتادة راويًا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إن الله تعالى قال للملائكة لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة؛ فانطلق بهم، فلما مشى ساعة

التفت لهم، وقال: أوما بلغكم أمر هذه القرية؟ قالوا: وماأمرها؟ قال: أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض، وما أعلم على وجه الأرض أناسًا أخبث منهم، قال ذلك: أربع مرات، فدخلوا معه منزله، وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه، وخاف عليهم من قومه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (هود: ٧٧). ومايعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته، فأخبرت قومها بذلك وقالت: إن في بيت لوط رجالاً مارأيت مثلهم حُسْنًا قط. فجاءه قومه يُهرعون إليه، فلما أتوه قال لهم لوط: ياقوم خافوا الله ولاتفضحون أمام أضيافي، ألا يوجد بينكم رجل رشيد الرأي والسلوك، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود: ٧٨، ٧٩).

وقد اختلف المفسرون في عرض لوط عليه السلام بناته على قومه، لكنهم اتّفقوا أنه عليه السلام ما أراد إلا أن يتزوجوهنّ علىٓ سنة الله: أو أراد أن يتزوجوا من بنات مدينتهم فهن بالنسبة للوط وهو نبيهم لهم كأنهم بناته ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (هود: ٧٨).

قال ابن كثير: أرشدهم إلى نسائهم، فإنّ النبي لأمته بمنزلة الوالد. وقيل: بل عرض ابنتيه عليهم للزواج. وأيا ماكان الأمر، فقد أراد وقاية ضيفه، وذلك غاية الكرم. فلما رأت الملائكة (وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل) مالقي لوط من الكرب والنصب والتعب بسببهم قالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ (هود: ٨١). وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولاعين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون إذا كان الغد كان لنا وله شأن! وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ٣٧، ٣٨). ولذلك تقدمت الملائكة إلى لوط، عليه السلام، آمرين إيّاه بأن يسري هو وأهله من آخر الليل،

﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ (هود: ٨١).

يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يسير في آخرهم كالساقة لهم. (الساقة مؤخرة الجيش) وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملوعنين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفًا لكل غدّار أثيم: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

فلما خلصوا من بلادهم (لوط وابنتاه) وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله مالايرد، ومن البأس الشديد مالايمكن أن يصد. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣).

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن - وكن خمس مدن وقيل سبع مدن - بمن فيهن من الأمم، فقالوا إنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل أربعة آلاف نسمة، ومامعهم من الحيوانات، ومايتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل مسومة أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه.

ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠-٨٤).

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها؛ إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان. كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠). أي خانتاهما في الدين فلم تتبعاهما فيه. وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة ـ حاشًا وكلا، فإن الله لايكتب على نبي قط أن تبغي امرأته، كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: مابغت امرأة نبي قط.

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: ٣٣ ـ ٣٩).

عـاش لوط عليه السلام في نفس زمن إبراهيم عليه السلام مـرسـلاً إلى بعض الأقـوام المجاورة لإبراهيم، كان هؤلاء القوم كما يخبرنا القرآن الكريم يمارسون نوعاً من الشذوذ لم تعرفه البشرية قبلهم، وهو اللواط. عندما نصحهم لوط بأن يقلعوا عن ممارسة هذا الشذوذ وأنذرهم بطش الله وعقابه، كذبوه وأنكروا نبوته ورسالته، وتمادوا في شذوذهم وغيهم، وفي النهاية هلك القوم بما وقع عليهم من كارثة مريعة.

في العهد القديم يشار إلى المنطقة التي أقام فيها لوط على أنها سدوم، وحيث إن هذه المنطقة تقع إلى الشمال من البحر الأحمر، فقد كشفت الأبحاث أن الدمار قد لحق بها تماماً كما جاء في القرآن الكريم، تدل الدراسات الأثرية أن تلك المدينة كانت في منطقة البحر الميت التي تمتد على طول الحدود الأردنية الفلسطينية.

ويروي لنا القرآن الكريم كيف أهلك الله قوم لوط، أو أهل سدوم، ويمكننا أن نتأمل السبب وراء عقاب آل لوط من خلال القرآن، وكيف أنذر لوطٌ قومَه وبماذا أجابوه:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ

أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٠-١٦٨).

هدد القومُ لوطاً عندما دعاهم إلى اتباع الطريق الصحيح، لقد أبغضوه لأنه يدعوهم إلى الحق والطهر، وعزموا على طرده هو والذين آمنوا معه كما تعرض لنا الآيات الآتية:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٠-٨٢).

عرض لوط (عليه السلام) على قومه الحقيقة واضحة وأنذرهم بشكل واضح وصريح، إلا أنهم لم يكترثوا لأي تهديد أو وعيد، واستمروا في نكرانهم وتكذيبهم بالوعيد الذي جاء به:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٨-٢٩).

وهنا وبعد أن تلقى لوط عليه السلام هذا الجواب توجه إلى الله يسأله العون:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٠).

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ١٦٩).

وهكذا استجاب الله لرسوله، يقال فأرسل ملكين في صورة رجلين، مر هذان الملَكان على إبراهيم قبل أن يصلوا لوطاً، وأعطوه البشرى بأن امرأته ستلد له غلاماً، وشرح الملكان لإبراهيم سبب إرسالهم إلى قوم لوط: لقد حكم على قوم لوط المتغطرسين بالهلاك...

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذاريات: ٣١، ٣٤).

﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾(الحجر: ٥٩-٦٠).

وبعد أن غادر الملَكان - وهما على هيئة رسولين - إبراهيم وصلوا لوطاً، اغتم لوط لمجيء الرسل في بادئ الأمر لأنه لم يكن قد رآهم قبلاً، إلا أنه هدأ بعد أن تكلما معه:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾

(هود: ٧٧).

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الحجر: ٦٢-٦٦).

في هذه الأثناء عرف القوم أن لوطاً يستضيف ضيوفاً، فلم يترددوا في إيذائهم بممارساتهم البشعة، فطوقوا منزل لوط ينتظرون خروجهم، خاف لوط على ضيوفه من أن يلحق بهم الأذى فخاطب قومه:

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ﴾ (الحجر: ٦٨- ٦٩).

فأجابه القوم: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الحجر: ٧٠).

ظن لوط أن ضيوفه أصبحوا مُعَرَّضِين إلى تلك الممارسة الشيطانية :

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود: ٨٠).

إلا أن ضيوفه ذَكَّروه بأنهم رسل الله إليه:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

(هود: ٨١).

وعندما وصل شذوذ القوم الذُّرْوَةَ، أنقذ الله لوطاً بمساعدة الملَكين، وفي الصباح أُهلك القوم بالكارثة المدمرة التي أنذرهم بها لوط من قبل:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ٣٧-٣٨).

وتصف لنا الآيات دمار القوم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (الحجر: ٧٣-٧٦).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢-٨٣).

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ١٧٢-١٧٥).

وعندما دُمِّرَ القوم لم ينج منهم إلا لوط ومن آمن معه، وهؤلاء جميعاً لم يكونوا يتعدون عدد أفراد الأسرة الواحدة. إلا أن امرأة لوط لم تكن من المصدقين فهلكت مع الهالكين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

(الأعراف: ٨٠-٨٤).

وهكذا نجا لوط عليه السلام ومن معه من المؤمنين وعائلته إلا امرأته كانت من الغابرين. وكما ورد في التوراة : هاجر لوط مع إبراهيم عليهما السلام بعد أن هلك القوم الضالون ومسحت منازلهم وجه الأرض.

توضح الآية ٨٢ من سورة هود ماهية العذاب الذي وقع على قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

جملة (جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) تشير إلى أن المنطقة قد أصابها هزة أرضية قوية، وهنا نجد أن بحيرة لوط، المكان الذي وقع فيه العذاب، تحمل دلائل واضحة عن كارثة كهذه.

يقول عالم الآثار الألماني وورنر كيلر:

غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وعوموراه مع الشق العظيم، الذي يمر تماماً في هذه المنطقة، في يوم واحد إلى أعماق سحيقة، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل.

في الحقيقة، تعتبر منطقة البحر الميت، أو بحيرة لوط، منطقة زلزالية نشطة، أي منطقة زلازل.

وهو يقع في صدع تكتوني متجذر، ويمتد هذا الوادي ٣٠٠ كم على طول الوتر الواصل بين بحيرة طبريا شمالاً إلى منتصف وادي عربة جنوباً .

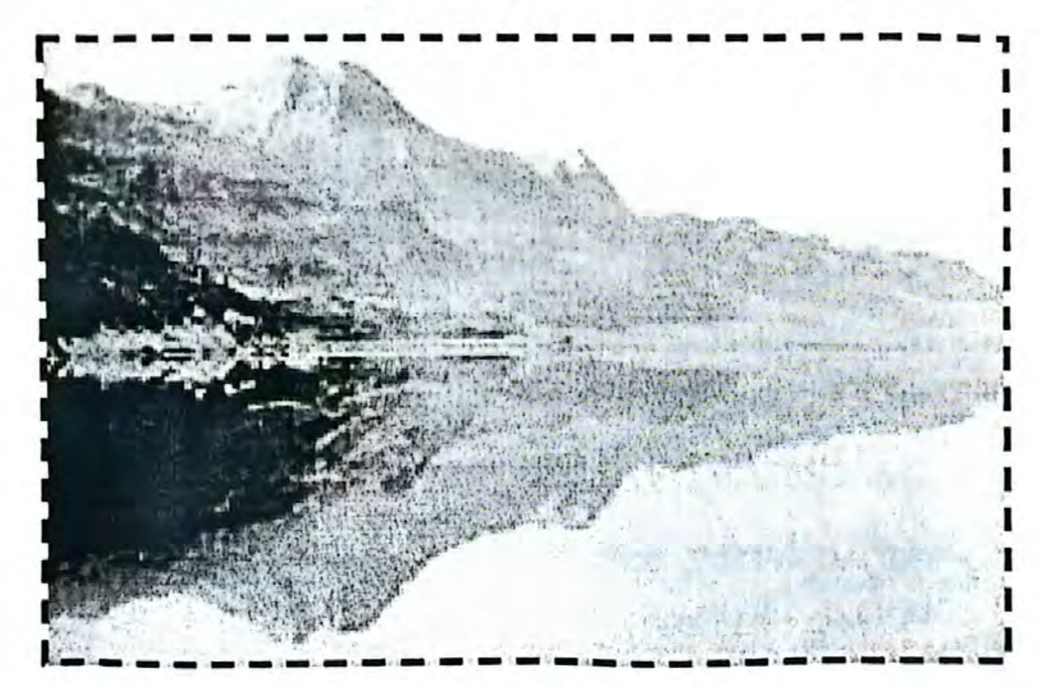
أما الجملة الأخيرة من الآية: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ) فربما تعني حدوث انفجار بركاني على ضفتي بحيرة لوط، ولهذا كانت الحجارة التي انطلقت (مِنْ سِجِّيل) تعرض الآية ١٧٣من سورة الشعراء لنفس الصورة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

وعن ذلك يقول وورنر كيلر: "تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغَوْر، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الضفة الغربية، بينما تترسب هنا الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي.

تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة

عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة، وتبدو هذه الكارثة بالسياق القرآني (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) فالقرآن يشير، على أغلب الظن إلى هذا الانفجار البركاني، والله أعلم. وقوله تعالى: (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) يشير إلى وقوع الزلزال الذي استثار البركان لينفجر على سطح الأرض ليترك آثاراً مدمرة وشقوقاً وحمماً، والله أعلم.

الدلائل البينة والآيات الواضحة التي تظهر في بحيرة لوط مثيرة للغاية، بشكل عام تقع كل الأحداث التي يرويها القرآن في الشرق الأوسط، الجزيرة العربية ومصر، في منتصف هذه المناطق تماماً تقع بحيرة لوط.



صورة للبحر الميت



صورة للبحر الميت عبر الأقمار الصناعية

وقد أثارت بحيرة لوط والمناطق المجاورة لها اهتمام الجيولوجيين، إذ تنخفض هذه البحيرة ٤٠٠ متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط، وبما أن أخفض نقطة في هذه البحيرة تغوص حتى ٤٠٠ متر عن سطحها، إذن فقاع البحيرة يكون بانخفاض ٨٠٠ متر عن سطح البحر، وهذه أخفض نقطة على وجه الأرض، لا يتعدى عمق المناطق المنخفضة عن سطح البحر في العالم أكثر من ١٠٠ متر. الخاصية الأخرى التي تختص بها هذه البحيرة دون غيرها هي الكثافة الملحية فيها والتي تبلغ ٣٠٪، ولا تسمح هذه النسبة لأي نوع من الكائنات البحرية مثل الأسماك، الطحالب، الإشنيات وما إلى ذلك بالعيش فيها، ولهذا سميت بالبحر الميت Dead Sea في الأدب الغربي .

وحسب التقديرات: فإن قصة قوم لوط التي يرويها القرآن تعود إلى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، لاحظ كيلر من خلال دراساته الجيولوجية والأثرية أن مدينتي سدوم وعومورا كانتا تقعان في وادي سديم الذي كان يشغل النهاية القصوى والأكثر انخفاضاً من بحيرة لوط، وأن هذه المنطقة كانت من أكثر المناطق سكاناً في هذه الأرض.

من أكثر الخصائص البنيوية لهذه البحيرة هو ذلك الدليل الذي يظهر واقعة الدمار كما رواها القرآن.

هناك قسم يشبه اللسان يشكل شبه جزيرة في شرقي بحيرة لوط، وهو يمتد داخل البحيرة وقد أطلق العرب على هذا القسم اسم "اللسان وهو يقسم قاع البحيرة تحت الماء الى قسمين ولا يبدو هذا ظاهراً للعيان فوق اليابسة.ومع أن القاع في يمين شبه الجزيرة هذه هو على عمق ٤٠٠ م. الا أن الجانب الأيسر منها ضحل إلى درجة محيرة. وقد أظهر السبر الذي أجري منذ عدة سنوات أن عمق الماء هنا يزيد عن ١٥ - ١٦ م، هذه المنطقة الضحلة تشكلت فيما بعد نتيجة الزلازل وما تبعتها من ترسبات للانهيارات الكبيرة التي حدثت في أعقابها وهذه المنطقة هي منطقة سدوم وعامورا التي عاش فيها قوم لوط.

لاحظ وورنر كيلر هذا الجزء الضحل، الذي اكتُشف أنه قد تشكل فيما بعد، أنه حصل نتيجة الهزة الأرضية والانهيار الكبير الذي أحدثته هذه الهزة، هذه المنطقة هي التي كانت تشغلها سدوم وعومورا، أي: مسكن قوم لوط.

كان من الممكن في القديم الانتقال من هنا إلى الضفة المقابلة مشياً على الأقدام.أما الآن فإن الجزء السفلي من البحر الميت يغطي مدينتى سدوم وعامورا الموجودتين في وادي سديم.ونتيجة لانهيار القاعدة بسبب كارثة طبيعية مرعبة حدثت في الألف الثاني ق.م اندفعت المياه المالحة من الشمال إلى هذا الفراغ والتجويف الحادث وملأت هذا القسم تماماً.

تكشف الأبحاث الجيولوجية عن الناحية الديناميكية لكارثة قوم لوط، تقول

هذه الدراسات: إن الزلزال الذي دمر القوم جاء نتيجة لتشكل صدع طويل في الأرض (خط التصدع) على بعد ١٩٠ كم ليشكل حوض نهر الشريعة، يشير انحدار نهر الشريعة نزولاً حوالي ١٨٠ كم، بالإضافة إلى انخفاض البحر الميت بمقدار ٤٠٠ متر عن سطح الأرض إلى أن حادثاً جيولوجيا على جانب من الأهمية قد اتخذ مجراه في حقبة من الزمن.

تشكل البنية المثيرة لنهر الشريعة وبحيرة لوط جزءاً صغيراً فقط من الشق أو الصدع الذي يمر من هذه المنطقة من الأرض، لقد اكتُشِفَ مكان وطول هذا الصدع في أيامنا هذه فقط.

يبدأ الصدع من مناطق جبال طوروس ويمتد جنوباً حتى بحيرة لوط، ثم يواصل امتداده خلال الصحراء العربية ليصل إلى خليج العقبة، ثم يستمر عبر البحر الأحمر لينتهي في إفريقيا، وعلى امتداد هذا الصدع لوحظت أنشطة بركانية، حيث يمكن ملاحظة الحجارة البازلتية والبركانية في جبل الجليل في فلسطين وفي المناطق المنبسطة والمرتفعة من الأردن وفي خليج العقبة والمناطق المجاورة.

تدل هذه الآثار والمعلومات الجيولوجية مجتمعة على أن بحيرة لوط قد شهدت كارثة جيولوجية مخيفة، كتب وورنر كيلر:

غاص وادي سديم الذي يتضمن سدوم وعومورا مع الشق العظيم، الذي يمر تماماً في هذه المنطقة، إلى أعماق سحيقة في يوم واحد، حدث هذا الدمار بفعل هزة أرضية عنيفة صاحبتها عدة انفجارات، وأضواء نتج عنها غاز طبيعي وحريق شامل، تحررت القوى البركانية التي كانت هامدة في الأعماق على طول الصدع من ذلك الغور، ولا تزال فوهات البراكين الخامدة تبدو ظاهرة في الوادي العلوي من الأردن قرب باشان، بينما تترسب الحمم البركانية وتتوضع طبقات عميقة من البازلت على مساحة واسعة من السطح الكلسي، تدل هذه الحمم المتحجرة وطبقات البازلت على تعرض هذه المنطقة إلى هزة عنيفة وبركان ثائر في زمن من الأزمنة.

بقايا المدينة التي انزلقت إلى بحيرة لوط، والتي عثر عليها على ضفاف البحيرة وتدل هذه البقايا على أن قوم لوط كانوا على مستوى معيشي راقٍ.



بقايا سدوم التي انزلقت إلى بحيرة لوط، والتي عثر عليها على ضفاف البحيرة وتدل هذه البقايا على أن قوم لوط كانوا على مستوى معيشي راقٍ

أما مجلة "ناشونال" الجغرافية فقد حررت هذه المعلومات في كانون الأول من عام ١٩٥٧:

يرتفع قمة جبل باتجاه البحر الميت، لم يجد أحد حتى الآن المدن المدمَّرة: سدوم وعومورا، إلا أن الباحثين يرون أنهما كانتا في وادي سديم أمام المنطقة الصخرية، قد تكون مياه البحر الميت غمرتهما بعد زلزال مدمر.

قامت الأقمار الصناعة الأمريكية بتصوير قاع البحر فكشفت الصور ست نقاط على شكل مستطيل هي عبارة عن قرى مغمورة تحت البحر الميت يعتقد أنها قرى نبي الله لوط عليه السلام.



كما قامت إحدى الغواصات البريطانية الصغيرة بمسح قاع البحر الميت فكشفت وجود عدة بروزات كبيرة مغمورة بطبقة سميكة من الملح يعتقد أنها قرى نبي الله لوط عليه السلام.

بقايا من الأشجار القديمة عليها ترسبات ملحية تمتد في إحدى أطراف البحر الميت الضحلة.

تبدو آثار قوم لوط واضحة... عندما تبحر في قارب عبر بحيرة لوط إلى أقصى نقطة جنوباً، وعندما تكون الشمس مرسلة أشعتها باتجاه اليمين، سترى شيئاً مذهلاً، على بعد معين من الشاطئ، وتحت ماء البحر الصافي تظهر حدود الغابات التي حفظتها ملوحة البحر الميت بشكل واضح: أغصان قديمة جدا، وجذور ضاربة في القدم تحت المياه الخضراء المتلألئة. وادي سديم... أجمل أماكن تلك المنطقة في ذلك الزمن، حيث كانت هذه الأغصان والأشجار خضراء يانعة ذات يوم والورود متفتحة.

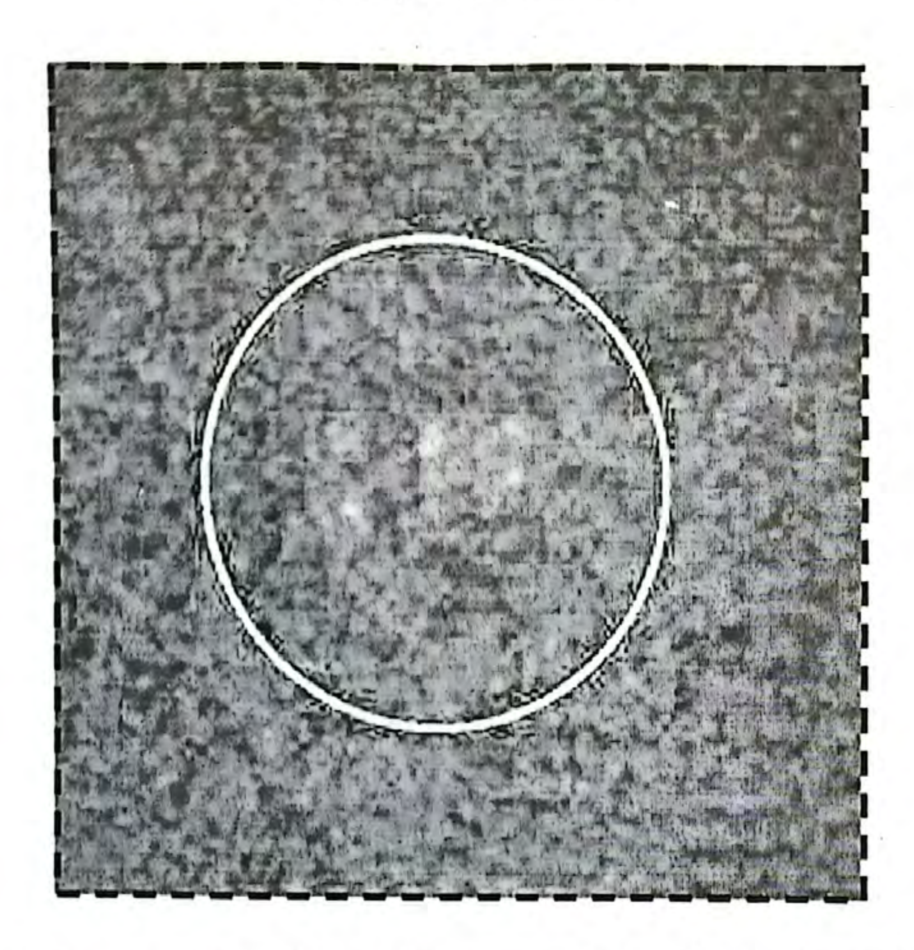
وقد اكتشف الأثريون شيئاً من هذه المدن المنكوبة على حافة البحر الميت.

يعتقد بعض الباحثين وأهالي الغور في الأردن بأن هذا المكان هو كهف النبي لوط عليه السلام.

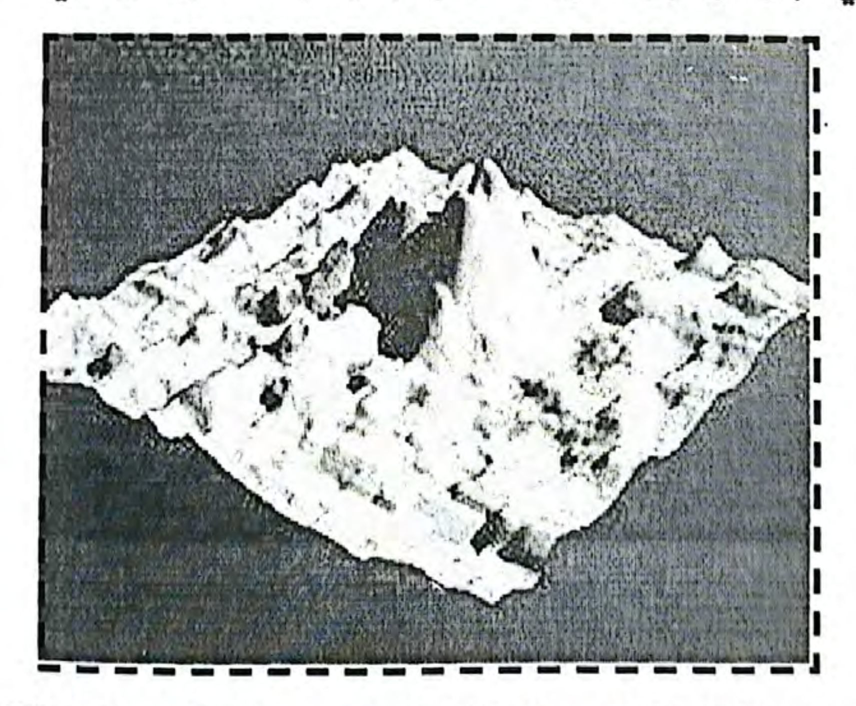
في الأعلى صورة الكهف الذي لجأ إليه لوط عليه السلام وبناته بعد العقاب الذي حل بمدينتي سدوم وعمورة نتيجة اقتراف أهلها لفاحشةِ اللواط.

فقام النصارى البيزنطيون الأوائل ببناء كنيسة حول الكهف، ولقد كان السكان المحليون في منطقة الغور يعرفونه لكن اكتشافه وتسجيله من قبل علماء الآثار حدث في عام ١٩٨٦م.

وفي العام التالي أجرت وزارة السياحة والآثار الأردنية اهتمامها باكتشاف وترميم هذا الموقع بالتعاون مع مكتب الخارجية البريطاني والمعهد الأمريكي للأبحاث الشرقية ومنذ عام ٢٠٠٠م قام المركز الأوروبي للمباني الأثرية في العصر البيزنطي بتمويل أعمال الترميم للأرضيات الفسيفسائية في الموقع.



قامت الأقمار الصناعية الأمريكية بتصوير قاع البحر فكشفت الصور ست نقاط على شكل مستطيل هي عبارة عن قرى مغمورة تحت البحر الميت يعتقد أنها قرى نبي الله لوط عليه السلام



كما قامت إحدى الغواصات البريطانية الصغيرة بمسح قاع البحر الميت فكشفت وجود عدة بروزات كبيرة مغمورة بطبقة سميكة من الملح يعتقد أنها قرى نبي الله لوط عليه السلام

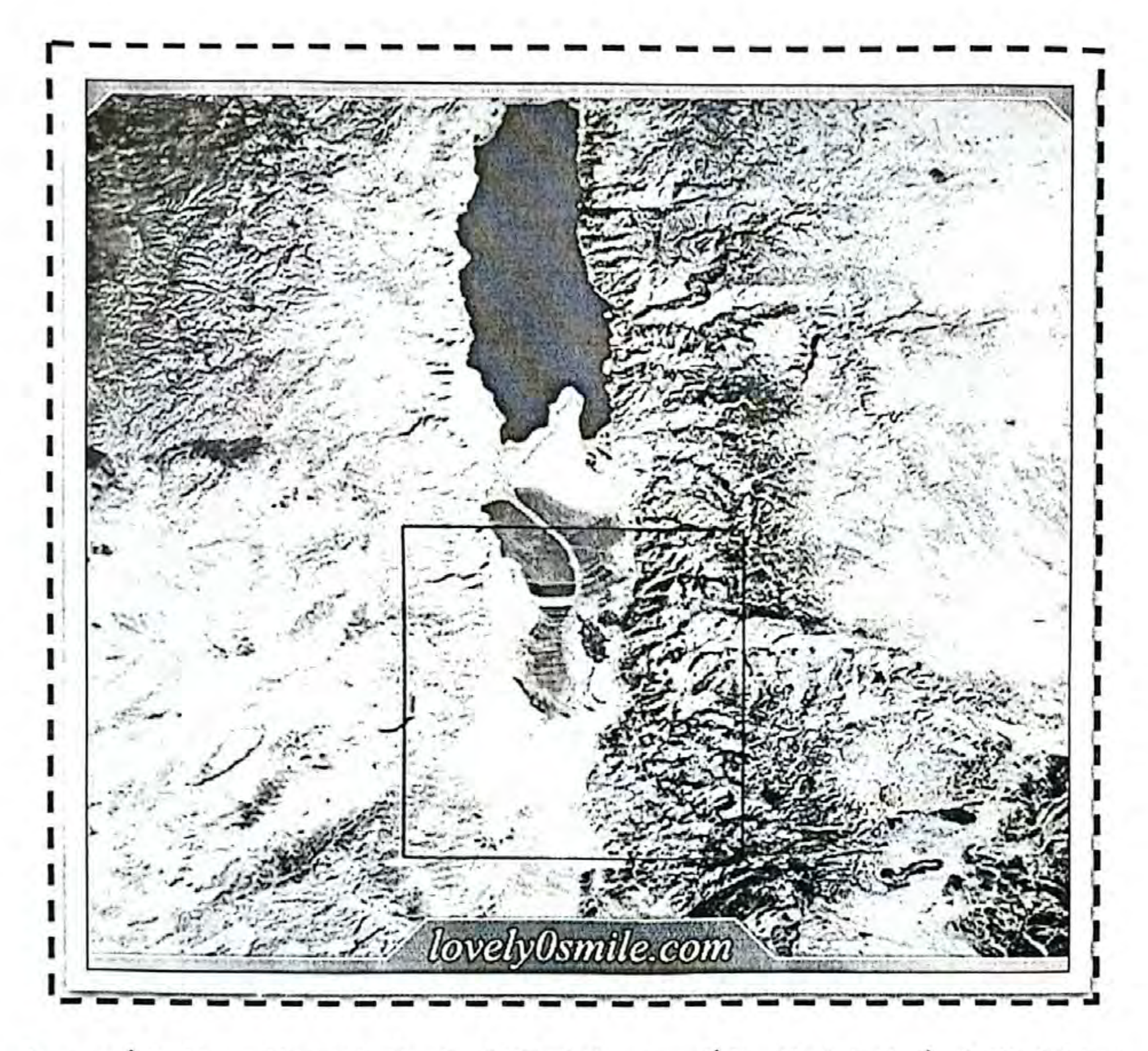


بقايا من الأشجار القديمة عليها ترسبات ملحية

تمتد في إحدى أطراف البحر الميت الضحلة



والآية البينة: البحر الميت وتحت مياهه بلدة سدوم



إن البقعة التي أصابها العذاب الأليم هي البقعة التي تعرف اليوم بالبحر الميت أو بحيرة لوط عليه السلام. ويرى بعض العلماء أن البحر الميت لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث، وإنما حدث من الزلزال الذي جعل أعالي البلاد أسافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو ٣٩٢م. وقد اكتشف الأثريون شيئاً من هذه المدن المنكوبة على حافة البحر الميت



يعتقد بعض الباحثين وأهالي الغور في الأردن بأن هذا المكان هو كهف النبي لوط عليه السلام.



منتصف الطريق المؤدي إلى كهف لوط ﷺ بدير عباطة في غور الصافي بالأردن



الكهف من الداخل

٤

تدمر العظيمة.. وملكتها زنوبيا

تدمر مدينة في وسط الصحراء السورية، تلقب بعروس الصحراء. كانت واقعة على طريق القوافل بين آسيا وموانئ البحر المتوسط ومنها إلى روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية. استوطنتها قبائل عربية انشأت دولة بدأت في بدء التاريخ الميلادي أوج عزها.

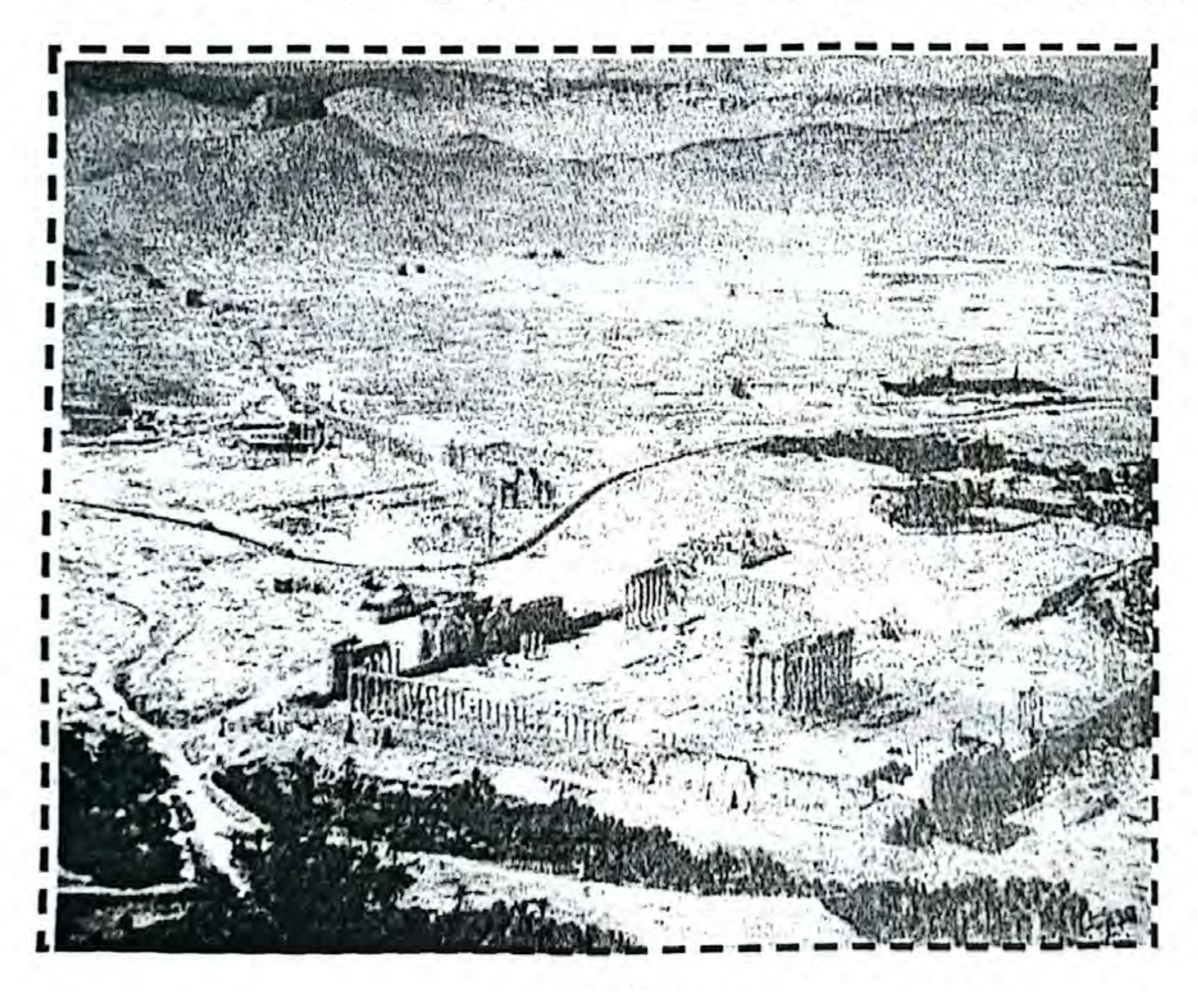
ازدهرت في عهد ملكتها زنوبيا، التي أسرها الرومان واحتلوا المدينة وقضوا على الدولة العربية عام ٢٧٢ م. استعادها العرب المسلمون على يد خالد بن الوليد عام ٦٣٣ م. حضارتها كانت مزيجا من العوامل اليونانية والرومانية والشرقية، ومن أشهر آثارها الباقية هيكل بل وبعلشميش وهما من آلهتهم، والرواق الكبير والقبور الرائعة.

وتدمر مدينة آثارية تعد من أعظم المدن التاريخية في العالم تنتشر آثارها على مسافة كبيرة بمعالم في غاية العظمة والفخامة مثل الشارع المستقيم الذي تحيط به الأعمدة وقوس النصر والمسرح والمدرج والساحة العامة والقصور والمعابد وأهمها معبد بل (بعل) والمدافن الملكية وقلعة ابن معن وتماثيل وآثار كثيرة تنطق بعظمة مدينة تدمر التي نافست عاصمة الإمبراطورية روما أيام مجدها وأصبحت عاصمة لأهم ممالك الشرق مملكة تدمر.

كانت مدينة تدمر محطة تجارية في غاية الأهمية بين آسيا وأوروبا حيث قامت مملكة تدمر وسط منطقة البادية السورية بين نهر الفرات والبحر الأبيض

المتوسط. ازدهرت مملكة تدمر في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، وكانت تحمل طابع المدن الإغريقية الرومانية بأبنيتها الملكية ومساكن الإدارة وطراز الأبنية العامة والخاصة والتي تتميز بالفخامة فقد كانت المدينة أغنى المدن واكثرها ثراء وعظمة، فيها الكثير من الآثار والتي تعد من أهم أوابد وآثار المدن القديمة بأهميتها وفخامتها وعظمتها. وتنتشر آثار تدمر على بقعة واسعة من الأرض من البوابات وأقواس النصر والشارع المستقيم ,وآثار ومعابد كثيرة على امتداد الموقع.

كانت الطبيعة السكانية لمملكة تدمر مقسمة إلى طبقات هم: النبلاء والكهنة والمواطنين والأحرار، والعبيد، والأجانب. والمواطنون هم أبناء العشائر وكان بعض هذه العشائر أحلاف. والعبيد هم عبيد السادة وخدمهم، والأجانب وهم التجار والوافدن إلى المملكة المزدهرة تجاريا بقصد العمل أو التجارة.



مملكة تدمر

وقد اعتنى التدمريون بالزراعة، واحة تدمر الغناء يزرع فيها كافة أنواع المزروعات أهم النخيل، ونظموا الأقنية المتطورة والري وأقاموا السدود لحجز وجمع المياه وتنظيم توزيعها وفق نظام وترتيب متطور خاص. وحفروا الآبار للشرب والري وشيدوا الأحواض والخزانات.

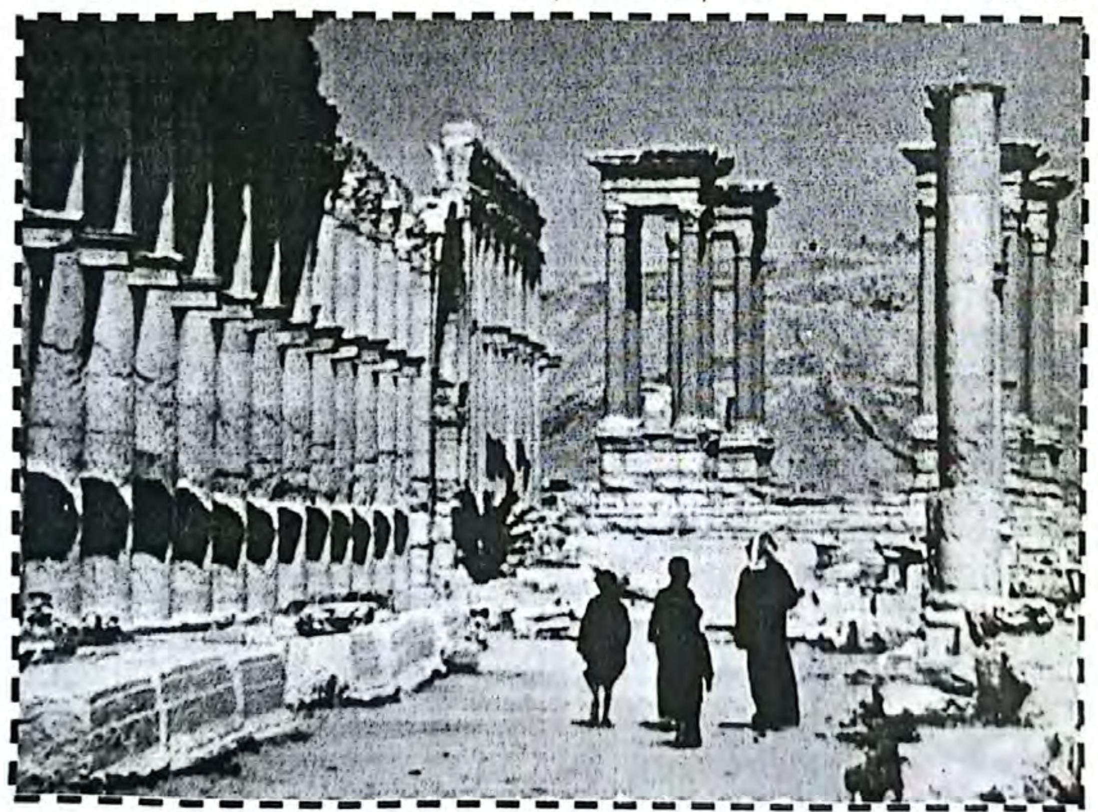
وكانت تدمر عاصمة مملكة تدمر من أجمل المدن وأكثرها تطورا بمبانيها الفخمة وشوارعها وتنظيمها وتعد العاصمة التجارية وواحدة من أهم المدن التجارية وأكثرها ازدهارا. كانت القوافل الواردة إليها والمنطلقة منها لاتتوقف ليل نهار، وكان لتجارة تدمر المراتب العليا بين التجار والقوة في التاريخ القديم. وآثارها تدعو للتأمل والدهشة والفخر بعظمتها وضخامتها.

وقد تكون الأعمدة الموجودة في المدن التاريخية الأثرية متشابهة بالضخامة والارتفاع وبعض النقوش والرسوم ولكن أعمدة مدينة تدمر تختلف عنها بالأهداف والمضامين ,فعلى كل عمود من أعمدة مدينة تدمر نصب يحكي لك حكاية الحكماء والعظماء والقادة الشجعان وكذلك التجار والبنائين الكبار وذلك تخليداً لهؤلاء وتشجيعاً على البذل والعطاء لمن يأتي بعدهم ,إضافة إلى أن التدمريين مددوا قساطل المياه بدءاً من رؤوس الأعمدة إلى الدور والمرافق مستفيدين من ارتفاعها..



على أن مـايشـيـر صـراحـة إلى حـضـارة الـتـدمـريين المتـقـدمـة عن حـضـارة الإمبـراطوريات القديمة هو تلك المسارح وميادين السباق والتدريب على القتال , فالمسرح القديم الذي لايزال بحالة جيدة يدل بناؤه ومداخله ومخارجه وباحته على فكر نَيِّر، عُمل لكل شيء حسابه حتى توزيع الصوت الذي يصل إلى أبعد موقع فيهً وأماً الباحة الواسعة فتدل على سرعة الحركة والدوران والنزول إليها والطريق السالك لمغادرتها، وأما ميادين السباق والتدريب على القتال فليس في عصرنا هذا مايشابهها.

ومن الشواهد المثيرة جدا للاهتمام والانتباه أيضاً تلك المقابر التي أراد التدمريون تخليد أسماء وصور موتاهم فيها فهي مصممة بشكل يدعو للإعجاب. يطلق على بعضها رسم المقابر البرجية وهي فعلاً كذلك ,فالمقبرة الواحدة مؤلفة من أربعة أو خمسة طوابق والقبور عبارة عن صناديق حجرية منقوش على واجهاتها صورة ساكنها واسمه وترتب إلى جانب بعضها بعضاً إلى جانب الجدران التي تضم رفات الموتى والملفت للنظر هو أن الاسماء كتبت باللغة التدمرية وبخط أحمر اللون لم يتأثر ولم تبدل لونه منذ عشرات القرون.



معبد بل الضخم

أما المقابر الأرضية التي تم اكتشافها صدفة أثناء تمديد قساطل نفط العراق فهي لاتقل جمالاً عن البرجية إلا أن مايبدو من تصميمها هو أنها مقابر عائلية، ففي مدخل كل مقبرة يوجد نصب أوتمثال كبير يتصدر كبير العائلة وحوله زوجه وأولاده وأمامه كمية من أنواع الفاكهة والخضار، فالرجل يبدو بلباسه التقليدي والمرأة تبدو بكل زينتها ومصاغها وحتى ضفائر شعرها أما المقبرة في الداخل فهي مزينة بالنقوش وجدرانها محلاة بالرسوم الملوّنة الجميلة وكأنها رسمت وازدانت منذ أيام وليس منذ قرون وتتميز هذه المقابر عن المقابر البرجية بأبوابها الحجرية المحكمة الإغلاق.

ومن المثير مشاهدة بعض معالم مدينة تدمر ولاسيما مدخلها المزدان بالرسوم والنقوش التي تزداد جاذبية وجمالاً كلما أشرقت الشمس وفرشت أشعتها على جدران تدمر وأبنيتها أو أذنت بالغروب حيث يتحول المشهد من الدهشة إلى الإعجاب بهذا التحول، وهذا على مايبدو سرّ من أسرار مملكة تدمر التي كادت تفرش ظلالها على الشرق وتنشر فيه حضارتها المتقدمة لولا أطماع إمبراطورية الرومان وحقدها وخوفها من أن تصبح تحت حكم الملكة الشجاعة زنوبيا التي كان أسرها خدعة وهي في طريقها إلى طلب العون من بعض أصدقائها لتقضي دفاعاً عن مملكتها.

لاشك في أن هناك أشياء كثيرة يمكن كتابتها عن مدينة تدمر التي قاومت حصار الرومان فترات طويلة ودافع رجالها الشجعان عن مدينتهم بكل قدراتهم دون أن يستسلموا للغزاة.

وتدمر من أهم المدن والممالك التجارية لها معاملاتها مع كافة الحضارات المعاصرة لها في الشرق والغرب. وكانت مراسلات تجار تدمر ومكاتباتهم التجارية تتم باللغة الآرامية (اللهجة التدمرية) لتعاملاتهم وتجارتهم مع الشرق، وباللغة الرسمية باللاتينية في تعاملاتهم مع الغرب (في زمن الرومان) والإمبراطورية الرومانية.

وقد ازدهرت مملكة تدمر وخاصة في عهد الملكة زنوبيا القوية وأصبحت مدينة تدمر عاصمة المملكة أهم مدن الشرق ونافست روما وسيطرت على المنطقة من حدود آسيا الصغرى في الشمال إلى مصر في الجنوب ومن شمال شرق سوريا إلى غرب سوريا والبحر المتوسط، وقد عرفت الملكة زنوبيا ملكة تدمر بأنها أهم ملكات الشرق وأكثرهم قوة لذلك أطلق عليها (ملكة ملكات الشرق).

وكان التدمريون شعبا تجاريا بحتا وله سمعته التجارية كأهم الشعوب في مجال التجارة، وكذلك اهتم التدمريون بالدين والعبادة والآلهة، كان شغفهم كبيرا في بناء المعابد ودور العبادة والعناية بالقبور بشكل كبير وواضح. وكانت آلهتم ومعبوداتهم كثيرة العدد و تقارب الثلاثين من الآلهة، وعلى رأسها المعبود الأعلى بل - الإله بل التدمري - والذي يظهر في المنحوتات التدمرية بشكل كبير، فأكثر الآلهة التدمرية تصور معه حسب المناسبات ,ولكنه أكثر ما يمثل مع قرينته بلتى ويرحبول. كان الثلاثي (بل-يرحبول-أغلبول) يتمتع بأكثر شعبية في مملكة تدمر.

ويعتبر معبد بل من أكبر وأشهر المعابد الدينية في الشرق القديم. فمنذ القرن الأول الميلادي بني بناؤه الأساسي على جزء من الأرض وظل يبنى ويتوسع حتى أواخر عهد تدمر لأهميته ,إلى أن أصبح بمقاييس ضخمة ٢٢٠ × ٢٠٥ أمتار ,وأحيطت جدرانه بـ ٣٧٥ عموداً طول الواحد منها أكثر من ١٨ متراً وهو من الضخامة بحيث لا يوازيه أي معبد آخر في الشرق، ولا يزال قائما مع أعمدته سبعة في الواجهة الرئيسية وعدد آخر في محيط المعبد.

أما المدافن الملكية والمدافن العادية فهو فن ومجال أبرز فيه التدمريون براعة مميزة. وكانت أبعد من أن تكون مقابر حيث كانت تُزين بالورود وأماكن للجلوس يسمونها بيت الأبدية أوبيوت الأبدية ويتم العناية بها بشكل كبير بالمنحوتات والتماثيل.

ومنذ القرن الثاني صار المدفن أشبه بالبيت من طابق واحد يتسع أحياناً إلى ثمانين قبرا وكانت جدرانه منحوتة بدقة وبراعة.

ويوجد في مدينة تدمر متحفان وهما :- متحف تدمر للآثار ويضم الكثير من

الآثار والمكتشفات وهو مكون من طابقين وبه عدة اقسام للآثار القديمة والتماثيل والمنحوتات وكافة المكتشفات والأدوات والأواني والمعدات إضافة لجناح للمومياءات والكثير من الكنوز الأثرية. ومتحف التقاليد الشعبية التدمرية ويضم أقساما عن التقاليد الشعبية في تدمر والبادية وكل ما يتعلق بها من الحياة والتنقل وغيرها.

وإذا كان من الظواهر الطبيعية البارزة والملفتة للنظر بروز شخصيات فذة على فترات متقطعة متباعدة أو متقاربة من الزمن، فقد كان بروز زنوبيا إحدى تلك الظواهر. برزت وسطع نجمها في أيام بعيدة وسحيقة بالنسبة لنا.لقد كانت مؤهلة لذلك البروز، كانت مؤهلة في ذاتها وشخصها، وكانت مؤهلة في البيئة التي نشأت فيها، واكتمل كل ذلك لها بالزواج والتدرب بل التمرس في شؤون الحكم ومسؤولياته. وتبدو زنوبيا كأنها واحدة من الأساطير، وما أكثر الأساطير القديمة التي توارثها البشر في ذلك الزمان من مختلف الجهات والشعوب، من الشرق ومن الغرب.

كانت عربية الأصل، ذات شخصية قوية، تتحلى بتربية عالية، تجيد اليونانية والآرامية، وتتكلم بهما بمثل الطلاقة التي تتكلم بها العربية، ولم تكن تجهل اللاتينية، ولها اطلاع على تاريخ الغرب بالإضافة إلى كونها قد دونت لنفسها خلاصة لتاريخ الشرق، مما يدل على سعة اطلاعها، فهي امرأة ليست كالنساء، عاشت عظيمة وتوارت عظيمة أيضاً، إنها نموذج رائع للبشر يستحق منا الدراسة والبحث، ولهذا كله أجري هذا البحث المتواضع.

الزَّبَّاء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السُّمَيْدَع السميعية المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة. يسميها الإفرنج زنوبيا، وأمها يونانية من ذرية كليوبترة ملكة مصر.

كانت غزيرة المعارف، بديعة الجمال، مُولَعة بالصيد والقنص، تحسن أكثر اللغات الشائعة في عصرها، وكتبت تاريخاً للشرق.

زنوبيا ملكة جليلة ذات رأي وحكمة وعقل وسياسة ودقة نظر وفروسية وشدة بأس وجمال فائق. كانت سمراء اللون قوية اللحظ وكانت الهيبة والجمال والعظمة تلوح على وجهها وكانت أسنانها بيضاء كاللؤلؤ وصوتها قوياً وجهوراً، وجسمها صحيحاً سالماً، وكانت الابتسامات لا تفارقها، فعاشت بعظمة ملوكية مقلدة ملوك الأكاسرة فكانت تضع العمامة على رأسها وتلبس ثوباً أرجوانيا مرصعاً بالجواهر وكثيراً ما كانت تترك ذراعها مكشوفة. وتثقفت بالثقافة اليونانية وكانت تتكلم الآرامية والقبطية وبعض اللاتينية واليونانية ولها اطلاع واسع على تاريخ الشرق والغرب، وكانت تقرأ هوميروس وأفلاطون وألفت تاريخاً عن مصر وآسيا.

كانت زنوبيا زوجة لأذينة سيد الشرق الروماني الذي امتدت سلطته على سورية وما يليها ولقب ملك الملوك. فاستأثر أذينة بسورية وسائر آسيا الرومانية، وكان كثيراً ما يحارب الفرس ويردهم عن بلاده. وكان إذا خرج إلى الحرب أناب عنه في حكومة تدمر امرأته زنوبيا، حتى قيل : إن ما وصل إليه أذينة من البراعة في القيادة والدراية في تعبئة الجيوش يرجع إليها.

ولما قتل أذينة (وتشير بعض أصابع الاتهام إليها في مقتل زوجها) اعتلت أريكة الملك باسم ابنها وهب اللات، ثم أخذت تسعى لابنها بتثبيت عرشه وتقوية الدولة التدمرية. وبعد حين ساءت العلاقات بين الإمبراطور الروماني والدولة التدمرية، فأرسل الإمبراطور بعض الكتائب الرومانية لإعادة بسط النفوذ الروماني، ولكن زنوبيا حطمت هذه الكتائب وأولتها شر هزيمة.

واستفادت من الاضطرابات في روما، فتوجهت إلى مصر تلك البلاد الغنية بالحبوب وفتحتها بكل اقتدار وبذلك عززت مكانة تدمر التجارية وجعلت علاقاتها التجارية تمتد إلى الحبشة وجزيرة العرب. ولم تقنع بمصر بل شرعت تغزو بلاداً وتفتح أوطاناً وتقهر جنوداً وتهزم جيوشاً حتى اتسعت مملكتها اتساعاً عظيماً فامتدت حدودها من شواطئ البسفور حتى النيل أطلقت عليها الإمبراطورية الشرقية.

انتقل الحكم في روما إلى الإمبراطور أورليانوس الذي بادر حالا إلى التفاوض

مع زنوبيا وأوقف زحف جيوشها مقابل هبات عظيمة لها واعترف بألقاب ابنها وامتيازاته وضربت النقود في إنطاكية والإسكندرية فكانت صورة وهب اللات على وجهها الأول وعلى الوجه الثاني صورة أورليانوس.وفي خطوة تالية عهدت بملك مصر إلى ولدها وأزالت من النقود صورة الإمبراطور ونادت بالاستقلال المطلق.

وما أن اطلع أورليانوس على عمل زنوبيا هذا إلا وصب عليها جام غضبه ووطن نفسه على التنكيل بها وسحق الدولة التدمرية. عبأ جيشاً كبيرا وعلى رأسه القائد بروبوس وبعث به إلى مصر سنة ٢٧١م، وتولى بنفسه جيشاً آخر توجه به إلى آسيا الصغرى على أن يلتقي الجيشان في تدمر. بدأت الخطة تلاقي النجاح، حيث احتل بروبوس مصر بدون أن يلقى مقاومة كبيرة، أما أورليانوس فوصل أنطاكية واستطاع أن يقهر القوات التدمرية في معركة كبرى دامية مما اضطرها إلى الانسحاب إلى تدمر

تعقبهم أورليانوس نحو حمص متابعاً زنوبيا التي انسحبت إليها، فأوقع بجيشها هزيمة أخرى، شابهت ظروفها معركة أنطاكية ووصل تدمر وحاصرها حصاراً تاما قضى على ما لدى التدمريين من المؤن، وكانت قد أعدت كل ما تستطيع إعداده من وسائل الدفاع إذ وضعت على كل برج من أبراج السور اثنين أو ثلاثة من المجانيق تقذف المهاجمين بالحجارة، وتمطرهم بقذائف النفط الملتهبة، وصممت على المقاومة بشجاعة بطولية، معلنة أنه إذا كان لا بد لحكمها من النهاية فلتقترن هذه بنهاية حياتها.

عرض أورليانوس على زنوبيا التسليم لقاء شروط معتدلة: أن تنسحب انسحاباً كريماً، وأن يحتفظ مواطنوها بامتيازاتهم القديمة. لكنها رفضت شروطه بإباء وشمم، لا بل اقترن الرفض بالإهانة، وبعد أن استبد بها اليأس، حاولت زنوبيا الهروب ووصلت نهر الفرات إلا أنها وقعت في الأسر واقتيدت إلى أورليانوس وهو في ميدان القتال فأحسن معاملتها سنة ٢٨٢م.ثم اقتادها معه إلى روما ولم يقتلها بل قتل بعض كبار قوادها ومستشاريها بعد محاكمة أجريت لهم في حمص.

وعلى أرجح الأقوال أن حياتها قد انتهت في منزل حقير في تيبور أعده لها أورليانوس، ولم يتحقق من طريقة وفاتها، إلا أن إحدى الروايات تقول إنها امتصت سما وماتت به، أما بناتها فقد تزوجهن بعض أشراف الرومان.

كانت سيرتها أقرب إلى سير الأبطال من سير النساء، فلم تكن تركب في الأسفار غير الخيل، ولم تكن تحمل في الهودج، وكانت تجالس قوادها وأعوانها وتباحثهم، وإذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها، وكثيراً ما ضم مجلسها رجالاً من أمم شتى وبينهم وفود من ملوك الفرس والأرمن، وكانت عادلة في رعاياها خصوصاً من العرب.

في مجالسها الاعتيادية كانت تدخل معها ابنها وهب اللات معها وعليها أفخر اللباس وعلى كتفيها الشملة القصيرة الأرجوانية، وعلى رأسها التاج، وأوكلت تدبير أمور قصورها إلى بعض شيوخ الخصيان، أما إذا تجولت حفت بها الفتيات من بنات الأشراف..أما عند استعراض الجند في الميادين مرت أمام الصفوف فوق جوادها وعليها لباس الحرب وعلى رأسها الخوذة الرومانية مرصعة بالدر والجوهر، فإذا رآها الناس في ذلك الموقف حسبوها إلهة من الآلهة العظام كما كان شائعاً في الأساطير اليونانية والرومانية. وآثار تدمر مازالت شاهدة حتى اللحظة على ما كانت فيه من عظمة ومنعة وعز وثراء وبهاء بقيادة زنوبيا، ولها آثار باقية في لبنان منها أقنية الماء من نهر إبراهيم إلى جبيل وكذلك من نهر قديشا إلى طرابلس ومن نهر بيروت إلى بيروت.

ولقد عثر على آثار زنوبيا في الشاطئ السوري وفي الإسكندرية وبعلبك وقرب دمشق. وكانت زنوبيا تشرف بنفسها على عمليات التوسع والإنشاء. وتتنقل على ظهر فرسها تلبس لباس الرجال، تسوس دولتها بعين لا تنام ولا تغفل، وبعزيمة ترهب الرجال.

حقا كانت امرأة عظيمة بكل المواصفات البشرية القديمة والحديثة، وصارت عبرة لمن شاء أن يعتبر.

٥

إرم ذات العماد وقصتها مع عاد

إرَم ذات العماد أو مدينة الألف عمود كما تسمى باللغات الأوروبية إضافة إلى "مدينة الألف عمود ". ورد ذكرها في سورة الفجر في القرأن، وقد اعتبرها بعض الباحثين والمؤرخين أنها مدينة في حين اعتبرها البعض الأخر مثل الطبري أنها قبيلة من بني عاد، كما قيل إنها قبيلة ضربها الله بغضبه لكثرة خطاياها، وحسب خبراء الآثار يعتقد أن عمر هذا الإنقاض يعود لنحو ٣٠٠٠ سنة ق.م..

إرم مدينة عربية مفقودة تقع في القسم الجنوبي لشبه الجزيرة العربية في اليمن ويذكر أنها كانت مدينة غنية وكانت تشكل مركزا تجاريا هاما في منطقة الشرق القديم، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، حيث ذكر في القرآن أن سكانها كانوا من العرب البائدة من قبيلة عاد، ويذكر بعض الباحثين أن ملك هذه المدينة كان يدعى شدّاد بن عاد حيث إنه أراد أن يقيم الجنة الموعودة في الأرض، ويقال إن لهذا الملك أخا اسمه شديد بن عاد.

يذكر أنه ورد ذكر إرَم في بعض الرقم الطينية القديمة لمدينة ايبلا في سوريا، كما ورد ذكر إرم ذات العماد وملكها شداد في الليلة ال٢٧٧ والليلة ٢٧٩ من قصص ألف ليلة وليلة.

ورد ذكر إرم ذات العماد - كما أسلفنا - في سورة الفجر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبِلَادِ﴾ (سورة الفجر: ٦ – ٨).

كما أن الله قد أرسل النبي هودا لدعوة أهل هذه المدينة للإيمان.

عاد كانوا قوماً لايعبدون الله، وحار العلماء والمفكرون والتاريخيون بأن يعرفوا حقيقة هذه المدينة حتى الآن.

كما ورد ذكر إرم في العديد من القصص العربية القديمة، وفي قصة ألف ليلة وليلة وبعد ترجمة هذه القصة انتقل اسم المدينة المفقودة إلى الأدب الغربي حيث وردت في العديد من القصص لأدباء أوروبيين مثل:

إحدى روايات الكاتب الأمريكي هوارد فيليبس لافكرافت في قصة (The Nameless City) المدينة التي ليس لها اسم. إضافة إلى روايات ل جيمس رولينز، فرانك هربرت، شون مكمولين وغيرهم.

ولم يكنِ المؤرخون الغربيون واثقين من الوجود الحقيقي لتلك المدينة، ولكن أرشيف مدينة إيبلا الذي اكتشف مؤخرا يذكر المدينة بالاسم في سجلات تعاملات تجارية.

وبفضل الاستشعار عن بعد (استعمال صور الأقمار الصناعية) أظهرت الصور وجود مدن على سواحل الخليج العربي، وقام فريق في بداية الثمانينيات بدراسة صور وكالة الفضاء ناسا وطرق الجِمَال التجارية، مما أدى لاكتشاف مدينة سماها المكتشفون "أطلانطس الرمال"، يعتقد بعض الباحثين أنها المدينة المذكورة في بعض الكتابات القديمة.

ولقد ذكر الله تعالى قوم عاد في سياق حديثه عن نبيه هود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (هود: ٥٠).

ولقد حدد القرآن مكان قوم عاد في الأحقاف والأحقاف جمع حقف وهي الرمال، ولم يعيين القرآن موقعها، إلا أن الإخباريين كانوا يقولون إن موقعها بين

اليمن وعُمان..

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ **(الاحقاف: ٢١)**.

ولقد أخبر القرآن الكريم أن قوم عاد بنوا مدينة اسمها (رم) ووصفها القرآن بأنها كانت مدينة عظيمة لا نظير لها في تلك البلاد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ **(سورة الفجر)**.

وقد ذكر المؤرخون أن عاداً عبدوا أصناماً ثلاثة يقال لأحدها: صداء وللآخر: صمود، وللثالث : الهباء وذلك نقلاً عن تاريخ الطبري.

ولقد دعا هود قومه إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام لأن ذلك سبيل لاتقاء العذاب يوم القيامة.

ولكن ماذا كان تأثير هذه الدعوة على قبيلة (عاد) ؟

لقد احتقروا هوداً ووصفوه بالسفه والطيش والكذب، ولكن هوداً نفى هذه الصفات عن نفسه مؤكداً لهم أنه رسول من رب العالمين لا يريد لهم غير النصح.

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **(الأعراف الآيتان: ٦٦ ـ ٦٧)**.

تابع هود مخاطبة قومه محاولاً إقناعهم بالرجوع إلى الطريق الحق مذكراً إياهم بنعم الله عليهم، فقال : هل أثار عجبكم واستغرابهم أن يجيئكم إرشاد من ربكم على لسان رجل منكم لئلا تصيبكم سوء العاقبة بسبب الضلال الذي أنتم عليه؟ ألا تذكرون أن الله جعلكم وارثين للأرض من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وزادكم قوة في الأبدان وقوة في السلطان، وتلك نعمة تقتضي منكم أن تؤمنوا بالله وتشكروه، لا أن تكفروا به..

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ

خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **(الأعراف الآية: ٦٩)**.

ويحدث القرآن أن قوم هود لم يقوموا بحق الشكر لنعم الله عليهم، بل انغمسوا في الشهوات، وتكبروا في الأرض، فقال لهم هود :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ **(الشعراء الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٥)**.

ونلاحظ أن الآيات أشارت إلى أن قوم عاد كانوا مشهورين في بناء الصروح العظيمة والقصور الفارهة..

ولما عصوا رسولهم أنزل الله تعالى عليهم العذاب وذلك بأن أرسل عليهم ريحاً عاصفة محملة بالغبار والأتربة والتي غمرتهم وقضت عليهم قال تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ **(الحاقة: ٦)**. أما أهم النقاط التي تطرق القرآن لذكرها في قصة هود :

١ ـ أن قوم هود كانوا يسكنون في الأحقاف والأحقاف هي الأرض الرملية ولقد حددها المؤرخون بين اليمن وعُمان.

٢ ـ أنه كان لقوم عاد بساتين وأنعام وينابيع قال تعالى :

(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون)

٣ ـ أن قوم عاد بنوا مدينة عظيمة تسمى إرم ذات قصور شاهقة لها أعمدة ضخمة لا نظير لها في تلك البلاد لذلك قال تعالى

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.

٤ ـ إنهم كانوا يبنون القصور المترفة والصروح الشاهقة

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ **(الشعراء الآيتان: ١٢٨ ـ ١٢٩)**.

٥ ـ لما كذبوا هوداً أرسل عليهم الله تعالى ريحاً شديدة محملة بالأتربة قضت عليهم وغمرت دولتهم بالرمال.

وفى بداية عام ١٩٩٠ امتلأت الجرائد العالمية الكبرى بتقا ـر صحفية تعلن عن: "اكتشاف مدينة عربية خرافية مفقودة" ",اكتشاف مدينة عربية أسطورية " "أسطورة الرمال (عبار)"، والأمر الذي جعل ذلك الاكتشاف مثيرا للاهتمام هو الإشارة إلى تلك المدينة في القرآن الكريم.

ومنذ ذلك الحين، فإن العديد من الناس؛ الذين كانوا يعتقدون أن "عاداً" التي روى عنها القرآن الكريم أسطورة وأنه لا يمكن اكتشاف مكانها، لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم أمام ذلك الاكتشاف فاكتشاف تلك المدينة التي لم تُذكر إلا على ألسنة البدو قد أثار اهتماماً وفضولاً كبيرين.

نيكولاس كلاب، عالم الآثار الهاوي، هو الذي اكتشف تلك المدينة الأسطورية التي ذُكرت في القرآن الكريم.

ولأنه مغرم بكل ما هو عربي مع كونه منتجاً للأفلام الوثائقيه الساحرة، فقد عثر على كتاب مثير جدا بينما هو يبحث حول التاريخ العربي، و عنوان ذلك الكتاب "أرابيا فيليكس" لمؤلفه "بيرترام توماس" الباحث الإنجليزي الذي ألفه عام ١٩٣٢ ، و"أرابيا فيليكس" هو الاسم الروماني للجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية والتي تضم اليمن والجزء الأكبر من عمان. أطلق اليونان على تلك المنطقة اسم "العرب السعيد".

وأطلق عليها علماء العرب في العصور الوسطي اسم "اليمن السعيدة"، وسبب تلك التسميات أن السكان القدامى لتلك المنطقة كانوا أكثر من فى عصرهم حظا. والسبب في ذلك يرجع إلى موقعهم الاستراتيجي من ناحية؛

حيث إنهم اعتُبروا وسطاء في تجارة التوابل بين بلاد الهند وبلاد شمال شبه الجزيرة العربية، ومن ناحية أخرى فإن سكان تلك المنطقة اشتهروا بإنتاج "اللبان" وهو مادة صمغية عطرية تُستخرَج من نوع نادر من الأشجار. وكان ذلك النبات لا يقل قيمة عن الذهب حيث كانت المجتمعات القديمة تُقبل عليه كثيراً.

وأسهب الباحث الإنجليزي "توماس" في وصف تلك القبائل "السعيدة الحظ"، ورغم أنه اكتشف آثاراً لمدينة قديمة أسستها واحدة من تلك القبائل و كانت تلك المدينة هي التي يطلق عليها البدو اسم "عُبار"، وفى إحدى رحلاته إلى تلك المنطقة، أراه سكان المنطقة من البدو آثاراً شديدة القدم وقالوا إن تلك الآثار تؤدى إلى مدينة "عُبار" القديمة.

ولكن "توماس" الذي أبدى اهتماماً شديداً بالموضوع، تُوفِى قبل أن يتمكن من إكمال بحثه.

وبعد أن راجع "كلاب" ما كتبه الباحث الإنجليزي، اقتنع بوجود تلك المدينة المفقودة التي وصفها الكتاب ودون أن يضيع المزيد من الوقت بدأ بحثه.

وقد استخدم "كلاب" طريقتين لإثبات وجود مدينة "عُبار":

أولاً: أنه عندما وجد أن الآثار التي ذكرها البدو موجودة بالفعل، قدم طلبا للالتحاق بوكالة ناسا الفضائية ليتمكن من الحصول على صور لتلك المنطقة بالقمر الصناعي، وبعد عناء طويل، نجح في إقناع السلطات بأن يلتقط صوراً للمنطقة.

ثانياً: قام "كلاب" بدراسة المخطوطات والخرائط القديمة بمكتبة "هانتينجتون" بولاية كاليفورنيا بهدف الحصول على خريطة للمنطقة. وبعد فترة قصيرة من البحث وجد واحدة، وكانت خريطة رسمها "بطلمى" عام ٢٠٠ ميلادية، وهو عالم جغرافي يوناني مصري. وتوضح الخريطة مكان مدينة قديمة اكتُشفت بالمنطقة والطرق التي تؤدى إلى تلك المدينة. وفي الوقت نفسه، تلقى أخباراً بالتقاط وكالة ناسا الفضائية للصور التي جعلت بعض آثار القوافل مرئية بعد أن كان من الصعب تمييزها بالعين المجردة وإنما فقط رؤيتها ككل من

السماء. وبمقارنة تلك الصور بالخريطة القديمة التي حصل عليها، توصل "كلاب" أخيراً إلى النتيجة التي كان يبحث عنها؛ ألا وهى أن الآثار الموجودة في الخريطة القديمة تتطابق مع تلك الموجودة في الصور التي التقطها القمر الصناعي. وكان المقصد النهائي لتلك القبائل موقعاً شاسعاً يُفهم أنه كان في وقت من الأوقات مدينة. وأخيراً، تم اكتشاف مكان المدينة الأسطورية التي ظلت طويلاً موضوعاً للقصص التي تناقلتها ألسن البدو. وبعد فترة وجيزة، بدأت عمليات الحفر، وبدأت الرمال تكشف عن آثار المدينة القديمة، ولذلك وُصفت المدينة القديمة بأنها (أسطورة الرمال "عبار").

ولكن ما الدليل على أن تلك المدينة هي مدينة قوم "عاد" التي ذُكرت في القرآن الكريم؟

منذ اللحظة التي بدأت فيها بقايا المدينة في الظهور، كان من الواضح أن تلك المدينة المحطمة تنتمي لقوم "عاد" ولعماد مدينة "إرَم" التي ذُكرت في القرآن الكريم؛ حيث إن الأعمدة الضخمة التي أشار إليها القرآن بوجه خاص كانت من ضمن الأبنية التي كشفت عنها الرمال.

قال د. زارينز وهو أحد أعضاء فريق البحث و قائد عملية الحفر، إنه بما أن الأعمدة الضخمة تُعد من العلامات المميزة لمدينة "عُبار"، وحيث أن مدينة "إرَم" وُصفت في القرآن بأنها ذات العماد أي الأعمدة الضخمة، فإن ذلك يعد خير دليل على أن المدينة التي اكتُشفت هي مدينة "إرَم" التي ذكرت في القرآن الكريم قال تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⟨٦⟩ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⟨٧⟩ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

المدينة الأسطورية والتي ذكرت في القرآن باسم إرم Iram والتي أنشأت لِكي تَكُونَ فريدةً جداً حيث تبدو مستديرة ويمر بها رواق معمّد دائري، بينما كُلّ المواقع الأخرى في اليمن التي اكتشفت كانت أبنيتها ذات أعمدة مربعة يُقالُ بأن سكان مدينة أرم بَنوا العديد مِنْ الأعمدةِ التي غطيت بالذهبِ أو صنعتْ من

الفضة وكانت هذه الأعمدة رائعة المنظر "

قال تعالى على لسان نبي الله هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩).

إن الذي يسافر إلى جزيرة العرب يلاحظ انتشار الصحارى بكثرة في معظم المناطق باستثناء المدن والمناطق التي زرعت لاحقاً.

لكن القرآن الكريم يذكر أن هذه الصحارى كانت يوماً من الأيام جنات وعيونًا.

فقال لهم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء الآيات: ١٢٨ ـ ١٣٥).

ولقد كشفت السجلات التاريخية أن هذه المنطقة تعرضت إلى تغيرات مناخية حولتها إلى صحارى، والتي كَانتْ قبل ذلك أراضيَ خصبة مُنْتِجةً فقد كانت مساحات واسعة مِنْ المنطقةِ مغطاة بالخضرة كما أَخبر القرآن، قبل ألف وأربعمائة سنة.

ولقد كَشفَت صور الأقمار الصناعية التي ألتقطها أحد الأقمار الصناعية التابعة لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا عام ١٩٩٠ عن نظام واسع مِنْ القنواتِ والسدودِ القديمةِ التي استعملت في الريِّ في منطقة قوم عاد والتي يقدر أنها كانت قادرة على توفير المياه إلى ٢٠٠,٠٠٠ شخص.

كما تم تصوير مجرى لنهرين جافين قرب مساكن قوم عاد أحد الباحثين الذي أجرى أبحاثه في تلك المنطقة قال" لقد كانت المناطق التي حول مدينة مأرب خصبة جدا ويعتقد أن المناطق الممتدة بين مأرب وحضرموت كانت كلها مزروعة."

كما وَصفَ الكاتبُ القديم اليوناني Pliny هذه المنطقةِ أنها كانت ذات أراضٍ خصبة جداً وكانت جبالها تكسوها الغابات الخضراء وكانت الأنهار تجري من تحتها.

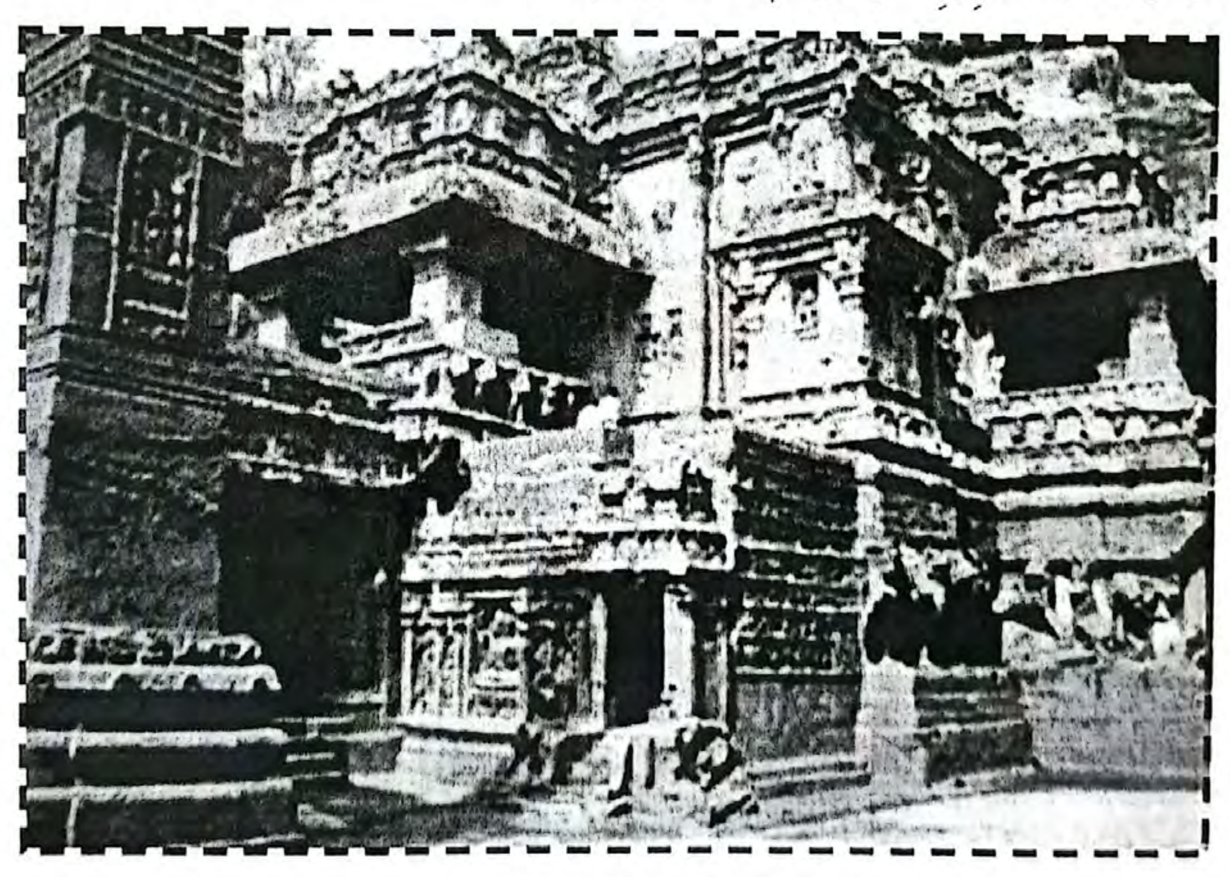
ولقد وجدت بعض النقوش في بَعْض المعابدِ القديمةِ قريباً من حضرموت، تصور بعض الحيوانات مثل الأسود التي لا تعيش في المناطق الصحراوية وهذا يدل دلالة قاطعة على أن المنطقة كانت جنات وأنها كما قال القرآن الكريم :

"واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " الشعراء.

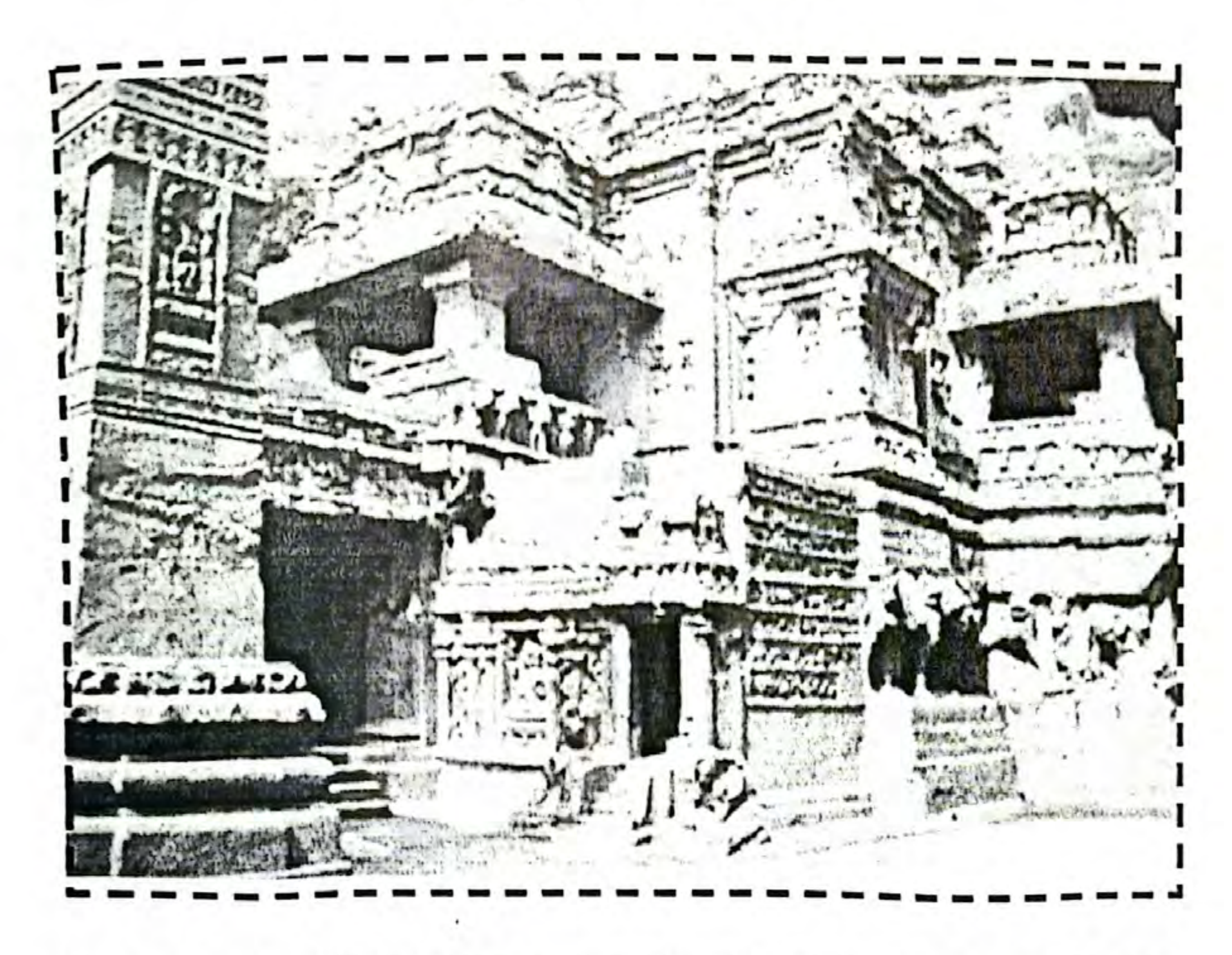
أما سبب اندثار حضارة عاد فقد فسرته مجلة A m'interesse الفرنسية التي ذكرت أن مدينة إرم أو"عُبار" قد تعرضت إلى عاصفة رملية عنيفة أدت إلى غمر المدينة بطبقات من الرمال وصلت سماكتها إلى حوالي ١٢ مترا.

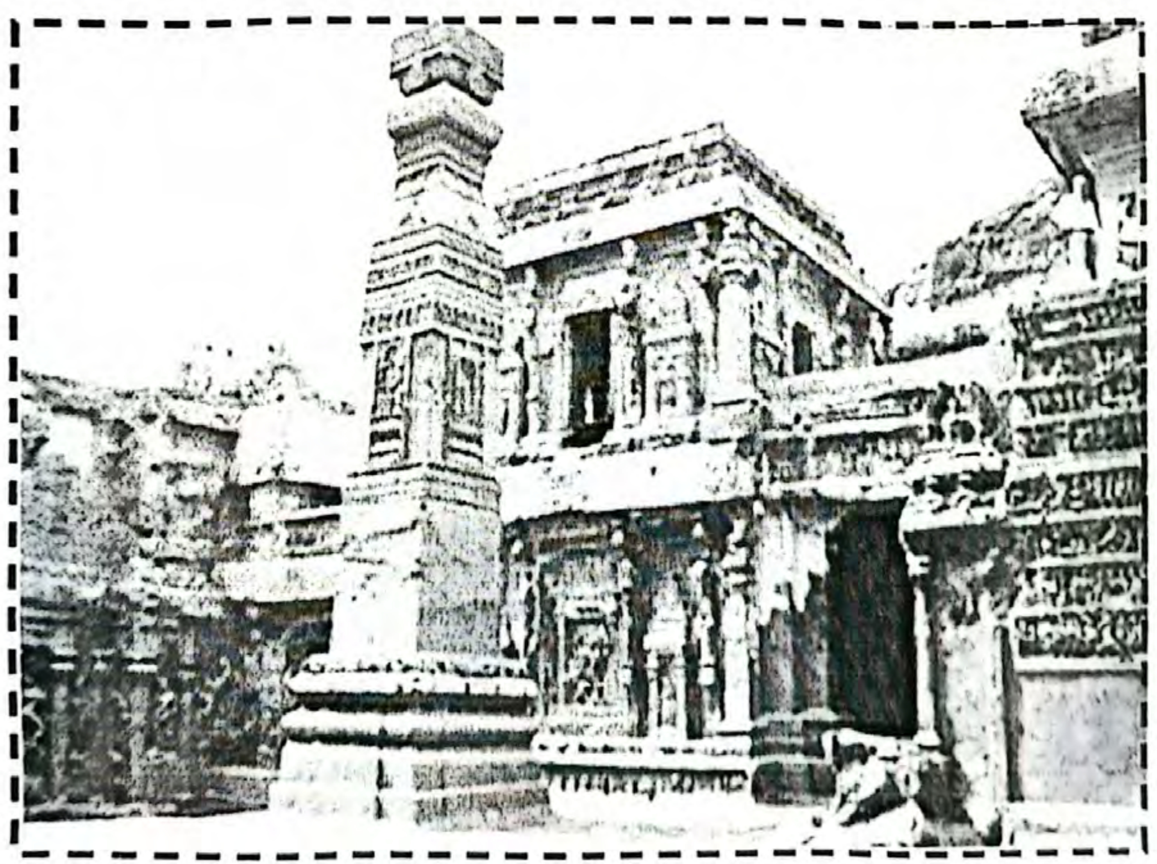
وهذا تماماً هو مصداق لقوله تعالى :

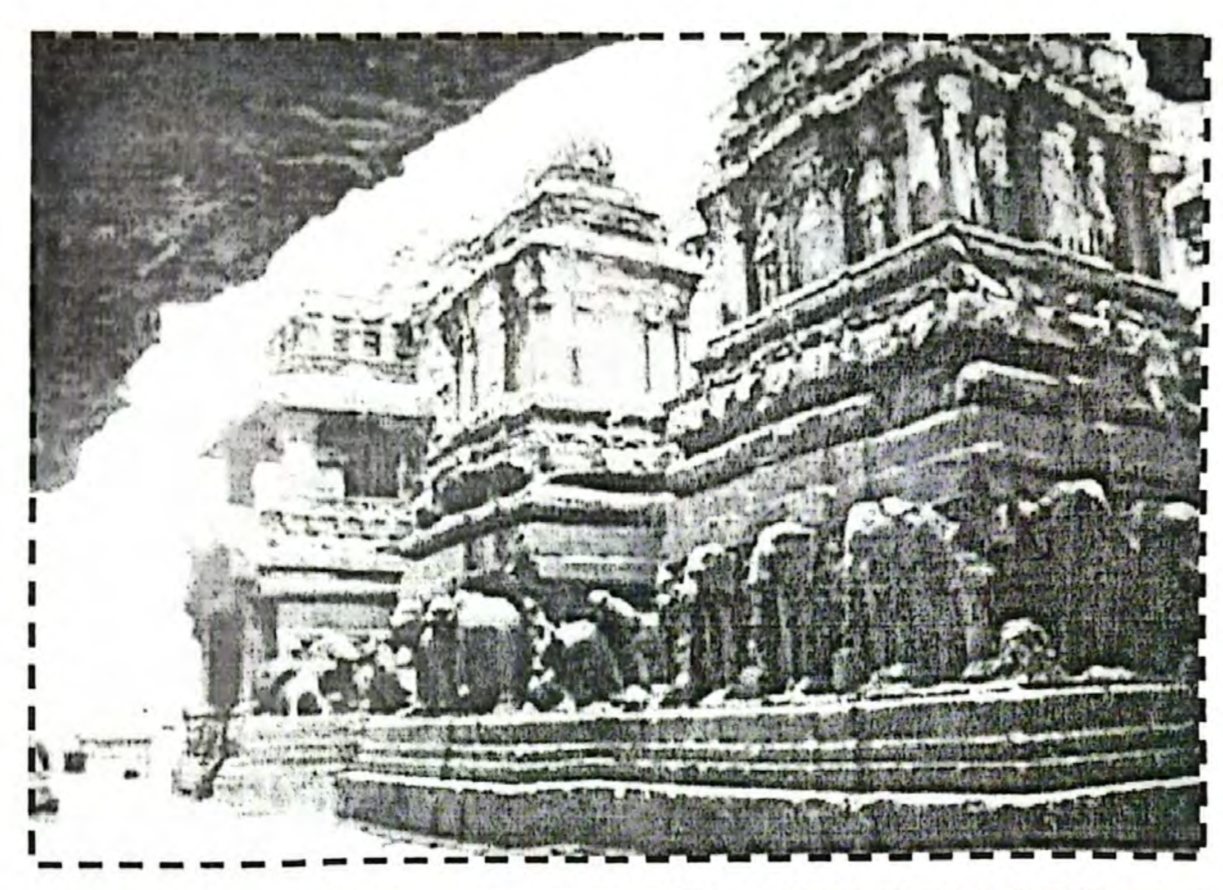
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

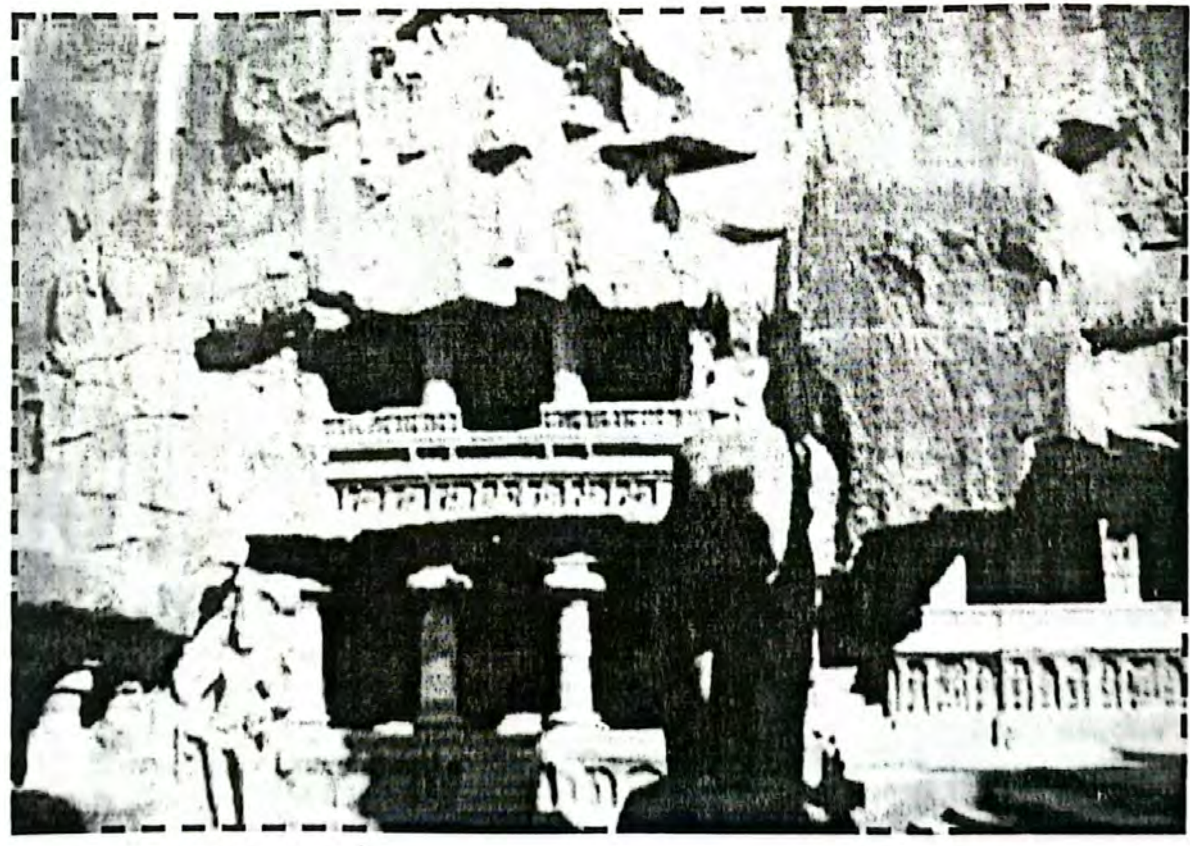


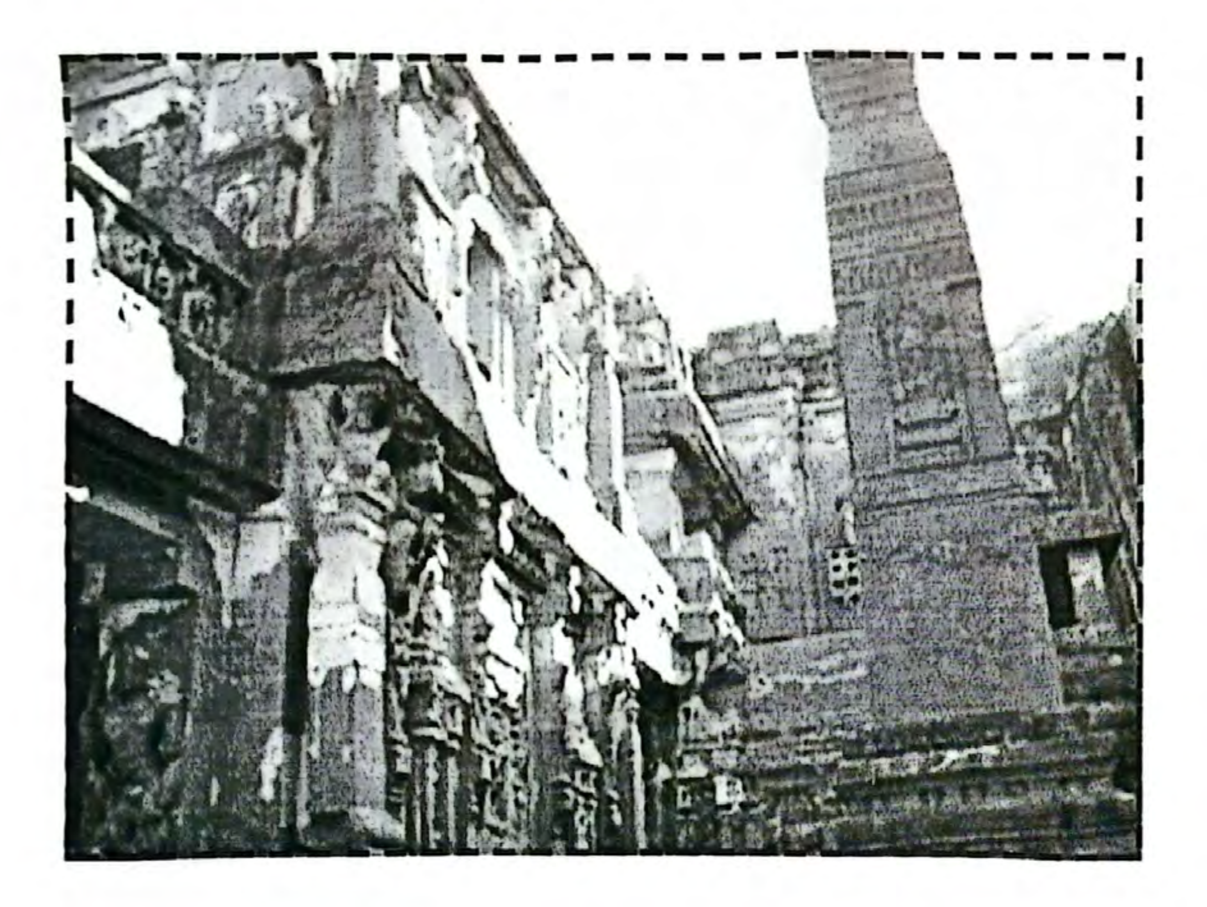
صور إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد في حضرموت











٦

ثمود.. وسيدنا صالح عليه السلام
قصة عقر الناقة

أرسل الله نبيه صالحا عليه السلام إلى قوم ثمود وكانوا قوما جاحدين آتاهم الله رزقا كثيرا ولكنهم عصوا ربهم وعبدوا الأصنام وتفاخروا بينهم بقوتهم فبعث الله إليهم صالحا مبشرا ومنذرا ولكنهم كذبوه وعصوه وطالبوه بأن يأتي بآية ليصدقوه فأتاهم بالناقة وأمرهم أن لا يؤذوها ولكنهم أصروا على كبرهم فعقروا الناقة وعاقبهم الله بالصاعقة فصُعقوا جزاء لفعلتهم ونجى الله صالحا والمؤمنين.

تقع الحِجْر (مدائن صالح) عند دائرة عرض ٢٦.٤٧ شمالاً، وخط طول ٣٧.٥٣ شرقاً ويطلق الحجر على هذا المكان منذ أقدم العصور ويستمد الحجر شهرته التاريخية من موقعه على طريق التجارة القديم الذي يربط جنوب شبه الجزيرة العربية والشام.

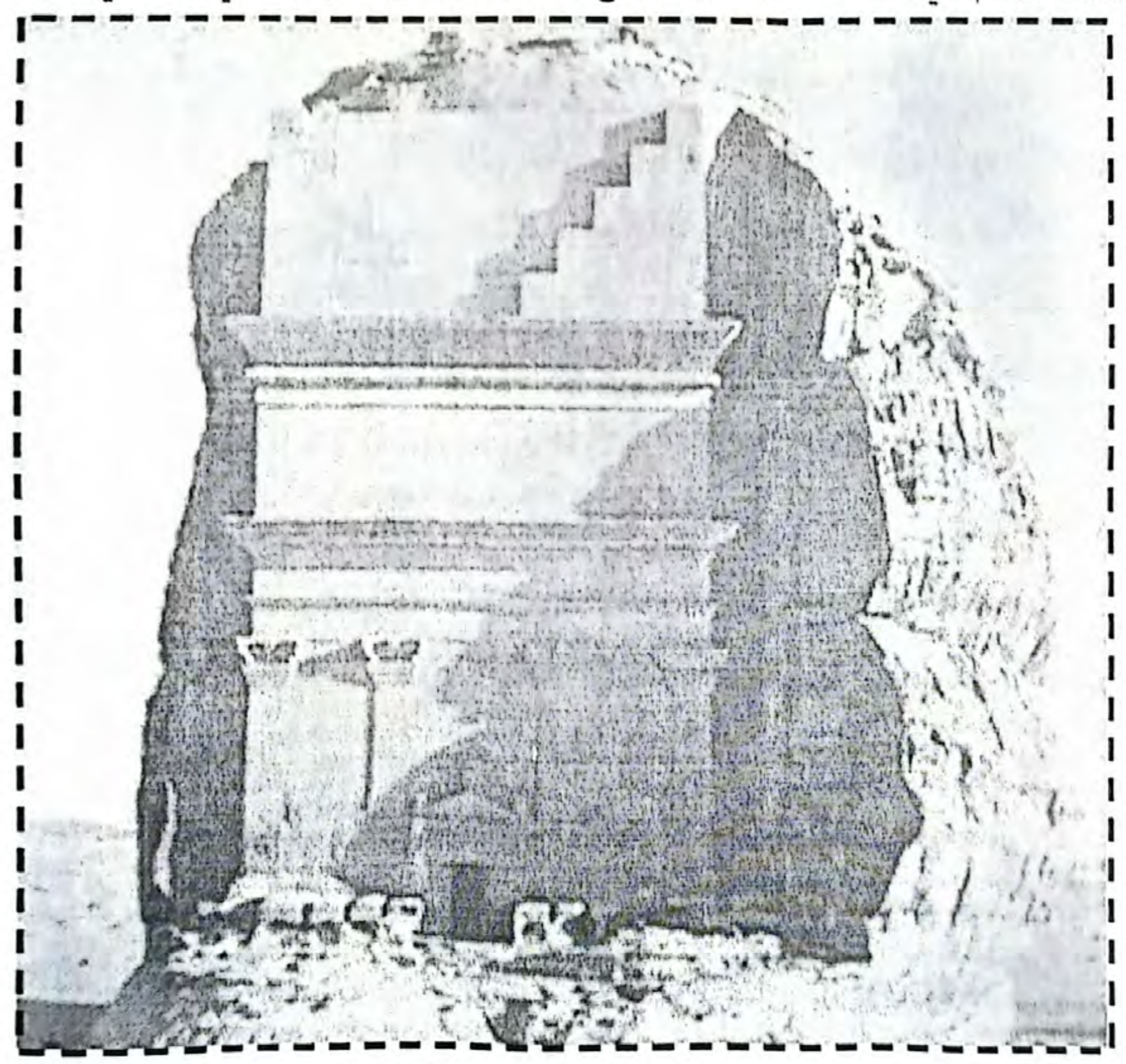
ومن أصحابه المعروفين بقوم ثمود الذي جاء القرآن بذكرهم بأنهم رفضوا دعوة نبي الله صالح وعقرهم الناقة التي أرسلها الله لهم آية.

إن مقومات الاستقرار السكاني منذ قديم الزمان كانت متوفرة في موقع الحجر من حيث موقعها على طريق التجارة ووفرة الماء وخصوبة التربة والحماية الطبيعية المتمثلة في الكتل الصخرية الهائلة والمنتشرة في الموقع.

وعلى ذلك ليس من الغريب أن يكون تاريخ الاستقرار السكاني بالحِجْر أبعد من التاريخ الذي حدده العلماء.

وأفضل دليل على ذلك كتاب الله عز وجل الذي يؤكد أن الحجر كانت مقرا لقوم ثمود رغم أنه لم يعثر على تاريخ محدد لقوم ثمود بالحجر وقد سيطر اللحيانيون على الحجر بعد أن قضوا على السيادة الديدانية بالعلا.

واستمر حكمهم حتى تغلب الأنباط عليهم وقد أقام الأنباط مستوطناتهم الأولى في شمال الأردن وفلسطين واقدم أثر لهم عثر عليه يعود للقرن التاسع قبل الميلاد وبرز دورهم في المنطقة من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي.



وفي الحجر آثار ثمودية ونبطية ولحيانية قديمة ويبلغ عدد المدافن في مدائن صالح ١٣١مدفناً منها ٣٢ مدفنا عرف تاريخها وتقع في الفترة من العام الأول قبل الميلاد وحتى العام ٧٥ميلادي.

الحجر أو مدائن صالح من الأماكن الأثرية التي يمكن أن يطلق عليها المتحف

المفتوح حيث يبلغ مساحة المنطقة الأثرية ١٣,٣٩كم مربع، وتضم هذه المساحة آثارا قائمة وأخرى تنتظر الكشف عنها والآثار القديمة.

في الحجر تتمثل في أماكن العبادة والنقوش الصخرية التي تركها الأقوام المتعاقبة وهي آثار ثمودية.

وقد جاء قوم ثمود بعد قوم عاد، وتكررت قصة العذاب بشكل مختلف مع ثمود. كانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام هي الأخرى، فأرسل الله سيدنا "صالحا" إليهم.. وقال صالح لقومه: (يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) نفس الكلمة التي يقولها كل نبي.. لا تتبدل ولا تتغير، كما أن الحق لا يتبدل ولا يتغير.

فوجئ الكبار من قوم صالح بما يقوله.. إنه يتهم آلهتهم بأنها بلا قيمة، وهو ينهاهم عن عبادتها ويأمرهم بعبادة الله وحده. وأحدثت دعوته هزة كبيرة في المجتمع.. وكان صالح معروفا بالحكمة والنقاء والخير. كان قومه يحترمونه قبل أن يوحي الله إليه ويرسله بالدعوة إليهم.. وقال قوم صالح له:

﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود)

تأمل وجهة نظر الكافرين من قوم صالح. إنهم يدلفون إليه من باب شخصي بحت. لقد كان لنا رجاء فيك. كنت مَرْجُوا فينا قبل ذلك لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك، ثم خاب رجاؤنا فيك.. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟! يا للكارثة.. كل شيء يا صالح إلا هذا. ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التي وجدنا آباءنا عاكفين عليها.. وهكذا يعجب القوم مما يدعوهم إليه. ويستنكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده. لماذا؟ ما كان ذلك كله إلا لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة.

ورغم نصاعة دعوة صالح عليه الصلاة والسلام، فقد بدا واضحا أن قومه لن يصدقو. كانوا يشكون في دعوته، واعتقدوا أنه مسحور، وطالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم. وشاءت إرادة الله أن تستجيب لطلبهم. وكان قوم ثمود

ينحتون من الجبال بيوتا عظيمة. كانوا يستخدمون الصخر في البناء، وكانوا أقوياء قد فُتح الله عليهم رزقهم من كل شيء. جاءوا بعد قوم عاد فسكنوا الأرض التي استعمروها.

قال صالح لقومه حين طالبوه بمعجزة ليصدقوه:

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود)

والآية هي المعجزة، ويقال إن الناقة كانت معجزة لأن صخرة بالجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة.. ولدت من غير الطريق المعروف للولادة. ويقال إنها كانت معجزة لأنها كانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم فلا يقترب الناس ولا الحيوانات من المياه في هذا اليوم، وقيل إنها كانت معجزة لأنها كانت تدر لبنا يكفي لشرب الناس جميعا في هذا اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبقى شيء للناس. كانت هذه الناقة معجزة، وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: (نَاقَةُ اللَّهِ) أضافها لنفسه سبحانه بمعنى أنها ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله. وأصدر الله أمره إلى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقة أو إيذائها أو قتلها، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله، وألا يمسوها بسوء، وحذرهم أنهم إذا مدوا أيديَهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب.

في البداية تعاظمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل.. كانت ناقة مباركة. كان لبنها يكفي آلاف الرجال والنساء والأطفال. كان واضحا أنها ليست مجرد ناقة عادية، وإنما هي آية من الله. وعاشت الناقة بين قوم صالح، آمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على العناد والكفر. وذلك لأن الكفار عندما يطلبون من نبيهم آية، ليس لأنهم يريدون التأكد من صدقه والإيمان به، وإنما لتحديه وإظهار عجزه أمام البشر. لكن الله كان يخذلهم بتأييد أنبيائه بمعجزات من عنده.

كان صالح عليه الصلاة والسلام يحدث قومه برفق وحب، وهو يدعوهم إلى

عبادة الله وحده، وينبههم إلى أن الله قد أخرج لهم معجزة هي الناقة، دليلا على صدقه وبينة على دعوته. وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل في أرض الله، وكل الأرض أرض الله. وهو يحذرهم أن يمسوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم. كما ذكرهم بإنعام الله عليهم: بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد.. وأنعم عليهم بالقصور والجبال المنحوتة فيها مساكنهم والنعيم والرزق والقوة. لكن قومه تجاوزوا كلماته وتركوه، واتجهوا إلى الذين آمنوا بصالح. يسألونهم سؤال استخفاف وزراية: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالحا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ؟!

قالت الفئة الضعيفة التي آمنت بصالح: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فأخذت الذين كفروا العزة بالإثم.. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾. هكذا باحتقار واستعلاء وغضب.

وتحولت الكراهية عن سيدنا صالح إلى الناقة المباركة. تركزت عليها الكراهية، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة. كره الكافرون هذه الآية العظيمة، ودبروا في أنفسهم أمرا.

وفي إحدى الليالي، انعقدت جلسة لكبار القوم، وقد أصبح من المألوف أن نرى أن في قصص الأنبياء هذه التدابير للقضاء على النبي أو معجزاته أو دعوته تأتي من رؤساء القوم، فهم من يخافون على مصالحهم إن تحول الناس للتوحيد، ومن خشيتهم إلى خشية الله وحده. أخذ رؤساء القوم يتشاورون فيما يجب القيام به لإنهاء دعوة صالح. فأشار عليهم واحد منهم بقتل الناقة ومن ثم قتل صالح نفسه.

وهذا هو سلاح الظلمة والكفرة في كل زمان ومكان، يعمدون إلى القوة والسلاح بدل الحوار والنقاش بالحجج والبراهين. لأنهم يعلمون أن الحق يعلو ولا يُعْلَى عليه، ومهما امتد بهم الزمان سيظهر الحق ويبطل كل حججهم. وهم لا يريدون أن يصلوا لهذه المرحلة، وقرروا القضاء على الحق قبل أن تقوى شوكته.

لكن أحدهم قال: حذرنا صالح من المساس بالناقة، وهددنا بالعذاب القريب.

فقال أحدهم سريعا قبل أن يؤثر كلام من سبقه على عقول القوم: أعرف من يجرأ على قتل الناقة. ووقع الاختيار على تسعة من جبابرة القوم. وكانوا رجالا يعيثون الفساد في الأرض، الويل لمن يعترضهم.

هؤلاء هم أداة الجريمة. اتُّفق على موعد الجريمة ومكان التنفيذ. وفي الليلة المحددة. وبينما كانت الناقة المباركة تنام في سلام. انتهى المجرمون التسعة من إعداد أسلحتهم وسيوفهم وسهامهم، لارتكاب الجريمة. هجم الرجال على الناقة فنهضت الناقة مفزوعة. امتدت الأيدي الآثمة القاتلة إليها. وسالت دماؤها.

علم النبي صالح بما حدث فخرج غاضبا على قومه. قال لهم: ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة؟

قالوا: قتلناها فأتنا بالعذاب واستعجله.. ألم تقل إنك من المرسلين؟

قال صالح لقومه: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

بعدها غادر صالح قومه. تركهم ومضى. انتهى الأمر ووعده الله بهلاكهم بعد ثلاثة أيام.

ومرت ثلاثة أيام على الكافرين من قوم صالح وهم يهزءون من العذاب وينتظرون، وفي فجر اليوم الرابع: انشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة. انقضت الصيحة على الجبال فهلك فيها كل شيء حي. هي صرخة واحدة.. لم يكد أولها يبدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار قوم صالح قد صُعقوا جميعا صعقة واحدة.

هلكوا جميعا قبل أن يدركوا ما حدث. أما الذين آمنوا بسيدنا صالح، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا.

وقد ورد ذكر ثمود بالقرآن الكريم :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف ٧٣-٧٨).

فقد حث القرآن الكريم الناس لأن يسيروا في الأرض فينقلوا العبرة والعظة من إبادة الله للأمم الظالمة وكيف أباد الله هذه الأمم بعذابه لما طغوا وعتوا ومنها ثمود.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وقال أيضاً: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

والنظر يكون بالبصر والبصيرة. قال القرطبي: ببصائرهم وقلوبهم.

والمعنى: أي ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وقوم لوط وغيرهما ليعتبروا بهم "فينظروا" بقلوبهم "كيف كان" آخر أمر الكافرين قبلهم. "دمر الله عليهم" أي أهلكهم واستأصلهم.

وعلى هذا فالذهاب لهذه الأماكن يتحصل منه الإنسان على العبرة، لا أن يفعل كما يفعل الجهال من أخذ هذه الأماكن لجلب المرح والفكاهة غير المقصد الذي كان يريده القرآن من السير في هذه الأماكن.

وقد رُوي عن الرسول أنه قال: " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ".

وروى البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك

أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها.

فقالوا: قد عجنا واستقينا. فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا الماء وأن لا يأكلوا ذلك العجين.

وفي الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين ولا يأكلوه، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة.

وأخرج الإمام مسلم في كتاب الزهد باب : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا حديث عَبْد اللّهِ بْنِ عُمَرَ أنه قَالَ : مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَلَىَ الحِجْرِ.

فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ: " لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إلاّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ. حَذَراً أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ " ثُمّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتّىَ خَلّفَهَا.

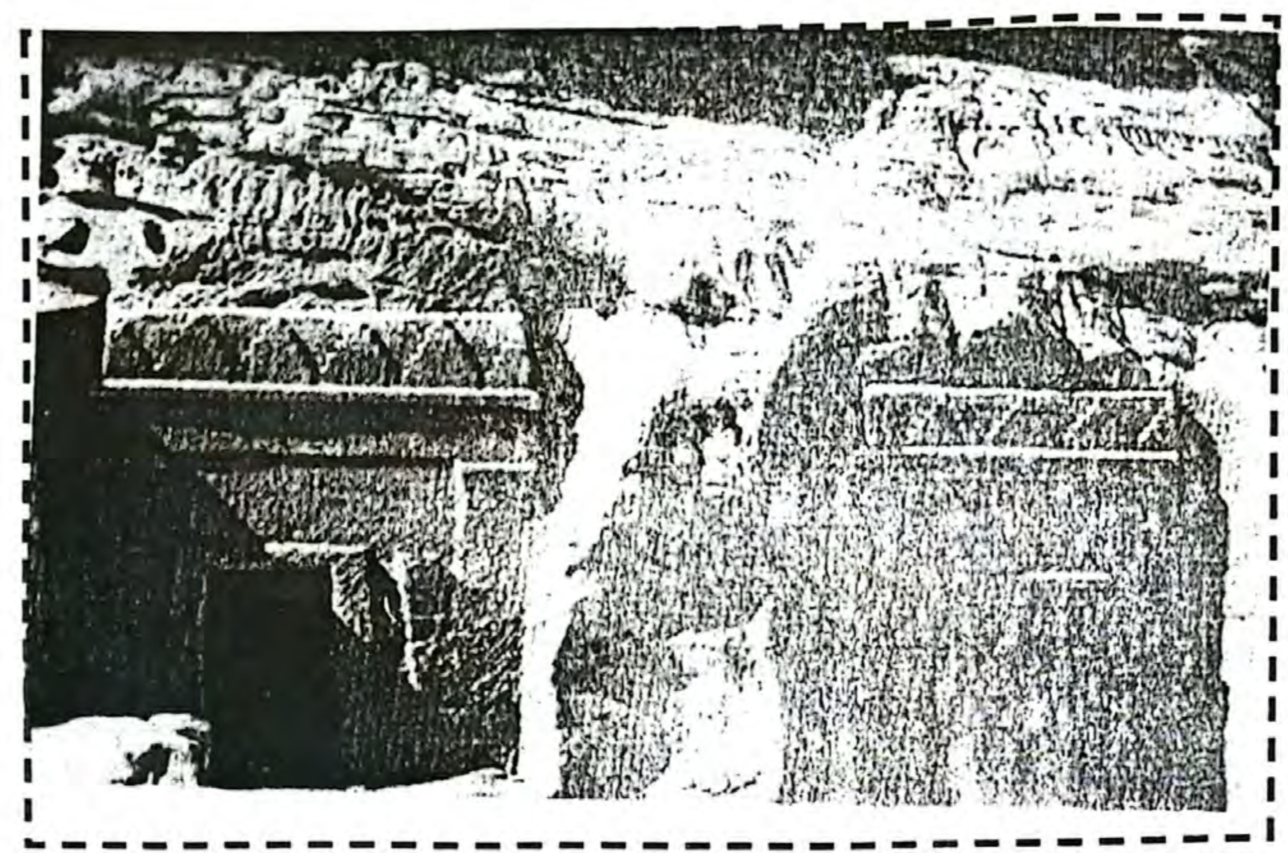
وقال الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري :

إن هذا النهي لما مروا مع النبي ﷺ بالحجر ديار ثمود في حال توجههم إلى تبوك.. وفي الحديث الحث على المراقبة، والزجر عن السكنى في ديار المعذبين، والإسراع عند المرور بها.

قال القرطبي في قوله تعالى :﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾.

ففي هذه الآية التي بين الشارع حكمها وأوضح أمرها مسائل، استنبطها العلماء واختلف في بعضها الفقهاء.

فأولها : كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع.



وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا أرض بابل فإنها ملعونة).

ومنازل أصحاب الحجر عندما مر بهم رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه : " لا تدخلوا بيوت القوم المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم " (الحديث في الصحاح والسنن).

وعلى هذا فقد ثبت كراهية الدخول إلى هذه المواضع فإن اضطرت الإنسان الظروف لاجتياز هذه الأماكن فعليه أن يسرع وأن يستشعر الخوف من الله وأن يستحضر في ذهنه كيف أباد الله هذه الأمم الطاغية.

■■■

7

أرض مدين ..
وسيدنا شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة هود بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهناك خلاف حول موقع مدين . وهناك من يقول إنهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون الأردن، بلاداً تُعرف بهم يقال لها مدين، فأرسل اللّه إليهم شعيباً وكان من أشرافهم نسباً.

وهناك من يقول إن أهل مدين كانوا قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قريبة من أرض مَعَان من أطراف الشام، قريباً من بحيرة قوم لوط. وكانوا بعدهم بمدة قريبة. ومدين مدينة عرفت بالقبيلة وهم من بني مدين بن مديان ابن إبراهيم الخليل. وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ذكره ابن إسحاق. ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب.

قال ابن عساكر: ويقال جدته، ويقال أمه بنت لوط. وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه، ودخل معه دمشق.

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال : "أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر" .

وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

وقد روى ابن إسحاق عن ابن بشر عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: (ذاك خطيب الأنبياء) .

وكان أهل مدين كفاراً، يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها.

وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، من بخس الناس أشيائهم واخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد. وهو الولي الحميد.

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

أي دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالاً.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ الصراط أى:

الطريق توعدون أي: تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك، وتخيفون السبل.

قال السدي في تفسيره عن الصحابة "ولا تقعدوا بكل صراط توعدون" أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

وعن ابن عباس قال: كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق يبخسون الناس يعني يعشرونهم. وكانوا أول من سن ذلك.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه، كما قال لهم في القصة الأخرى:
﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ويفقركم، ويذهب ما به يغنيكم.

وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا فقد باء بالصفقة الخاسرة.

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذّرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

قال ابن عباس والحسن البصري: "بقيّة الله خير لكم" أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير: ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

وقال رسول الله ﷺ: "إن الربا وان كثر فإن مصيره إلى قِلٍّ" أي: إلى قلة.

وقال رسول الله ﷺ "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما".

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدي وإن كثر، ولهذا قال نبي الله شعيب "بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين".

وقوله "وما أنا عليكم بحفيظ" أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيري.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم: أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون، وأسلافنا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلاّ على الوجه الذي ترتضيه أنت ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

هذا تلطف معهم في العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة.

يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون إن كنت على أمر بيِّن من الله تعالى، وأنه أرسلني إليكم، ورزقني النبوة والرسالة، وعَمَّى عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم؟

وقوله ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾

أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه.

"وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت" أي ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي.

"وما توفيقي" أي في جميع أحوالي "إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"

أي: عليه أتوكل في سائر الأمور وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

أي لا تحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

قيل معناه في الزمان، أي ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل: معناه وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان.

وقيل في الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ

وَدُودٌ﴾.

أي أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود وهو الحبيب بعد التوبة على عبده ولو من الموبقات العظام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾.

روي عن ابن عباس أنهم قالوا: كان ضرير البصر.

وقولهم ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا: "ما نفقه كثيراً مما تقول"

أي ما نفهمه ولا نعقله، لأنه لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه.

وقولهم" (وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً)«أي مضطهداً مهجوراً» ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ «أى قبيلتك وعشيرتك فينا» ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيز﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ (هود: ٩٢).

أي أتخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم ولا تخافون عذاب الله ولا تراعوني لأني رسول الله، فصار رهطي أعز عليكم من الله "أي جانب الله وراء ظهوركم" أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد إن استمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار

(مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ) أي في هذه الحياة الدنيا

(وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) «أي في الأخرى» (وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

هذا كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم إن عادوا اضطراراً مكرهين، وذلك لأنَّ الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾

أي فهو كافينا، وهو العاصم لنا، وإليه ملجأنا في جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

أي الحاكمين فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا انتصروه على الذين

جحدوه وكفروه، ورسولهُ خالفوه.

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون. وبه متلبسون ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة، أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها، ولا حركات بها ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المُثُلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها، ويوافق طباقها، في سياق قصة الأعراف أرجفوا بنبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين

فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

فقابل الأرجفاف بالرجفة والإخافة بالخيفة وهذا مناسب هذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص:
﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع

رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا. فإنهم قالوا:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٨).

قال الله تعالى وهو السميع العليم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٨٩).

ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب،

فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ﴾.

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين . كما قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

ثم ذكر تعالى عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً، فقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

أي قد أديت ما كان واجباً علي من البلاغ التام والنصح الكامل وحرصت على

هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه فلم ينفعكم ذلك لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أي أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. أي لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأسٍ الله الذي لا يرد ما لا يُدافع ولا يمانع ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص عنه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس "أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام، وعن وهب بن منبه أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم".

وقد شهدت الحضارة الإنسانية تطورات تاريخية بحسب الحقب الزمنية المختلفة التي شهدت مولد كل عصر حضاري.

كما أن كثيراً من الحضارات ارتبطت بالأرض التي شهدت ازدهارها وعلو شأنها حتى عرفت بها مما جعل المتأخرين يجدّون للبحث في هذه الأرض بقصد التعرف على تلك الحضارة التي سادت ثم بادت.

بل إن بعض المناطق شهدت مولد عدد من الحضارات مما جعلها أكثر استهدافاً بالبحث والتحري ومن ذلك أرض مدين التي يرجع أوج مجدها إلى عهود إبراهيم وموسى وسليمان، بالإضافة إلى نبوخذنصر البابلي الذي كانت تيماء عاصمته الصيفية وملوك اللحيانيين والمعينيين والأنباط الذين حكموا عرب عاد وثمود وسيطروا على طريق التجارة الذي سارت في دروبه التوابل والعطور من اليمن السعيد إلى مراكز الحضارة العظمى في الأيام الخوالي.

وقد اشتهر باحثون ورحَّالة بحب المغامرة لاستكشاف الحضارات السابقة وأرض مدين بالذات ومن أهم هؤلاء ممن قدموا معلومات جغرافية متقدمة عن تلك الأرض مثل تشارلز داوتي وغوارماني وأوغسطس فالن وألويس موسل وتشارلز هوبر وهاري سانت فيلبي (عبد الله فيلبي) في كتابه (أرض مدين).

وقد قامت إحدى المكاتب بطباعته ضمن اثني عشر إصداراً من سلسلة كتب فيلبي ونشرته.

يمكن وصف منهج فيلبي في كتابه بأنه يرتكز على أسلوب السهل الممتنع في وصف أحداث رحلته إلى أرض مدين ـ التي تمت بين نوفمبر ١٩٥٠ ومارس ١٩٥٣ـ مع صَبْغِهِ بصبغة قصصية سلسة تطرد السأم عن القارئ ولاسيما عند تطرقه للتفصيلات الدقيقة والمواقف الطريفة التي حصلت له أو لمرافقيه كما يسهل أن يلحظ القارئ اجتهاد فيلبي في التعليل والتحليل لمايمر به من أسماء وحوادث.

ومن ذلك ماذكره عن تسمية الجبل الأبيض وقبر الشيخ كما ظهرت الخلفية التاريخية للمؤلف ولاسيما عند حديثه عن التاريخ القديم لتيماء وتبوك وقلعة الحاج وغير ذلك، وحرصه على الوصف الدقيق للشواهد الأثرية والمعالم من أودية وجبال وسهول وعيون وفوهات بركانية وأخاديد ونباتات وطيور وقصور وطرق وغيرها والتحدث بإسهاب عن إحداثياتها الجغرافية، بل إنه تعدى ذلك إلى وصف الواقع الاجتماعي والحضاري للمناطق التي زارها بدقة متناهية مع التصريح بما يراه من تصورات لتطويرها .

كما استعان في كتابه بعدد من الصور التي التقطها بعدسته الفوتغرافية لكثير من المواقع والآثار التي اطلع عليها مع خريطة جغرافية لطريق الرحلة ومعالمه الهامة مما جعل المعلومات التي قدمها فيلبي في كتابه (أرض مدين) أدق وأشمل من كتابات الرحالة الآخرين ولاسيما تحريه الدقة في وصف النقوش القديمة والنصوص الثمودية والنبطية والمعينية وحرصه على الوقوف عليها بنفسه.

ومما زاد أهمية وصف فيلبي لهذه النقوش والنصوص لجوؤه إلى المقارنة الدقيقة بين ما رآه بنفسه في رحلته وبين وصف من سبقه من الرحالة في كتبهم لما رآه مع الإشارة إلى ما طرأ عليها من تغيرات بسبب العوامل الجغرافية أو نتيجة الاعتداءات البشرية نتيجة للطمع المادي مما جعل وصفه لهذه النقوش والنصوص مصدر ثراء حقيقي للبحوث والدراسات العلمية المخصصة لهذه المنطقة.

عند تصفح كتاب (أرض مدين) سنجد أنه قسم المؤلف كتابه بعد المقدمة إلى أحد عشر فصلاً، كان الفصل الأول منها عن رحلته من المدينة إلى خيبر، وخصص الثاني لخيبر ومحيطها، والثالث لطريقه من خيبر إلى تيماء والرابع لتيماء وماجاورها، والخامس من تيماء إلى تبوك، والسادس عن واحة تبوك، والسابع عن روافة والحرّة، والثامن عن شَرَوْرَى وقريّة، والتاسع عن هضبة حسمى والعاشر عن وادي مدين، والحادي عشر عن ساحل مدين.

ثم خصص ملحقاً عن قبور الأنباط في مغاير شعيب مدين وقارن مجموعاته بالمجموعات التي ذكرها موسل مركزاً على حالتها الراهنة عند زيارته وفي هذا الملحق نبه فيلبي إلى ما انفرد به عن موسل وفي نهاية الكتاب كشاف ثري بالأعلام والأسماء والقبائل والأماكن والمواضع والبلدان والجبال ونحوها أثرى مادة الكتاب وسهّل للباحث والقارئ الاستفادة من المعلومات الغنية التي تضمنها.

والجدير بالتنويه إليه استدراك مراجع الكتاب على فيلبي بعض العبارات التي لا يصح إيرادها مثل تشكيك فيلبي في صعود موسى جبل حُراب، وتصحيح بعض المعلومات التاريخية كنسبة فيلبي قلعة الأزلم إلى السلطان سليم وتصحيح المراجع لهذه المعلومة بنسبتها إلى السلطان محمد بن قلاوون وتسجيل القراءة الصحيحة للنص المنقوش على القلعة الذي يثبت صحة هذه النسبة من واقع المصادر الموثوق بها التي نشرته.

وفي الجملة يظل كتاب فيلبي من أكثر المصادر المكتوبة عن شمال المملكة العربية السعودية شمولاً ودقة نظراً لإقامة المؤلف الطويلة في المملكة مما أتاح له فرصاً ووقتاً أفضل من غيره للبحث والاطلاع وتسجيل نتيجة ذلك كله في كتبه الكثيرة يضاف إلى ذلك مايملكه فيلبي نفسه من خلفية جغرافية كبيرة عن القياسات وخلفية علمية عن كيفية وصف وقراءة ونقل النقوش والنصوص الأثرية.

■ ■ ■

٨

طيبة الأقصر ..
عاصمة الفراعنة

يوجد فى الأقصر وحدها أكثر من ٣٠٪ من الآثار الموجودة فى العالم أجمع. وتبعد مدينة الأقصر عن القاهرة حوالى ٦٧٠ كيلومتراً.. وقد عُرفت فى الزمن القديم باسم "وَاسِتْ" وهى كلمة تعنى "الصولجان".

فى هذه المدينة ظهرت عظمة مصر، وعظمة الأسرة الثامنة عشرة، وأصبحت لمدة كبيرة سيدة مدائن العالم القديم. كانت مدينة واسعة، ولها أبواب متعددة ولذلك سماها مؤرخو الإغريق "المدينة ذات المائة باب".

وكعادة المصريين القدماء، جعلوا مدينة الأحياء على الشاطئ الشرقى للنيل، ومدينة الأموات على الشاطئ الغربى للنيل، فالحياة شروق، والموت غروب، وتوجد بالبر الغربى مقبرة "توت عنخ آمون" التى أدهشت العالم، وغيرها من المقابر لعظماء مصر الأقدمين.

وكانت مدينة "طيبة" فى أول الأمر منازل منثورة، وقرى متفرقة صغيرة. ولما أصبحت مقراً للفرعون، تجمعت هذه القرى لتصبح مدينة واحدة تشمل المسافة من معبد الأقصر، وحتى معبد الكرنك تقريباً، ويربطهما طريق الكباش بمسافة ٣كم. وانتقلت إلى "طيبة" زعامة البلاد بعد مدينة "منف" فسيطرت على شؤون البلاد فى مصر مدة اثنى عشر قرناً من الزمان، بل إنها كانت تدبر مصائر الدول فى العالم القديم وقتها. وقد تم تشييد الكثير من المعابد، وارتفعت مبانيها ومنازلها، وأصبح الإله "آمون" رب الأرباب، وسيد آلهة الدنيا. وكان الملوك يجلسون على العرش باسمه.

ولأن "طيبة" هى المكان الذى انطلقت منه شرارة التحرير، وهى مقر "آمون-رع" الذى استعان به أجداد المصريين ليصبح الجهاد ضد الهكسوس مقدساً، فلقد ظل الخلفاء يحاربون تحت راية "آمون"، وينسبون انتصاراتهم إلى تأييده ونصره. وكانت الجيوش المحاربة تتحرك بالتالى من ساحته، لتعود ظافرة تحت راية الفرعون محملة بالغنائم والكنوز من بلدان العالم القديم.

وأصبحت عمارات "طيبة" ومبانيها حديث العالم القديم، وتحدث شعراء اليونان عن جمال المدينة وعظمتها، وحياة الترف التى يعيشها أهلها.

وهناك عدة روايات عن اسم المدينة.. يقولون إن "طيبة" اسم مصرى أصيل، حيث كانوا يطلقون لفظ "إيبة" على بعض أماكنها المقدسة، ثم أضيفت إليها أداة التعريف المصرية "تى" فأصبحت "تيبة".

ويقولون إن الإغريق القدماء شبهوها بمدينتهم المشهورة "طيبة" Thebes، ولكن الرأى الأول هو الأرجح والأقرب للعقل، لأنه لا وجه للمقارنة بين "طيبة" المصرية، ومدينة "طيبة" اليونانية.

أما الاسم الحالى الذى يعرفه الجميع (الأقصر) فهو اسم عربى صميم. فبعد أن فتح العرب مصر بهرتهم "طيبة" بمعابدها التى سموها قصوراً عندما شاهدوها، وأطلقوا عليها "الأقصر" (وهى جمع لكلمة قصر). وعموماً كان التجار العرب الذين يأتون بالتوابل والبهار من الجنوب عن طريق " قفط" (عند قنا تقريباً) يعرفون هذه المدينة، ويعرفون أخبارها.

مدينة "طيبة" لها شهرة قديمة فى الحفاظ على التقاليد الفرعونية للبلاد لمدة طويلة. هناك عصر الإمبراطورية الطيبية الأولى (٢٠٦٠ - ١٦٨٠ قبل الميلاد) أيام الدولة الوسطى، حيث اتحدت مصر على أيدى أهل "طيبة" بعد أن كانت متفرقة إلى مقاطعات.

وهناك عصر الإمبراطورية الثانية أو الدولة الحديثة (١٦٨٠ - ٩٥٠ قبل الميلاد). وقد بدأ هذا العصر بحرب التحرير ضد الهكسوس الغزاة الذين كانوا

يسيطرون على الأقاليم الشمالية كلها. وانتهت هذه الحرب بالانتصار الساحق لـ"طيبة"، وطرد الهكسوس من مصر نهائياً. بل إنهم تعقبوهم حتى بلاد الشمال.

وفى خلال هذين العصرين ظهر تاريخ "طيبة" فى مظهرين مختلفين؛ العصر الأول: وهو الذى يتميز بالملوك الذين تسموا بأسماء "أمنمحات"، و"سنوسرت" فى الأسرة الثانية عشرة (١٩٩٢ - ١٧٨٥ ق.م)، وكان عصر تنظيم سياسى واجتماعى، عمل فيه الملوك على تدعيم حكمهم كفراعنة، والقضاء على سلطة أمراء الإقطاع.

أما العصر الثانى فهو العصر الذى ظهر فيه الملوك الذين حملوا أسماء "أمنحوتب" (أمنحتب)، و"تحتمس" فى الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ - ١٣٢٠ ق.م) و"سيتى الأول"، و"رمسيس الثانى" فى الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ - ١٢٠٠ ق.م) و"رمسيس الثالث" فى الأسرة العشرين (١١٩٨ - ١١٦٦ ق.م). وكان هذا العصر عصر استقرار وازدهار من ناحية السياسة الداخلية. وقد ساعد هذا الاستقرار فراعنة مصر على نشر نفوذ البلاد وسلطانها فى بلاد الشرق الأدنى. وامتد هذا النفوذ فى سوريا وفلسطين شمالاً وبلاد النوبة جنوباً.

وقد ظهرت شخصية الدولة الحديثة فى مجال الفنون بشكل بارز. وساعدها على ذلك تلك الثروة التى أخذت تتدفق على البلاد من غزواتها الآسيوية الناجحة، التى قام بها فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، مما كان له الفضل فيما ظهر فى بلاط ملوك طيبة من الفخامة والعظمة والعناية بترقية الفنون والعلوم. وتمتعت مصر بعهد من العظمة والأبهة والفخامة لم يكن له مثيل فى تاريخ البلاد من قبل ولا من بعد.

ومازالت آثار ذلك العهد الزاهر باقية إلى الآن. ومدينة الأقصر تحتاج إلى أسبوع على الأقل لكى يشاهد زائرها على عجالة ما بها من آثار!

أما عن آثار الدولة الوسطى فلقد اندثر معظم هذه الآثار للأسف، وذلك لأن ملوك الدولة الحديثة وضعوا نصب أعينهم عملية استبدال آثار الملوك السابقين عليهم بمبانٍ أخرى أعظم شأناً بحيث تتناسب وعظمة هذه المدينة وقوتها الإمبراطورية.

ولم يصب التفكك مدينة "طيبة" إلا فى القرن العاشر قبل الميلاد، ثم تحطمت عندما غزتها جيوش "آشور بانيبال" سنة ٦٦٣ قبل الميلاد، وقامت بتدمير معظم بيوتها. ثم عندما غزا الفرس مصر سنة ٥٢٥ ق.م، عاثوا فى معابدها فساداً، ثم أتى الزمن والتخريب والسرقة على الباقى، فلم يبق على الشاطئ الشرقى إلا بقايا من معبدى الأقصر والكرنك. وقد اختفت تلك المبانى الهائلة التى كانت قائمة من غير شك حول تلك المعابد.

والسبب أن القصور والمنازل كانت مبنية من الطوب اللَّبِن فلم تتحمل ما سبق ذكره من تخريب، أما المعابد فكانت أكثر مقاومة لأنها بنيت من أحجار ضخمة فبقيت فى حالة لا بأس بها.

والمعروف أن الطوب اللبن المصنوع من الطين المخلوط بالقش أو التبن قبل أن يحرق ويصير (آجُرًا) (الطوب الأحمر).

ولقد قام بعض ملوك البطالمة الذين حكموا مصر فى حوالى عام ٣٠٠ ق.م بإعادة بناء كثير من المعابد، كما أضافوا بعض المبانى لمعابد أخرى، ولا تزال آثار ذلك واضحة فى مبانى معابد الكرنك، وكذلك بعض المعابد الجنائزية بالشاطئ الغربى.

ويرتبط اسم طيبة بالملك مينا أحد أهم و أبرز و أشهر ملوك مصر القديمة.. فمن مدينة "طيبة" (مدينة الأقصر الحالية بمحافظة قنا)، خرج الرجل العظيم "مينا الذى استطاع توحيد الوجهين البحرى مع القبلى حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م، وبذلك أتم مجهودات أسلافه، وكون لمصر كلها حكومة مركزية قوية، وأصبح أول حاكم يحمل عدة ألقاب، مثل: ملك الأرضين، صاحب التاجين، نسر الجنوب، ثعبان الشمال. كل ذلك تمجيداً لما قام به هذا البطل العظيم من أعمال.

فقد أصبح الملك "مينا" مؤسس أول أسرة حاكمة فى تاريخ مصر الفرعونية، بل فى تاريخ العالم كله، ولبس التاج المزدوج (تاج القطرين القبلي والبحري).

وقد ملأت أخبار الكفاح والنصر الذى تم للملك "مينا" وجهى لوحة تعرف باسم "لوحة نارمر"، ويرجح المؤرخون أن "نارمر" هو "مينا"، وقد وجدت هذه

اللوحة فى مدينة "الكاب"، وهى الآن محفوظة بمتحف القاهرة. وللوحة وجهان، الوجه الأول يصور الملك "مينا" وهو يقبض على أسير من أهل الشمال، وعلى رأسه التاج الأبيض، بينما يصور الوجه الآخر الملك "مينا" وهو يحتفل بانتصاره على مملكة الشمال، وهو يلبس التاج الأحمر.

وقد أخذت المدينة أهمية كبيرة وخاصة فى فترة الأسرة الحادية عشرة عندما أخذ حاكم طيبة زمام الأمور فى مصر بأكملها وأصبحت طيبة العاصمة حتى القرن الرابع عشر عندما أصبح أخناتون فرعون مصر وهذا الغياب فى أهمية طيبة أستمر عقدين من الزمن والذى تزامن مع هجوم الرومان عام ٦٦١ ق.م فقد دمرها الرومان تماما وفقدت أهميتها للأبد وأهمية طيبة الحقيقية كانت فى مرحلة الأسرة القديمة وبالتحديد عام (٢٥٧٥-٢١٣٤) ق.م .



الملك مينا يضع تاج القطرين على رأسه

فطيبة مدينة أمون والتى أخذت هذا الاسم نسبه إلى الملك أمون إله المصريين والذى عرف مؤخرا آمون رع والذى عرف أيضا بالأب الروحى للآلهة فمعبد أمون يعتبر تحفه أثرية يقع فى طيبة .

وتحت حكم ملوك الأسرة التاسعة والعاشرة (٢١٤٠-٢١٣٤) ق.م اعتبرت طيبة مركز الحكم لكثير من الحكام وأصبحت عاصمة مصر وقد أخذت هذه المدينة تلك الأهمية حتى عهد أخناتون (١٣٥٣-١٣٣٥) ق.م .

فكثيرا من المعابد العظيمة والتماثيل المبهرة والمقابر وعدد لا بأس به من الآثار الراقية كانت موجودة داخل وحول طيبة خلال تلك الفتره أخذت طيبة أهميتها مرة أخرى واعتبرت كمقر للحكومة المصرية بعد فترة قليلة من وفاة أخناتون وبالتحديد فى الفترة (١٣٠٧-١٠٧٠)، وذلك فى عهد الأسرة الثانية عشرة والعشرين فقد أضاف الفراعنة إلى الفن المعمارى الفرعونى للمدينة إضافات كثيرة خلال تلك الفترة وجاء سقوط طيبة على يد الأسريين فهى أساس مصر وبالتحديد مصر العليا وعاصمتها القديمة هى الآن الأقصر على الجانب الشرقى للنهر فلا تستطيع إنكار أهميتها فنحن أذا أخذنا جولة فى الأقصر نجد بقايا آثار ومعابد طيبة القديمة .

■■■

٩

منف.. أول عاصمة للفراعنــــة

ربما لم يحظ أحد في تاريخ الإنسانية، بنفوذ "السلطة" الذي كان يحظى به فرعون من فراعنة مصر القديمة، وبقوة تفوق قوة قياصرة الرومان ومُلْكَ ملوك بابل.

حكم الفراعنة بيد من حديد وعبدهم الناس في زمانهم من دون الله لاعتقادهم الباطل أنهم منحدرون من سلالة إله الشمس.. لقد كانوا يعدونهم خالدين وقادرين على "قهر" قوى الطبيعة "وحمل راية" التحدي على مر القرون.

هذا التحدي الذي تجسّد بقبور الفراعنة والمعابد التي شيّدت على شرف الآلهة الباطلة، إلا أن هذا لا ينطبق على مدنهم التي اختفت بقدرة الله عن وجه الأرض بشكل غريب وكأن رمال الصحراء ابتلعتها.

اعتادت الحياة المصرية المعاصرة على العيش جنباً إلى جنب مع آثار حقبة الفراعنة، فالمرء يشعر بضخامة الأبنية المشيّدة، فهناك الأهرامات التي تقع على ضفّة نهر النيل اليسرى حيث تغرب الشمس ومعابد "الكرنك" و"الأقصر" التي بناها الفراعنة على شرف إله مصر المزعوم بعد الجهد الكبير الذي بذله مئات ألوف العاملين.

لماذا إذن وعلى الرغم من مهارة البنائين المصريين القدامى الكبيرة، لم يبق سوى القليل من هذه المدن موجوداً ؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن في أهمية هذه الأبنية، بينما قدّر للمعابد والأهرامات أن تصمد في وجه قساوة وضراوة القرون، كان يتوجّب على عامة

الشّعب الذي يخضع للفراعنة، صناعة بعض التقنيات التي لا نزال نستخدمها حتى يومنا هذا، وذلك باستخدام الطين اللَّبن "الطري" قبل أن يحرق والتّبن المجفف تحت أشعة الشمس.هكذا نشأت هذه المدن، ومنها مدينة " منف " أو "ممفيس " أول عاصمة للفراعنة.



آثار منف أو ما تبقى منها

لقد وجد الملك مينا أن كلاّ من "نخب "عاصمة الصعيد و "بوتو " عاصمة الدلتا لم تعد تصلح عاصمة لمصر الموحدة تحت قيادته، فقد كان اختياره "منف" اختياراً موفقاً حربيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً في أن واحد، فهو قد أقامها قلعة

حصينة ضرب من حولها بخنادق الماء، فالنيل يجري من شرقها فيحميها والماء موجود في غربها وفي شمالها .

وعرفت المدينة الجديدة في النصوص المصرية بعدة مسميات هي " انب حج " أي مدينة الجدار الأبيض نسبة للسور الذي ضرب حول المدينة لحمايتها وفقاً للقاعدة العامة المتبعة قديماً بإنشاء أسوار محصنة للمدن الجديدة، يؤكد ذلك نقوش الصلايات، والأسوار التي كشفت حول أطلال المدن.



ملأت أخبار الكفاح والنصر الذى تم للملك "مينا" وجهى لوحة تعرف باسم "لوحة نارمر"، ويرجح المؤرخون أن "نارمر" هو "مينا"، وقد وجدت هذه اللوحة فى مدينة "الكاب"، وهى الآن محفوظة بمتحف القاهرة

ثم هي واقعة في قلب الوطن يستطيع من يقيم فيها أن يدير أموره بسهولة ويسر ومنها تستطيع الإدارة أن توزع الرزق بالعدل علي بقية الأقاليم وان تنظر في شؤونها الاقتصادية في غير مشقة ثم تتوسطها أقاليم الديار.

وظلت منف طوال التاريخ المصري القديم مركزاً سياسيّاً وإداريّاً رئيسيّاً وكقاعدة لإعداد القادة والجيوش انطلاقاً من موقعها الجغرافي المتميز بين شطري الوادي والدلتا ويدل على هذه الأهمية السياسية وقدمها ضخامة المصاطب الخاصة بالموظفين الذين كانوا يعملون فيها أو عن قرب منها منذ الأسرة الأولى في سقارة

وكانت هي العاصمة السياسية صراحة في عصر الدولة القديمة ولم تفقد أهميتها بانتقال مركز الحكم إلى إهناسيا في عصر الانتقال الأولى. وحتى عند الانتقال بمركز الحكم إلى (إثت تاوى) في عصر الأسرة الثانية عشرة أو إلى طيبة وأخت أتون في عصر الدولة الحديثة.

بل استمرت تلعب دوراً مؤثرا كعاصمة ثانية لمصر طوال هذه العصور وقد ذكر المؤرخ مانيتون أن أثوثيس أحد أبناء (مينا) كمؤسس لمنف وقد نقل هيرودت عن كهنة معبد (بتاح) أن الملك (مينا) أقام سدا على فرع النيل كان يجري في غرب الوادي واضطر لتوسيع حجرة في وسط الوادي وذلك ليجفف الموقع الذي اختاره لبناء قلعة (الجدار الأبيض) وليحميها من خطر الفيضان .

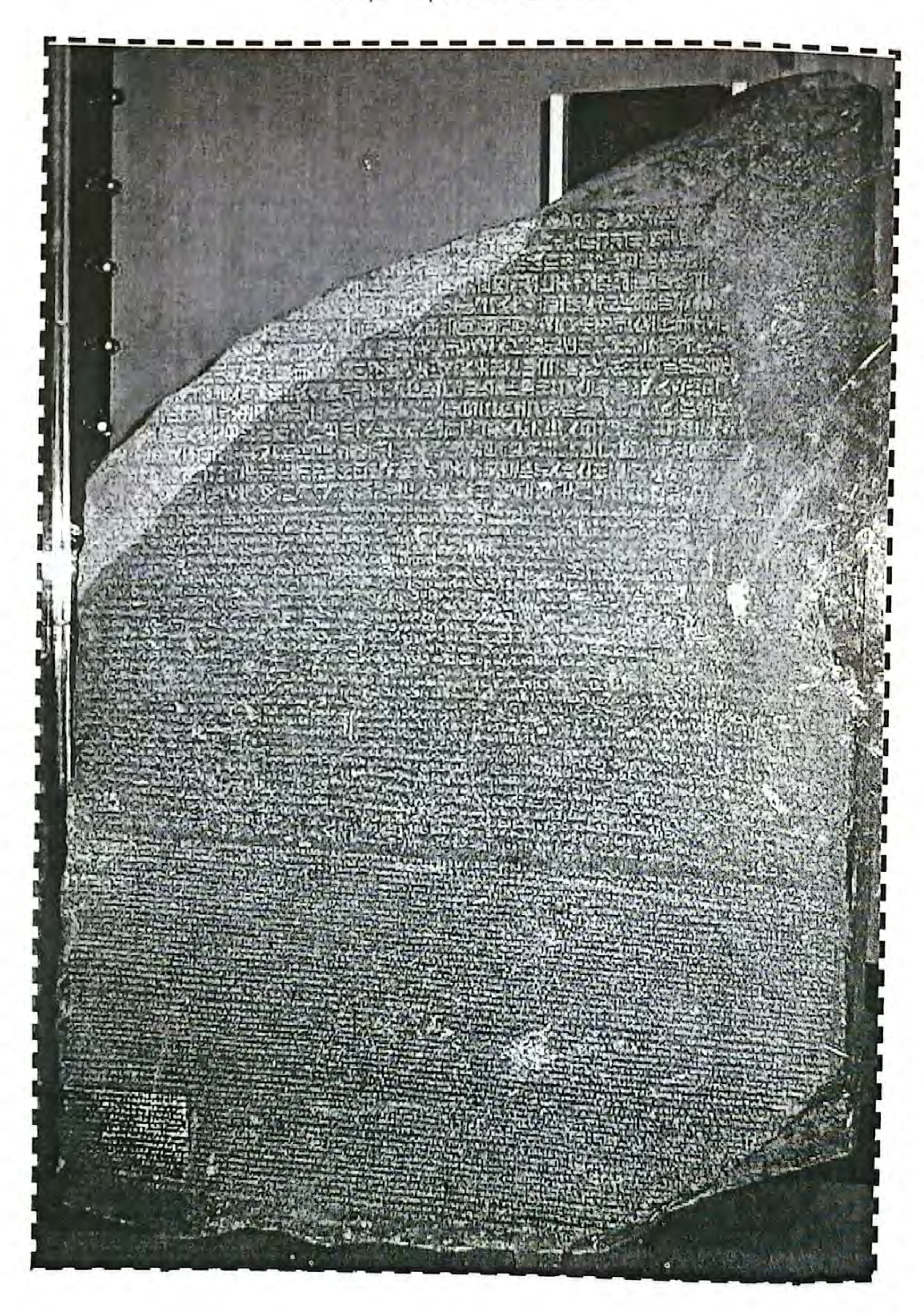
ونص ما جاء عن هيرودت: (لقد حدثني الكهنة بأن مينا كان أول من حكم مصر وبأنه أوجد جسراً لحماية (ممفيس) إذ كان النهر كله يجري بحذاء الهضبة الرملية من الجانب الليبي على حين أن مينا مبتدئا من أعلى قد أنشأ بواسطة السدود التي تقع جنوبي ممفيس بنحو مائة سناد.

وبذلك جف المجرى القديم وحول مجرى النهر لينساب فيما بين الهضبتين . ولم تبدأ منف في فقدان أهميتها السياسية والدينية والحربية إلا بعد دخول المسيحية ثم الإسلام لمصر .

ومن منف خرجت إحدى نظريات خلق الكون (نظرية بتاح صاحب الأرض البارزة) وفيها عُبد الثالوث الشهير (بتاح -سمت - نفرتوم) وترتبط باسمها أشهر وأكبر جبانات مصر (جبانة منف)"سقارة" وإليها سعى ملوك مصر ليتركوا فيها أثرا تخليداً لذكراهم .وتقع أطلال مدينة منف عند قرية ميت رهينة مركز البدرشين علي بعد حوالي ٢٥كم تقريباً من مدينة الجيزة.

لم يتبق لسور "انب حج" أي منف القديمة بقايا أو سور ولذا ذهب الرأي إلى افتراض هيئة من هيئتين فافترض بعض علماء الآثار أنه كان نموذجا قديما للسور الكبير حول مجموعة زوسر بينما افترض آخرون أنه كان سورا مزدوجا على مثال سور شونة الزبيب المزدوج في ثني وسور مدينة نخب المزدوج في أقصى الصعيد أن يتكون من سورين يفصل بينهما ممر، ويكون الداخلي منها أكثر متانة وضخامة من الخارج ويمكن تعليل تحصين " منف" بأحد غرضين فهو قد يكون مجرد إجراء عادي لتحديد حدودها وتمييزها عن المجتمع الريفي المحيط بها شأنها من ذلك شأن غيرها من المدن الرئيسية في عصرها أو يكون تحصينا مقصودا لذاته جعله أوائل ملوك الأسرة الأولى مقرا لحامية عسكرية وجعلوه ضمانا للمدينة من الانتفاضات المحكمة ضد الوحدة السياسية الجديدة.

وقد عرفت منف على مر العصور بالعديد من الأسماء كانت أهمها : "الجدران البيضاء " وكانت تختصر في بعض الأحيان لمجرد "الجدران" . والتسمية تصف غالبا القلعة الأولى التي أقيمت عند تأسيس المدينة مع بداية الأسرة الأولى والتي يرجع أنها بنيت بأسلوب البناء المتبع في ذلك الوقت وعلى ذلك كانت جدرانها من الطوب اللبن المغطًى بطبقة من شيد الجبس الأبيض وكما سبق فقد اتسع نطاق هذه التسمية لتطلق على الإقليم الأول من أقاليم مصر السفلى ككل.



ومن أهم المعبودات الرئيسية في منف وجباناتها :

١- بتاح :

كان الإلة المحلي لمدينة منف يمثل دائما على هيئة آدمية ملفوفا من المومياء برأس حليق وقلنسوة ضيقة وصولجان .

وكان بتاح يعبر بمثابة الإله العتيق الذي وجد في شخصيته وجود المظهر الرجولي، و المظهر الأنثوي وعرف المبشر بتاح باعتباره (الفنان النحات في الأرض) الذي خلق كافة الكائنات علي عجلة الفخاري مثل الإله خنوم وقد تشابهت طبيعة بتاح مع أوزيريس خلال ارتباطه بأرض منف والمعبود الجنائزى سوكر ومن ثم أصبح في العصر المتأخر معبودا مركبا يسمي بتاح سوكر أوزيريس يمثل على هيئة تمثال واقف في صورة مومياء مثل أوزيريس وعلى رأسه ريشتان طويلتان.

٢- سوكر :

كان سوكر يُعبد علي حافة الصحراء بالقرب من منف وربما بدأ تقديسه باعتباره إله الأرض والخصوبة وأثناء الاحتفال بالعيد الخاص به وكان يصور على احد الأحجار ربما كان صورته الطقسية . عبر الحقول في القارب مثبت على زخارفه بينما يتبعه العديد من الناس وهم يضعون أكاليل البصل حول أعناقهم فأصبح سوكر إلها جنائزيا لأن مركز عبادته كان قريب من الجبانة وأصبحت المعبودات في مكانه متساوية مع الملك ولهذا اتخذ سوكر هيئة الصقر المقدس ومثل عندئذ جالسا علي حجر .

٣- أوزيريس :

ربما كان أوزيريس هو الإله المعروف أكثر من جميع الآلهة المصرية ويدين بشهرته بعض الشيء إلى بقاء عبادته نحو ألفي سنة وبناء على تلك الشهرة أقيمت معابده بطول شواطئ البحر واستمرت حتى ظهور المسيحية وانتشرت على شواطئ

البحر المتوسط كما ترجع أيضا إلى الطابع الإنساني الذي اتسمت به أسطورته ويختلفأاوزيريس عن غيره من الأرباب المصرية الذين يجسدون قوي الطبيعة ويتمثلون في هيئات نصف أدمية ونصف حيوانية ويرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ ويحيرنا ظهورها أما أوزيريس بالنسبة لنا فهو واحد من بين ظهرانينا عانى الخيانة والموت على الأرض وعاد إلى الحياة بوفاء زوجته إيزيس.

وبذالك انتصر علي الموت وربح للبشرية كلها حياة أبدية أكيدة قبل ان يصير أوزيريس إلها معروفا في مصر كلها، كان ذا بداية متواضعة كيف تصوره عبدته الأقدمون لا شك أنه كان الإله الممثل لخصب الأرض والنباتات بيد أن هذه الصفقة الأصلية ـ رغم كونها فرضا بحتا ـ سرعان ما اكتسبت صفات جديدة أخرى .

وبينما انتشرت عبادة أوزيريس في طول البلاد وعرضها ورث بالتدرج بعض وظائف الآلهه الذين طغى عليهم فمثلا، نراه في " أبو صير " حيث عرفناه أولا قد حل محل إله أقدم منه بكثير، هو عنجتي الذي يبدو أنه كان إلها ملكا استعار منه أوزيريس بعض عناصر أسطورته التي مثلته كملك في أقدم العصور.

أما نزاعه مع رع إله هليوبوليس فأسفر عن ترضية بينهما وصار عضوا في التاسوع العظيم، وابن نوت وجب، وشقيق إيزيس ونفتيس وست، أما حورس الذي كان أصلا الإله الصقر للسماء فاتخذ مظهرا أخر كابن أوزيريس وإيزيس وان انتقاله إلى منف واندماجه في سوكر، أحد أعضاء القوى تحت الأرضية المتصلة بالإله بتاح ليؤكد أجزاء أسطورته الخاصة بحكمه لمصر، ثم تحوله إلى رب للموتى .

ثم رحب به في أبيدوس حيث تفوق تماما على خنتي امنتيو، إله الموتى والمقابر. وإذا صار هكذا إله الحياة والأخرى، وضامن البعث للبشر، مد مملكته حتى شملت مصر كلها، وبذا استأصل ديانة عبادة الشمس فيما يختص بالحياة بعد المموت.

وفي نهاية الأسرة الخامسة، كان الملك الميت أوزيريسا، كما أصبح كل شخص

يموت قبيل الدولة الوسطي، أوزيريسا أيضا وبعد أن كانت الرعية تتكاتف لاقتحام عالم السماء تحت قيادة الملك الراحل دون أن تستطيع أن تلج هذا العالم السماوي إلا بافتراض أن مصر الحية الممثلة في الذات الجماعية لملكها - وهو افتراض يتسم بالإبهام وتذوب فيه الذات في المجموع، اتبع المصريون أوزيريس، كأفراد إلى العالم السفلي، الذي بات مفتوحا أمام كل فرد .

■■■

١٠

سبأ.. بلقيس
وسيدنا سليمان عليه السلام

مملكة سبأ هي مملكة قديمة امتدت من شواطئ البحر الأحمر والحبشة وضمت جنوب جزيرة العرب حيث تقع اليمن في أيامنا هذه واستمرت حتى استيلاء الدولة الحميرية عليها في أواخر القرن الثالث بعد الميلاد، بدأت المملكة بالازدهار حوالي القرن الثامن ق.م.

اشتهرت سبأ بغناها وقد تاجرت بالعطور والدرر والبخور واللبان . وقد ذكر إنتاجها للعطور في عدة مصادر مثل العهد القديم والإنيادة. وقد ذكرت سبأ في القرآن الكريم ولها سورة باسمها فيه، وذلك لكثرة القصص عنها، وأشهرها قصة بلقيس بسليمان عليه السلام، وقصة السد العظيم وسيل العرم.

كان "سبأ بن يَشْجُب" رجلاً عربيًا كريمًا مسلما، يجودُ على الناس بعطاياهُ ولا يبخُلُ، وذُكر أنه أول من لبِس التاجَ، وكانَ لهُ شِعرٌ بشَّر فيه بمقْدِمِ وظهور رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان له عشرةُ أولادٍ فتفرقوا، ستةٌ منهم قصدوا "اليمن" وبَنوها، وأربعةٌ رحلوا إلى الشام وتكاثروا فيها.

وخرج من بين اليمنيينَ: التبابعة" وهم ملوك "اليمن" وأحدهم " تبع " يلبسون التيجان وقت الحكم، وعاشوا في غبطة عظيمة وأرزاق وثمار وزروع كثيرة، ولكن كانت أوديتهم شحيحة بالماء، مقفرة من الأنهار، فألجأتهم الحاجة إلى أن يصنعوا شيئا يجمعون به سيول المطر التي كانت تهطل في أوقات معينة، لينتفعوا

بها فألهمهم الله طريقةَ بناء السدود والحواجز، يقيمونها بين الأوديةِ، للانتفاع بما تخلِفه وراءها من مياه.

وكان سد "مـأرب" أقواها وأمتنها وأنفعها، وأول من بناه "سبأ" وسلط إليه سبعين واديا تفد إليه مياهها، ومات ولم يُكْمِلْ بناءَه فأكملته الملوك بعده وكان آخر من أتمَّه "بلقِيسُ" قبل أن تقابل سيدَنا "سليمان" ﷺ، ولإتمام السد خبرٌ يقولُ إنه لما ملكتْ "بلقيس" اقتتلَ قومُها على ماءِ واديهم، إذ لم يكن السدُّ قد انتهى بعدُ، فتركَتْ مُلْكَهَا وسكنت قصرَها، وطلبوا منها أن ترجع فأبتْ فقالوا: "إما أن ترجعي أو نقتُلَكِ!" فقالت لهم: "أنتم لا عقولَ لكم، ولا تُطيعونني"، فقالوا: "نُطيعُكِ".

فرَجَعَت إلى واديهم وعكفت على إنهاءِ السد، وجلبتِ الصخورَ والزفْتَ الأسودَ، ومكَّنتِ السدَّ بين جبلينِ عظيمين وجعلت لهُ ثلاثةَ أبواب بعضُها فوقَ بعضٍ وبنتْ تحتَهُ بِرْكةً ضخمة، وجعلت فيها اثني عشرَ مخرجًا على عددِ أنهارِهم يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنَوْا عنه سدُّوها، فإذا جاءهمُ المطرُ اجتمعَ إليهم ماءُ أوديةِ "اليمن" فاحتُبِسَ السيلُ من وراءِ السد الضخمِ.

ثم لما كانتِ الحاجةُ تشتد تأمرُ فيُفتَحُ البابُ الأعلى وتجري المياه إلى البركةِ، فكانوا يُسْقَوْنَ من البابِ الأعلى ثم من الثاني الأوسط ثم من الثالث الأسفلِ، فلا ينفدُ الماءُ حتى يأتي الماءُ من السنةِ المقبلةِ، فكانت تَقْسِمُه بينهم على ذلك.

وصارت رمالُ الصحراء بُسُطًا هندسيةً خضراءَ، تجري بينها القنواتُ الملتويةُ، وتصدحُ بين أغصانها البلابلُ المغردةُ، وتمتلئ أشجارُها بالأثمارِ النَّضرَةِ والأزهارِ الملونةِ.

وكانت بلدتُهم طيبة كريمةَ التربةِ، عامرةً بالخُضْرَةِ، وكان من صفاءِ هوائِها ونقاوتِه أنهم لم يَرَوْا في بساتينِهم بَعوضةً قطّ، ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملةً ولا عقربًا ولا حيةً ولا غيرَها من الهوامِ أي الحشراتِ المؤذيةِ، ولا تتعبُ دوابُهم، وإذا جاءتْهُمْ قافلةٌ وفي ثيابِهِم ودوابِّهم قملٌ ونحوُه ووصلوا إلى تلكَ البساتينِ النقيةِ ماتت تلك القملُ لساعتِها.

وكان من غزارةِ ما تُعطي تلك البساتينُ أن المرأةَ كانت تخرجُ معها مَغْزلها على رأسها وعاءٌ من قشٍّ فتلتهي بمغزَلِها، وتمشي بين الأشجارِ المثمرةِ فلا تأتي بيتَها حتى يمتلئَ وعاؤُها من كلِّ الثمارِ من كثرتِهِ على الشجرِ من غيرِ أن تمسَّها بيدِها.

وزيادةً على هذا النعيمِ الخاصِ بهم أصلحَ الله لهم البلادَ المتصلةَ بهم، وعَمَّرَها وجعلهم أصحابَها وضيَّقَ السيرَ بأن قرَّبَ القُرى بعضَها من بعض، حتى كان المسافرُ من "مأرِبٍ" إلى الشامِ يبيتُ في قريةٍ ويرتاحُ في أخرى، ولا يحتاجُ إلى حَمْلِ زادٍ حتى يصلَ مقصودَه، ءامنًا من عدو وجوع وعطش وءافاتٍ تضرُ بالمسافرِ. وقُدِرت هذه القرى المتصلةُ بأربعةِ ءالافٍ وسبعمائةِ قريةٍ بورك فيها بالشجرِ والثمرِ والماءِ بحيث تظهرُ القريةُ الثانية من الأولى لِقُربِها منها.

ولما طالت بهم مدةُ النعمةِ سئموا الراحةَ ولم يصبروا على العافية، تمنَّوْا طولَ الأسفارِ وقالوا: "لو كان جَنْيُ ثمارِنا أبعدَ، لكانَ أشهى وأعلى قيمةً". فتمنَّوْا أن يجعلَ الله بينهم وبين الشام صحارى شاسعةً ليركبوا النياقَ المحمَّلةَ، ويتزودوا بالزادِ كغيرِهم، وانتشرَ البَطَرُ والطُغيانُ والكفرُ بالله حيث بدأت عبادةُ الشمسِ من دونِ الله.

فأرسلَ الله إليهم ثلاثةَ عَشَرَ نبيا، فدعوهم إلى الله تعالى وتوحيدِهِ وتركِ الكفرِ، وذكَّروهم نعمةَ الله عليهم وأنذروهم عقابَهُ، فكذَّبوهم وقالوا - والعياذُ بالله - "ما نعرفُ لله علينا نعمةً، فقولوا لربكم فليحبسْ هذه النعمةَ عنا إن استطاعَ ذلك".

وتستمد سبأ من قصة ملكتها بلقيس أهميتهما من ذكرها في الكتاب الحكيم مع النبي سليمان - عليه السلام - في سورة النمل، مما أكسبهما شهرة لم تكن للكثير من الممالك و الملوك من قبل و من بعد، وضمنت كل من سبأ و ملكتها بأن يبقى ذكرهما خالداً عبر العصور، وعلى مر الدهور؛ وذلك لأن القرآن باقٍ وخالدٌ إلى آخر الزمان كما قال الحق - جل وعلا -: " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

لقد ورد في القرآن ذكر جيش سبأ القوي، وتظهر ثقة هذا الجيش بنفسه من خلال كلام قواد الجيش السبئي مع ملكتهم كما ورد في سورة النمل:

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

(النمل: ٣٣).

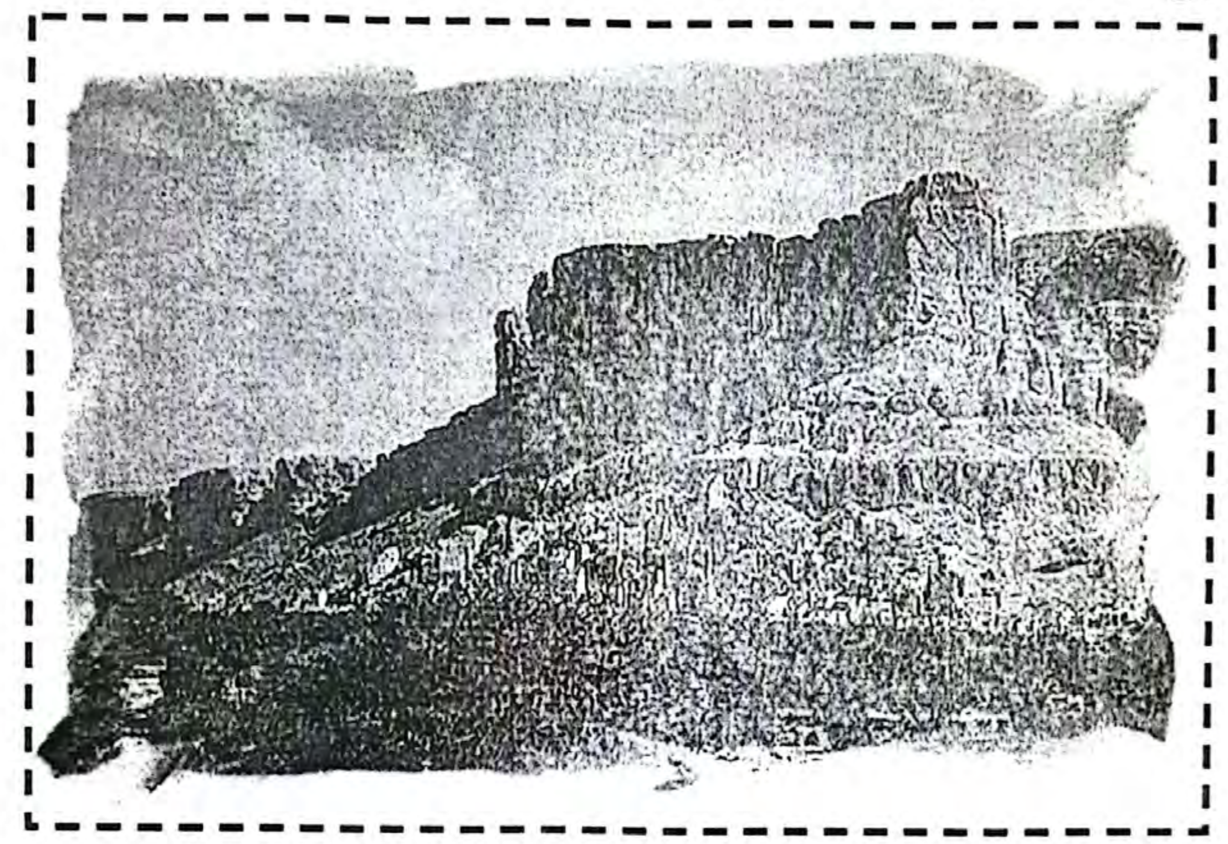
نشأت مملكة سبأ قبل القرن العاشر ق.م وكانت عاصمتها مدينة مأرب، وقد تمكن ملوكها حوالي منتصف القرن الثامن ق.م من بناء السد المشهور بسد مأرب ومن انشاء علاقات تجارية مع شواطئ افريقيا ومع بلدان بعيدة مثل الهند وبلاد اليونان، كما استوطن السبأيون مناطق في إفريقيا وأنشأوا فيها ممكلة خاضعة لهم عرفت باسم «مملكة الأكسوم».

يعتقد أن السبأيون عاشوا شمال اليمن في صحراء الجزيرة العربية ومن ثم هاجروا واستقروا في اليمن واختلطوا بالمعينيين سكنة اليمن القدماء وثم تمكنوا من الاستيلاء على السلطة.

بقي تاريخ نشوء حضارة سبأ موضع خلاف حتى الآن، فالسبئيون لم يشرعوا بكتابة تقاريرهم الحكومية حتى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد، لذلك لا يوجد أي سجلات سابقة لهذا التاريخ، ويعتقد أن السبأيين قد أسسوا مجتمعهم ما بين ١١٠٠- ١٠٠٠ قبل الميلاد، وانهارت حضارتهم حوالي ٥٥٠ بعد الميلاد، بسبب الهجمات التي دامت قرنين والتي كانوا يتعرضون لها من جانب الفرس والدولة الحميرية.

يعود أقدم المصادر التي تشير إلى قوم سبأ إلى سجلات الملك سيرجون الثاني الآشوري الحربية (٧٢٢-٧٠٥ قبل الميلاد)، في تلك السجلات يشير الملك الآشوري في سجلاته التي دون فيها الأمم التي كانت تدفع له الضرائب إلى ملك سبأ "إيت عمارا". هذا أقدم مصدر يشير إلى الحضارة السَّبئية، إلا أنه ليس من الصواب أن نستنتج أن هذه الحضارة قد تم إنشاؤها حوالي ٧٠٠ قبل الميلاد فقط اعتماداً على هذا المصدر الوحيد، لأن احتمال تشكل هذه الحضارة

قبل ذلك وارد جداً، وهذا يعني أن تاريخ سبأ قد يسبق هذا التاريخ. ورد في نقوش أراد نانار، أحد ملوك مدينة أور المتأخرين، كلمة "سابوم" والتي تعني "مدينة سبأ"، وإذا صح تفسير هذه الكلمة على أنها مدينة سبأ، فهذا يعني أن تاريخ سبأ يعود إلى ٢٥٠٠ قبل الميلاد.



آثار سبأ القديمة

تقول المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه الحضارة: إنها كانت أشبه بالحضارة الفينيقية، أغلب نشاطاتها تجارية، لقد سيطر هؤلاء القوم على الطرق التجارية التي تمر عبر شمالي الجزيرة، كان على التجار السبئيين أن يأخذوا إذناً من الملك الآشوري سيرجون الثاني حاكم المنطقة التي تقع شمالي الجزيرة، إذا ما أرادوا أن يصلوا بتجارتهم إلى غزة والبحر المتوسط، أو أن يدفعوا له ضريبة على تجارتهم، وعندما بدأ هؤلاء التجار بدفع الضرائب للملك الآشوري دُوِّنَ اسمُهُم في السجلات السنوية لتلك المنطقة.

يعرف السبئيون من خلال التاريخ كقوم متحضرين، تظهر كلمات مثل

"استرجاع"، "تكريس"، "بناء"، بشكل متكرر في نقوش حكامهم، ويعتبر سد مأرب الذي كان أحد أهم معالم هذه الحضارة، دليلاً واضحاً على المستوى الفني المتقدم الذي وصل إليه هؤلاء القوم؛ إلا أن هذا لا يعني أنهم كانوا ضعفاء عسكريا، فقد كان الجيش السبئي من أهم العوامل التي ضمنت استمرار هذه الحضارة صامدة لفترة طويلة.

كان الجيش السبئي من أقوى جيوش ذلك الزمان، وقد ضمن لحكامه امتداداً توسعيا جيداً، فقد اجتاحت سبأ منطقة القتبيين، وتمكنت من السيطرة على عدة مناطق في القارة الإفريقية، وفي عام ٢٤ قبل الميلاد وأثناء إحدى الحملات على المغرب، هزم الجيش السبئي جيش ماركوس إيليوس غالوس الروماني الذي كان يحكم مصر ك ـزء من الإمبراطورية الرومانية التي كانت أعظم قوة في ذلك الزمن دون منازع، يمكن تصوير سبأ على أنها كانت بلاداً معتدلة سياسيا، إلا أنها ما كانت لتتأخر في استخدام القوة عند الضرورة.. لقد كانت سبأ بجيشها وحضارتها المتقدمة من " القوى العظيمة" في ذلك الزمان.

كانت مأرب هي عاصمة سبأ، وكانت غنية جدا، والفضل يعود إلى موقعها الجغرافي، كانت العاصمة قريبة جدا من نهر الدهنا الذي كانت نقطة التقائه مع جبل بلق مناسبة جدا لبناء سد، استغل السبئيون هذه الميزة وبنوا سدا في تلك المنطقة حيث نشأت حضارتهم، وبدؤوا يمارسون الري والزراعة، وهكذا وصلوا إلى مستوى عال جدا من الازدهار. لقد كانت مأرب العاصمة من أكثر المناطق ازدهاراً في ذلك الزمن. أشار الكاتب الإغريقي بليني - الذي زار المنطقة وأسهب في مدحها - إلى أن قال إنها أراضٍ واسعة وخضراء.

تنسب الملكة بلقيس إلى الهدهاد بن شرحبيل من بني يعفر، وهناك اختلاف كبير بين المرا ـع التاريخية في تحديد اسم ونسب هذه الملكة الحِمْيَرية اليمانية، كما أنه لا يوجد تأربخ اسنة ولادتها ووفاتها.



لوح من المرمر يعود لمملكة سبأ للقرن الثامن قبل الميلاد محفوظ في متحف اللوفر ويتحدث عن إله القمر لدي العرب القدامى

كانت بلقيس سليلة حسب ونسب، فأبوها كان ملكاً، وقد ورثت الملك بولاية منه؛ لأنه على ما يبدو لم يرزقٍ بأبناء بنين. لكن أشراف وعلية قومها استنكروا توليها العرش وقابلوا هذا الأمر بالازدراء والاستياء، فكيف تتولى زمام الأمور في مملكة مترامية الأطراف مثل مملكتهم امرأة، أليس منهم رجلٌ رشيد؟

وكان لهذا التشتت بين قوم بلقيس أصداء خارج حدود مملكتها، فقد أثار الطمع في قلوب الطامحين الاستيلاء على مملكة سبأ، ومنهم الملك "عمرو بن أبرهة" الملقب بذي الأذعار. فحشر ذو الأذعار جنده و توجه ناحية مملكة سبأ للاستيلاء عليها وعلى ملكتها بلقيس، إلا أن بلقيس علمت بما في نفس ذي الأذعار فخشيت على نفسها، واستخْفتْ في ثياب أعرابي ولاذت بالفرار. وعادت

بلقيس بعد أن عم الفساد أرجاء مملكتها فقررت التخلص من ذي الأذعار، فدخلت عليه ذات يوم في قصره و ظلت تسقيه الخمر وهو ظانٌّ أنها تسامره وعندما بلغ الخمر منه مبلغه، استلت سكيناً وذبحته بها. إلا أن رواياتٍ أخرى تشير إلى أن بلقيس أرسلت إلى ذي الأذعار وطلبت منه أن يتزوجها بغية الانتقام منه، وعندما دخلت عليه فعلت فعلتها التي في الرواية الأولى.

وهذه الحادثة هي دليلٌ جليٌّ وواضح على رباطة جأشها وقوة نفسها، وفطنة عقلها وحسن تدبيرها للأمور، وخلصت بذلك أهل سبأ من شر ذي الأذعار وفساده.

وازدهر زمن حكم بلقيس مملكة سبأ أيما ازدهار، واستقرت البلاد أيما استقرار، وتمتع أهل اليمن بالرخاء والحضارة والعمران والمدنية. كما حاربت بلقيس الأعداء ووطدت أركان ملكها بالعدل وساست قومها بالحكمة. ومما أذاع صيتها وحببها إلى الناس قيامها بترميم سد مأرب الذي كان قد نال منه الزمن وأهرم بنيانه وأضعف أوصاله. وبلقيس هي أول ملكة اتخذت من سبأ مقرا لحكمها.

وقد ورد ذكر الملكة بلقيس في القرآن الكريم، فهي صاحبة الصرح المُمَرد من قوارير الذى بناه سليمان عليه السلام لها وذات القصة المشهورة مع النبي سليمان بن داود عليه السلام في سورة النمل.

وقد كان قوم بلقيس يعبدون الأجرام السماوية والشمس على وجه الخصوص،

وكانوا يتقربون إليها بالقرابين، و يسجدون لها من دون الله، وهذا ما لفت انتباه الهدهد الذي كان قد بعثه سليمان - عليه السلام- ليبحث عن موردٍ للماء. وبعد الوعيد الذي كان قد توعده سليمان إياه لتأخره عليه بأن يعذبه إن لم يأت بعذرٍ مقبول عاد الهدهد و عذره معه "أحطت بما لم تحط به و جئتك من سبأ بنبإٍ يقين"، فقد وجد الهدهد أن أهل سبأ على الرغم مما آتاهم الله من النعم إلا أنهم" يسجدون للشمس من دون الله ".

فما كان من سليمان -عليه السلام- المعروف بكمال عقله وسعة حكمته إلا أن يتحرّى صدق كلام الهدهد، فقال: " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين"، وأرسل إلى

بلقيس ملكة سبأ بكتابٍ يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله ورسوله والإنابة والإذعان، وأن يأتوه مسلمين خاضعين لحكمه وسلطانه، ونصه "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين" .

كانت بلقيس حينها جالسة على سرير مملكتها المزخرف بأنواع من الجواهر واللآلئ والذهب مما يسلب الألباب ويذهب بالمنطق والأسباب.

ولما عُرف عن بلقيس من رجاحة وركازة العقل فإنها جمعت وزراءها وعِلّية قومها، وشاورتهم في أمر هذا الكتاب. في ذلك الوقت كانت مملكة سبأ تشهد من القوة ما يجعل الممالك الأخرى تخشاها، و تحسب لها ألف حساب.

فكان رأي وزرائها " نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأس شديدٍ " في إشارةٍ منهم إلى اللجوء للحرب والقوة. إلا أن بلقيس صاحبة العلم والحكمة والبصيرة النافذة ارتأت رأياً مخالفاً لرأيهم، فهي تعلم بخبرتها وتجاربها في الحياة قائلة لهم "إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون"، وكما حكى القرآن الكريم عند ذكره للقصة.

وبصرت بما لم يبصروا ورأت أن ترسل إلى سليمان بهديةٍ مع علية قومها، وعله يلين أو يغير رأيه، منتظرة بما يرجع المرسلون. ولكن سليمان -عليه السلام- رد عليهم برد قوي منكرا صنيعهم ومتوعدا إياهم بالوعيد الشديد قائلاً: "أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون".

عندها أيقنت بلقيس بقوة سليمان وعظمة سلطانه، وأنه لا ريب نبي من عند الله عز وجل، فجمعت حرسها وجنودها واتجهت إلى الشام حيث سليمان عليه السلام.

وكان عرش بلقيس وهي في طريقها إلى سليمان -عليه السلام- مستقرا عنده، فقد أمر جنوده بأن يجلبوا له عرشها، فأتاه به رجلٌ عنده علم الكتاب قبل أن يرتد إليه طرفه. ومن ثم غير لها معالم عرشها، ليعلم أهي بالذكاء والفطنة بما يليق بمقامها وملكها.

ومشت بلقيس على الصرح الممرد من قوارير والذي كان ممتداً على عرشها،

إلا أنها حسبته لجةً فكشفت عن ساقيها وكانت مخطئة بذلك عندها عرفت أنها وقومها كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم لغير الله -تعالى- وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وتقول المراجع التاريخية إن سليمان -عليه السلام- تزوج من بلقيس، وأنه كان يزورها في سبأ بين الحين والآخر. وأقامت معه سبع سنين وأشهراً، و توفيت فدفنها في تدمر.وتعلل المراجع سبب وفاة بلقيس أنها بسبب وفاة ابنها رَحْبَم بن سليمان.

وقد ظهر تابوت بلقيس في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وعليه كتابات تشير إلى أنها ماتت لإحدى وعشرين سنة خلت من حكم سليمان. وفتح التابوت فإذا هي غضّة لم يتغير جسمها، فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر بترك التابوت مكانه وبنى عليه الصخر.

وبقراءة في شخصية الملكة بلقيس كما ذكرت في القرآن الكريم سنجد أن بلقيس لم تكن امرأة عادية، أو ملكة حكمت في زمن من الأزمان ومر ذكرها مرور الكرام شأن كثير من الملوك والأمراء.

ودليل ذلك ورود ذكرها في القرآن. فقد خلد القرآن الكريم بلقيس، وتعرض لها دون أن يمسّها بسوء، ويكفيها شرفاً أن ورد ذكرها في كتاب منزلٍ من لدن حكيم عليم، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، ولم و لن يعتريه أي تحريف أو تبديل على مر الزمان، لأن رب العزة -جل و علا- تكفل بحفظه وصونه "إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون".

فذِكر بلقيس في آخر الكتب السماوية وأعظمها وأخلدها هو تقدير للمرأة في كل زمان و مكان، هذه المرأة التي استضعفتها الشعوب والأجناس البشرية وحرمتها من حقوقها، وأنصفها الإسلام و كرمها أعظم تكريم. و هذا في مجمله وتفصيله يصب في منبع واحد، الا وهو أن الملكة بلقيس كان لها شأنٌ عظيم جعل قصتها مع النبي سليمان -عليه السلام- تذكر في القرآن الكريم .

الملكة بلقيس ما كان لها هذا الشأن العظيم لولا اتصافها برجاحة العقل وسعة الحكمة وغزارة الفهم. فحسن التفكير و حزم التدبير أسعفاها في كثير من المواقف الصعيبة والمحن الشديدة التي تعرضت لها هي ومملكتها؛ ومنها قصتها مع الملك ذي الأذعار الذي كان يضمر الشر لها ولمملكتها، ولكن دهاءها وحنكتها خلصاها من براثن ذي الأذعار و خلص قومها من فساده وطغيانه وجبروته.

كما أنها عرفت بحسن المشاورة إلى جانب البراعة في المناورة، فهي لم تكن كبقية الملوك متسلطة في أحكامها، متزمتة لآرائها، لا تقبل النقاش أو المجادلة، بل كانت كما أجرى الله على لسانها " قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)، وذلك على الرغم من انه كان بمقدورها أن تكتفي برأيها و هي الملكة العظيمة صاحبة الملك المهيب. فهي ببصيرتها النيّرة كانت ترى أبعد من مصلحة الفرد، فهّمها كان فيما يحقق مصلحة الجماعة.

■ ■ ■

١١

" أور " المدينة التي شهدت مولد إبراهيم الخليل

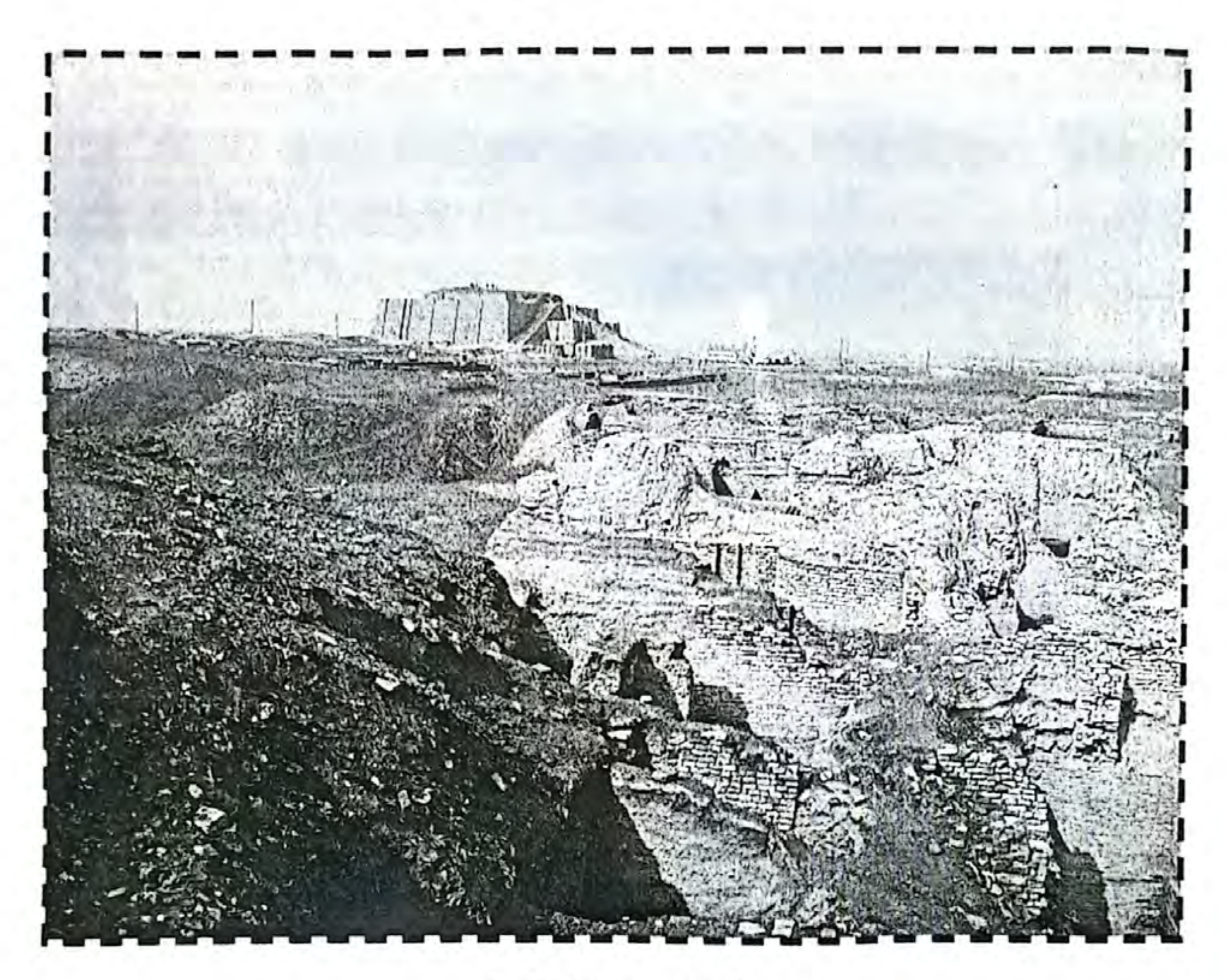
مدينة " أور " هى موقع أثري لمدينة سومرية بتل المقير جنوب العراق. وكانت عاصمة للسومريين عام ٢١٠٠ق.م.. وكانت بيضاوية الشكل وكانت تقع على مصب نهر الفرات إلا انها حاليا تقع في منطقة نائية بعيدة عن النهر وذلك بسبب تغير مجرى نهر الفرات على مدى آلاف السنين الماضية.

تقع " أور " على بعد بضعة كيلومترات عن مدينة الناصرية جنوب العراق وعلى بعد بعد ١٠٠ ميل شمالي البصرة .

وتعتبر واحدة من أقدم الحضارات المعروفة في تاريخ العالم. ولد بها الخليل إبراهيم أبو الأنبياء عام ٢٠٠٠ق.م.

ونزلت عليه فيها الرسالة الحنيفية . واشتهرت المدينة بالزقورة التي هي معبد لنانا آلهة القمر في الأساطير (الميثولوجيا) السومرية. وكان بها ١٦ مقبرة ملكية شيدت من الطوب اللَّبِن (النيئ). وكان بكل مقبرة بئر. وكان الملك الميت يدفن معه جواريه بملابسهن وحليهن بعد قتلهن بالسم عند موته. وكان للمقبرة قبة.

أور كانت مسكونة منذ فترة العبيد حيث كانت القرى عبارة عن مستوطنات زراعية، ولكنها أصبحت مستوطنة كبيرة مع حاجة هذه المدن إلى مستوى أعلى من حيث السيطرة على الري فيأاوقات الجفاف. وفي الفترة ٢٦٠٠ق.م وخلال حكم السلالة الثالثة في الفترة المبكرة ازدهرت أور من جديد. وأصبحت المدينة المقدسة للإلهة نانا. وأخيرا أصبح ملوك أور هم الحكام المسيطرين على سومر.



أطلال مدينة " أور"

وقد ازدهرت أور مع سلالة أور الثالثة.. سلالة أور الثالثة هي أسرة سومرية أسسها في مدينة أور الأمير الشهير " أور نمو " وقد بلغ عدد ملوكها خمسة حكموا أكثر من مائة سنة (٢١١١ - ٢٠٠٣ ق م) اشتهرت هذه السلالة بتعمير البلاد وإعادة اللغة السومرية للتداول بعد أن نافستها اللغة الأكدية، وتقديم الآلهة السومرية القديمة على غيرها من الآلهة وإقامة الشعائر الطقوسية السومرية القديمة.

وقد تقدمت الحضارة في هذا العهد تقدما محسوسا وانتشرت المعارف بمختلف مناحيها من علوم وآداب وفنون ونالت أور القسط الأوفر من العناية حتى أصبحت قبلة الشرق القديم وقد دون في هذه الفترة كثير من الأخبار التاريخية القديمة وسطرت الأساطير والقصص الدينية.

على بعد ١٥ كم شمال غربي مدينة الناصرية تبدو آثار أور المطلة على التاريخ من أوله حيث أنشأ السومريون واحدة من أعرق الحضارات ولتبدأ إشراقة بدء الوعي والخطوات الأولى صوب نوافذ المعرفة.



رجل وامرأة من " أور " جنوب العراق

وليس بعيداً عن أور تقع مدينة أوروك السومرية وفيها وضع الحرف خطوط أشجانه المعرفية وبدأت الأبجدية تنطق أناشيد التودد إلى الآلهة، ونطقت الذاكرة السومرية تساؤلاتها بحروف مسمارية دونت على لوح الطين خطوطاً متساوية الاتجاهات ومدببة النهايات لتكون اللغة المفهومة الأولى في العالم.

وعندما كانت هناك مدينة أوروك التي حكم فيها الملك الأسطوري جلجامش الذي كان يأم إلى أور في مواسم أعيادها الكثيرة ليأخذ من الآلهة النصح والإرشاد ليبدأ رحلته الأسطورية المعروفة بحثاً عن الحياة الدائمة التي لم يحصل عليها.

ومع أوروك كانت هناك مدن سومرية أخرى لها ريادات كونية متعددة كمدينة أريدو شمال مدينة أور ببضع كيلومترات التي تفتخر من بين مدن فجر السلالات أن أهلها السومريين أو غيرهم ممن سكن هذه البقاع ويقال إنهم أصحاب حضارة (العبيد) ابتنوا أول المعابد قبل أن تعرفها الحضارات الأخرى للتقرب من السماء ومنادمة الآلهة، وفي الديانات التوحيدية كانت بيوتا لذكر الله وعبادته والتقرب الى رحمته الكونية، ومع أريدو كانت هناك مدن لارسا وتلو ولكش وسنكرة ومدن أخرى أجتمعت في نفس المحيط الحضاري الذي شيدت عليه أور مجدها العظيم.

في ظل هذا الأديم الذي تكاملت فيه رُؤَى الإنسان الأولى ومع انتشار السلالات وتعدد اتجاهات الشعوب في لهجات وأمم، كانت أور سباقة لتكون منشأ كل ماهو طيب، وكان أهلها يفكرون قبل غيرهم بأسرار الموجودات التي يرونها حولهم حيث كان الخليج قبل مكانه الحالي يلطم بموجه الهادر أسس مدينة أور قبل أن يبتعد عنها لتبقى اليوم بعيدة عن النهر بعشرة أميال من جهة الشرق.

ورغم هذا كشفت أثريات هذه المدينة قدرة أهلها على شق الأنهر والترع والقنوات لنقرأ فيما تركوه من كشوفات أن التجارة النهرية لهذه المدينة أوصلت سفن السومريين إلى دلمون التي هي اليوم مملكة البحرين وكانت تعتبر قديماً

الجنة المفترضة للخلود السومري وكانت لأور أيضاً معاملات مع (مكان) التي هي اليوم سلطنة عمان ومع بلاد الهند وكانت الأحجار الكريمة تجلب من مناجم (باداكشان) في أفغانستان، والفخار المميز من كرمان وسط إيران ويقال إن تجارة هذه المدينة امتدت شمالا حتى أرمينيا في آسيا الوسطى.



رقيم من مدينة أور في متحف اللوفر

غير أن أهم مايميز المدينة ارتباطها بالرؤى التوراتية الأولى عندما اعتقد منقبها الأول والذي اكتشف أغلب تراث المدينة وأهمها كنوز مقبرة أور الملكية التي تعود إلى ملوك وأمراء سلالة أور الثالثة العلامة البريطاني "ليوناردو وولي" الذي سحره الاعتقاد في بدء التنقيبات.

وكما جاء في مذكرات من رافقه في رحلة التنقيب مساعداً وهو العالم

الأثاري " ماكس مالوان " زوج الروائية الأنكليزية الشهيرة " آجاثا كرستي " قوله في الصفحة ٣٦ من المذكرات مانصه: (كانت المغريات التي اجتذبت وولي للعودة الى أور في ذلك هائلة لأنها كانت مدينة قديمة مبجلة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعهد القديم وكان مايزال هناك عدد كبير من قراء الكتاب المقدس).

لقد جعلت التنقيبات رحلة " تارح " يسيرة الفهم لأن حران مثل أور كانت مركزاً لعبادة القمر. وكان وولي يأمل دائما في أن يكتشف بعض الإشارات إلى إبراهيم، ورغم أن اسمه لم يظهر أبداً في سجل الألواح المسمارية، إلا أنه أفلح في إعادة تكوين خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر التي سميت بلاد بابل فيما بعد إلى فلسطين.

والانتساب الإبراهيمي إلى أور تؤكده حقائق تاريخية عديدة غير ذلك الأثر الذي يبعد عن قاعدة الزقورة بحوالي ٣٠٠ متر ويقال إنه البيت الذي ولد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام والذي ظل مهملاً الى أن فكر بابا الفاتيكان في بدء رحلة كونية بمناسبة الألفية الثالثة للدور الريادي الذي لعبته هذه المدينة والتي عانت من إهمال مقصود عبر حقب عديدة من دولة العراق الحديثة منذ أن سمح للبعثات الأثرية بنبش أرض أور وسرقة كل كنوزها الأثرية التي تعرض اليوم في متاحف أوربا وأمريكا.

ويبدو أن النبي الكريم عاش في أور ردحاً من الزمن أكدت أنتماءه الى هذه الأرض، ماحقاً بذلك كل الادعاءات القائلة كما اليهودية بانتساب إبراهيم إليها كما ورد في سورة آل عمران من الذكر الحكيم " ماكان إبراهيم يهوديًا " وعندما جاهر بالدعوة كانت أور موطنها الأول، وهذا ماتؤكده الآية الكريمة من سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ❖ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ❖ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾.

ويبدو أن الكثيرين من أبناء أور قد آمنوا بإبراهيم عليه السلام وكانوا معه في رحلته الإيمانية التي امتدت من أور إلى حران ومصر وفلسطين حتى الجزيرة العربية

حيث أمر ببناء الكعبة الشريفة ثم العودة الى أرض فلسطين حيث يلبي نداء خالقه ويتوفى كما ورد في الإصحاح الخامس والعشرين - تكوين .من أول الآية السابعة الى آخر الآية العاشرة من أن النبي إبراهيم حين توفي دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق في مغارة المكيفلة في حقل غفرون بن صرصر الحثي والتي دفنت فيها زوجه ساره من قبله، وهو نفس مقام الخليل في حبرون والذي كان في الأصل أسمه قرية أربع والتي هي اليوم مدينة الخليل التي تصمد بكل جبروت المؤمن ضد القساوة الإسرائيلية، وهم بذلك يبتعدون ضد قيم التوراة الأولى التي دعتهم باسم الرب وقالت لإبراهيم "انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك. وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة " .

لقد امتزجت الأساطير بوقائع الألواح. كل واحد من أمراء أور وملوكها كان يتحدث عن المدينة بطريقته الخاصة. ولكن أور - نمو أمير البناء والعمران والتي أظهرت لنا دلائل التنقيب صوره وتماثيله وهو يحمل " طاسة " البناء على رأسه في عزم منه على إتمام بناء الزقورة التي لم تزل إلى اليوم شامخة في ذات المكان الذي بنيت فيه، وهي أول بناء شامخ في تأريخ الحضارات بني لقصد تقرب الإنسان من الآلهة.

وقد تميزت بهندستها الرائعة وسلالمها العالية وأجرها الأحمر المفخور والذي يرجع تأريخه إلى أكثر من ٥٠٠٠ عام وكان ارتفاعها الأصلي يبلغ ٧٠ قدما ولها ثلاث سلالم كل سلمة ١٠٠ درجة وكانت كل آجرة قد ختمت بختم الملك السومري أور - نمو الذي كان يحمل اسمه.

كانت أور واحدة من أضخم الحواضر البشرية في ذلك الوقت. وأذا أردنا أن نحدث القرائن بين وجودها وطبيعة الخلق الذي ابتداه القدير العزيز بآدم عليه السلام تكون هي من بين المدن التي تفتخر بانتمائها التأريخي. لهذا يحق لنا أن نقول عن أور هي واحدة من مدن بدايات التبشير الأول.

ويبدو أن السير الحضاري لوجود المدينة مرهون بالإرادة السياسية لملوكها الذين عاشوا صراعات لاتنتهي مع السلالات المجاورة والممالك الإقليمية حتى دفعت ثمن نهاية ملكها إلى الأبد في معركتها الأخيرة مع الحياة عندما غزتها مملكة عيلام التي تجاور مملكة سومر وعاصمتها أور من الشرق والجنوب وأدى ذلك إلى إحراق المدينة عن بكرة أبيها وانتحار ملكها المسمى أبي ـ سين ونقل إلهها " سين " إله القمر ليعبد هناك.

وتربط مدينة أور بهاجس حضاري متقدم هو هاجس الموسيقى، فقد كشفت تنقيبات وولي في مقبرة أور المقدسة أقدم الآلات الموسيقية وأهمها قيثارة الملكة السومرية بو ـ آبي والتي تسمى خطأ الملكة " شبعاد " وهي جزء من مقتنيات كثيرة عثر عليها فى الأقبية الملكية التي كان يمارس فيها نمط خاص من الشعائر الجنائزية في اعتقاد أهل أور خاصة والسومريين عامة أن الملك عندما يموت فإن حياة في ذات الرفاهية تنتظره فكان عليه أن يصحب معه إلى قبو موته خدمه وحشمه والكثير من المقربين إليه وهم أحياء وكانوا يصطحبون معهم القيثارات لتسلية الملك في عالمه الآخر، وكان وولي قد وجد هذه القيثارات في تلك الأقبية وهي مطعمة باللازورد والأحجار الكريمة الأخرى وقد سماها خطأ "الراية الملكية "، ولم تكن هي سوى صندوق موسيقي للقيثارة.

ويمثل هذا الوصف المهيب الذي ذكره "مالوان" في مذكراته روعة ماوصف به هذا الكشف الأثري عندما ذكر في المذكرات النص التالي: « كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً، ويذكر أن أحد القبور الملكية، الذي ضم ما لايقل عن ٧٤ شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق، بدأ عندما تم الكشف عن سجادة ذهبية اللون مزينة بأغطية الرأس لسيدات البلاط، متخذة شكل أوراق الزان وعليها آلات القيثار والقيثارات التي عزفت الترنيمة الجنائزية الى النهاية».

لكن أهم علاقة تربط أور بالموسيقى هو أنها حكمت لـ٤٨ عاما من قبل الملك شولكي ابن الملك أور ـ نمو وكان هذا الملك الموسيقار يعزف على ثماني آلات من بينها القيثارة ذات الثلاثين وتراً وتحمل اسما يرتبط بالمدينة وهو أور ـ زبابا.

وكانت أور واحدة من أقدم مدن العالم من اهتمت بتأسيس معاهد الموسيقى وكانت تسمى في ذلك الحين بيوت الموسيقى وما ذكرته الدكتورة " دشس جيلمن " من جامعة " ليبيج في بلجيكا " يؤيد ذلك عندما ذكرت :" كان الموسيقيون فئة حرفية هامة في وادي الرافدين، وكان التلميذ غير الموسيقي موضع أزدراء زملائه" .. لهذا أدركت أور أن الرؤية القدرية للموسيقى تمثل حاجة البدء ليكون، فكانت أور تستحضر أحلامها بالموسيقى مثلما يستحضر الكهنة آلهتهم المميزين.

اليوم أور ترتقب الى من يلتفت إليها بعد كل هذا الاهمال المتعمد وهي تنتظر يدا خيرة لتقيم على ترابها المقدس أحتفاء حضاريا كل عام، يستعيد فيه المحتفون تلك القيم العظيمة التي منحت البشرية أضاءات النور الأولى إلى مدرك الوعي وكانت سباقة في كل شيء، وهذا يتطلب جهداً عالميا خاصا تشارك به كل المنظمات الوطنية والدولية وأهمها وزارة الثقافة العراقية ومنظمة اليونسكو التي تعنى بتراث الشعوب والحفاظ عليه وسيكون على علماء الآثار والمعرفيات الفكرية الأخرى أن يأتوا إليها هنا من شتى أنحاء العالم لتقيم لهم أور كرنفالاً للثقافة والفن وكل الإبداعات الإنسانية التي تسهم في إرساء السلام والعدل بين شعوب الأرض كافة مادامت هي البدء. وأن يعنى بالمكان جيداً إذ لاتحوي المدينة اليوم أي مرفق سياحي.

ورغم أنها استقبلت منذ بدء الألفية الثالثة وحتى إطلاق صافرة العدوان الأمريكي آلاف الأوربيين الذين فرض عليهم أن تكون زيارتهم لأور يوماً واحداً لعدم وجود أماكن مبيت لائقة ومرافق خدمية. لهذا فيمكن للمكان أن يكون منطقة استثمار جيدة تعود بالفائدة إلى اقتصاد البلد والمدينة الشيء الكثير، فحتماً هذه الأرض تستحق لتكون ملتقى لثقافات الأرض كلها.

■■■

١٢

أوغاريت..
وسحر الشرق القديم

أوغاريت مدينة سورية قديمة على مسافة ١٢ كلم إلى الشمال من مدينة اللاذقية، على تل رأس شمرة وميناؤها اليوم هو " مينة البيضا".

عرف اسم " أوغاريت" لأول مرة إثر اكتشاف نصوص في "تل العمارنة" في مصر سنة ١٨٨٧م. وتبين من الحفريات التي جرت في رأس شمرة سنة ١٩٢٢ أنها كانت عاصمة مملكة صغيرة ازدهرت في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، وقد حكمتها عائلة مالكة تعاقب منها على العرش ١٢ ملكا. ووصفت هذه المملكة بأنها "مملكة الباحثين عن التجارة والجمال".

كانت أوغاريت تضم في عصر ازدهارها ستين ألفاً من السكان، يتكلمون بسبع لغات منها لغتهم الأصلية الكنعانية السامية ويعبدون آلهة عديدة.

وكان فيها قصر ملكي من أفخم القصور في الشرق الأدنى، وهو مطلي بالفضة، ويدافع عنه برج ضخم ذو جدران كثيفة. كما كان في المدينة معبدان، وطرقات معبّدة، ودور جميلة للسكن، ومكتبة فخمة في القصر الملكي.

كانت أوغاريت الطريق التجارية إلى مصر وبابل، ومركز بيع الأخشاب والأقمشة للبلدان المجاورة. وكان مرفؤها مركزاً مهمّاً للتجارة مع البلاد الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، وكان يعج بالبضائع من جميع الأنواع. وقد امتدح الشاعر اليوناني هوميروس في إلياذته الأواني التي تصنع في أوغاريت، فقال: "لا توجد آنية أخرى تنافسها في جمالها".

اكتشفت فيها أقدم أبجدية في العالم كتبت بها لغة أوغاريت، وهي تشبه اللغة العربية، وحروف هذه الأبجدية لا تزيد على ثلاثين حرفا. والكلمات الأوغاريتية التي عرفت حتى الآن أكثر من ستمائة كلمة، وهي تشبه العربية. ووجد ت في مكتبة القصر الملكي في أوغاريت لوحات ورُقَمٌ فخارية مكتوبة باللغات: الأكادية، والأوغاريتية، والحورية، والقبرصية وغيرها، فيها معلومات مهمة عن التنظيم السياسي في مملكة أوغاريت وتشريعاتها وأنظمتها، وعلاقاتها بجيرانها. كما وجدت في هذه اللوحات نصوص دينية وقانونية ووصايا، وتحارير، ومعاهدات، وأبحاث طبية وبيطرية، ونصوص سومرية وبابلية، وهيروغليفية وحثية. ووجدت أيضاً معاجم لغوية وغير ذلك، مما ألقى ضوءاً على العلاقة بين الأدب الكنعاني والعبراني.

وقد قيل إن كلمة أوغاريت مشتقة من " أوغار" السورية، وهي " أوكار" بالفارسية، و"عقار" بالعربية، وهي تعني " رقعة من الأرض أو الحقل".

وأوغاريت مدينة أثرية قديمة وقد بينت الحفريات والأسبار الأثرية أن موقع رأس شمرا يشمل على حوالي ٢٠ سوية أثرية (استيطان) تعود حتى العام ٧٥٠٠ ق.م. إلا أنه مع حلول الألف الثاني قبل الميلاد تضخم الاستيطان في الموقع لتتشكل ما عرف باسم أوغاريت هذا الاسم الذي كان معروفاً قبل اكتشافها - صدفة في العام ١٩٢٨ م- من خلال ذكرها في نصوص مملكة ماري، حيث تذكر النصوص زيارة الملك زميري ليم في العام ١٧٦٥ ق.م لأوغاريت، ومن رقيم آخر عثر عليه أيضاً في وثائق ماري، وهو عبارة عن رسالة من ملك أوغاريت إلى ملك يمحاض بعاصمتها حلب، يرجوه فيها أن يطلب من ملك ماري (مملكة ماري) على نهر الفرات في سوريا أن يسمح له بزيارة قصر ماري الذي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت، وإن دل هذا على حرص أغاريت على إقامة علاقات طيبة مع ملك ماري فإنه يدل في نفس الوقت بأنه يحرص أن تكون هذه العلاقة عن طريق وبمعرفة ملك يمحاض القوي. وكذلك ورد ذكر أوغاريت في النصوص الحثية المكتشفة في الأناضول وسورية ورسائل تل العمارنة المكتشفة في مصر. وتبين من الحفريات أن أوغاريت كانت عاصمة لمملكة بلغت مساحتها ٥٤٢٥ كم

مربع تقريباً في القرنين الخامس عشر والثاني عشر قبل الميلاد وهي فترة ازدهار المملكة.

يُقدَّر عدد سكان مدينة أوغاريت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بحوالي ٨٠٠٠ نسمة وذلك اعتماداً على بقايا البيوت فيها، أما سكان باقي المملكة فيقدرون بـ ٣٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ نسمة، موزعين على ١٥٠-٢٠٠ قرية ومزرعة تابعة للعاصمة. وتبين النصوص وجود سكان حوريين وحيثيين وقبارصة في العاصمة أوغاريت، كذلك بعض الجبيليين وأرواديين والصوريين والمصريين.



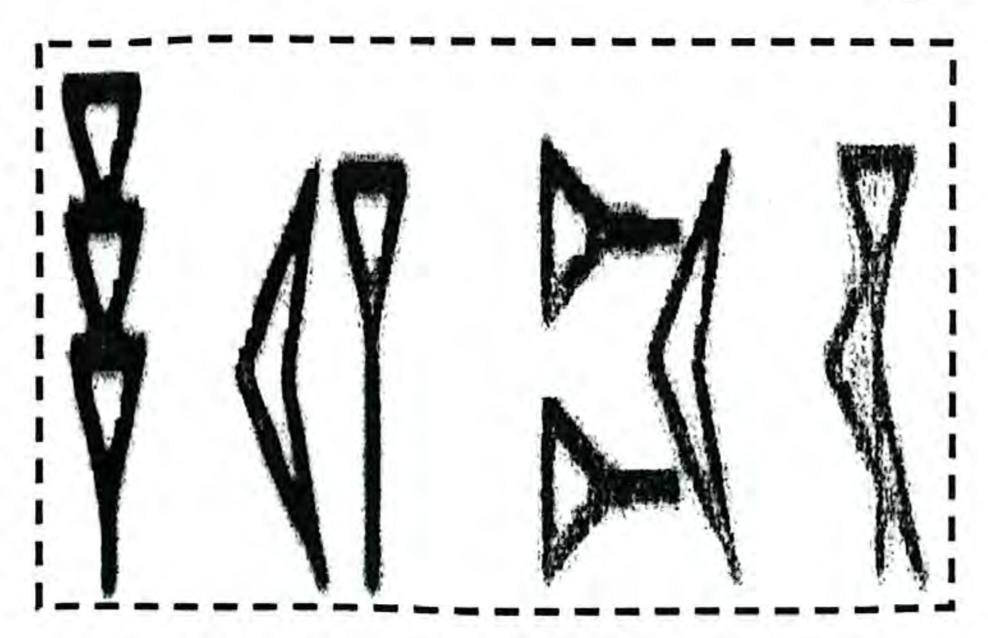
مدخل من السور لحماية القصر في مدينة أوغاريت الأثرية

كما يشير عالم المصريات النمساوي " مانفريد بيتاك " إلى أن الهكسوس في حوالي ١٦٠٠ ق.م كانوا على علاقة وثيقة مع الأوغاريتيين وذلك من خلال ما بينته الحفريات في اوريس عاصمة الهكسوس، وقد أشار العديد من المصادر

القديمة إلى أوغاريت وحضارتها ومدى تقدم سكانها وازدهار الصناعة والتجارة مع حضارات البحر المتوسط وكانت لأوغاريت أهمية تجارية كبيرة.

أبجدية أوغاريت لغة وكتابة : هي أكمل الأبجديات فى العالم القديم وأغناها واكثرها شمولا تحتوي على ٣٠ حرفا، وبسبب التقدم والازدهار التي عاشته أوغاريت فكانت لغتهم من أهم اللغات.

وبجانب لغتهم الأساسية استخدم سكان أوغاريت لغات عديدة ووضعوا لذلك قواميس متعددة اللغات، ولكن اللغة الرئيسية التي اكتُشفت في رسائلهم هي لغة سامية خاصة بهم تسمى بـ"أوغاريتية" . وبجانب اللغة الأوغاريتية كانت هناك في المملكة لغات أخرى مستخدمة مثل اللغة الأكادية التي استخدمها سكان المملكة في تعاملاتهم مع بعض المناطق، كما كانت العادة في جميع أنحاء الشرق الأوسط في ذلك الحين.



أحرف أوغاريتية

أثار تحليل اللغة الأوغاريتية الخلاف بين اللغويين إذ لا تنتمي إلى أية مجموعة من مجموعات اللغات السامية التي كانت معروفة قبل اكتشاف أوغاريت فقد كانت لغة وأبجدية جديدة، تلائم في الكثير من مميزاتها اللغات المصنفة ضمن الفرع الشمالي الغربي للغات السامية "لغات كنعانية" ولكن بعض

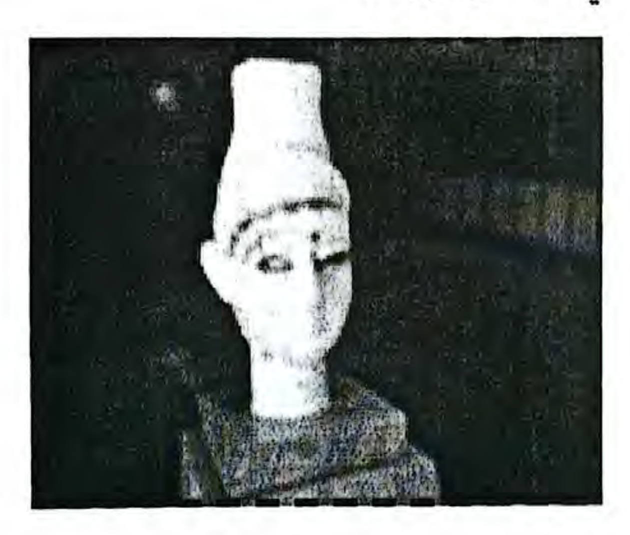
مميزاتها تلائم فروعا أخرى من تصنيف هذه اللغات. وقد اكتشفت في أطلال أغاريت نصوص باللغات أخرى، منها لغات غير سامية شاعت في المنطقة مثل الحورية، والحثية، واللوفية، والسومرية، والمصرية والمينوية، مكتوبة بخمسة أنواع من الخطوط: المسماري البابلي، الهيروكليفي المصري، الهيروكليفي اللوفي والنقوش المنيوية. أما اللغة الاوغاريتية نفسها فكانت تكتب بـ أبجدية خاص بها فقد وجدت مكتبة القصر الملكي التي تحتوى على كم كبير من النصوص بـ اللغة الأوغاريتية.

تبنى أدباء وكتاب المدينة كيفية الكتابة المسمارية على ألواح الطين ومن المحتمل أنهم تبنوا كذلك فكرة الأبجدية التي كانت قد ظهرت في المناطق جنوب أوغاريت في داخل سوريا، وهي الأبجدية الكنعانية الأولية (بروتو- كنعانية). فضمت الأبجدية الأوغاريتية على ٣٠ رمزا مسماريا ولكن كل رمز أشار إلى حرف ساكن واحد وليس إلى مقطع أو كلمة. باختلاف عن اللغات الكنعانية احتفظت الأوغارتية على أكثر من الحروف السامية القديمة ولذلك كانت أبجديتها أغنى بالرموز والدلالات. أما ترتيب الرموز فكان يشابه ترتيب الحروف في الأبجدية البروتو-كنعانية.

في مكتبة القصر الملكي في أوكاريت وجدت لوحات وَرُقُم فخارية مكتوبة باللغات: الأكادية، والأوكاريتية، والحورية، والحثية، والقبرصية وغيرها من لغات سورية القديمة، فيها معلومات مهمة عن التنظيم السياسي في المملكة وتشريعاتها وأنظمتها، وعلاقاتها بجيرانها. كما وجدت في هذه اللوحات نصوص دينية وقانونية ووصايا، وتحارير، ومعاهدات، وأبحاث طبية وبيطرية، والعلاقات التجارية وغير ذلك، وكذلك نصوص سومرية وبابلية، وهيروغليفية وحثية.

وما يميز حضارة أوغاريت ويدل على مدى التطور التي وصلت اليه المعاجم اللغوية التي اكتشفت ومخطوطات التفاسير وغير ذلك، مما ألقى ضوءاً على العلاقات والآداب بين أوغاريت وبين أداب الحضارات الأخرى مثل الأدب الكنعاني وما ورد من نصوص التناخ بهذا الخصوص.

وتحتل أوغاريت موقعا متقدما على خارطة الحضارات القديمة للأهمية التي تتمتع بها وما قدمته من معطيات وما تم الكشف عنه من آثار لمدينة جيدة التخطيط والمباني ومدى تقدم العلوم فيها، وكشفت الحفريات في العاصمة أوغاريت العديد من الطرقات المرصوفة، والدور والأبنية الجميلة للسكن والمباني الإدارية والحكومية، ومكتبة فخمة في القصر الملكي، الذي يعتبر من أفخم القصور في الشرق القديم، بمساحة قدرت بـ ١٠٠٠٠ متر مربع طليت بعض أجزائه بالفضة، ويدافع عنه برج ضخم ذو جدران كثيفة، كما كشفت أعمال التنقيب (للعام ١٩٧٥ م) في رأس ابن هاني، على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من مدينة أوغاريت تم الكشف عن قصرين ملكيين، في شمال وجنوب الموقع، وكذلك مجموعة من المدافن والقبور في الجهة الجنوبية،وعلى خلفية الأرشيف الكتابي الكبير الذي وجد في القصر الشمالي والذي يؤرخ في عهد الملك اميشتامارو الثاني (١٢٦٠- ١٢٣٥ ق.م) يرجح كونه مقرَّ الحكم الملكي (البلاط الملكي) الثاني لملك أوغاريت.



رأس تمثال أميرة أوغاريتية

كانت أوكاريت او أوغاريت مركزا تجاريا هاما بين منطقة الأناضول ومن خلفها مناطق اليونان في الشمال والغرب ووسط أوروبا، ومناطق سوريا الداخلية وشرق الهلال الخصيب في الشرق وكذلك مصر في الجنوب فكانت مدينة تجارية بامتياز ولها سمعتها وقوتها التجارية، واشتهرت أوغاريت بالصناعة

فكانت مركز إنتاج وبيع الأخشاب وصناعة المعادن والأواني المشغولة بحرفية ودقة عالية والمنسوجات والأقمشة والأصبغة المستخلصة من صدف (الأرجوان)، وكذلك من الجانب الزراعي فقد عرفت عن مملكة أوغاريت غناها بالمنتجات الزراعية مثل - الزيتون وصناعة وعصر زيت الزيتون والقمح والشعير وبعض المنتجات الزراعية التي كانت تصدرها للمناطق المحيطة. أو عن طريق ميناء أوغاريت حيث كان مرفؤها- وهو منطقة المينا البيضا حالياً في اللاذقية - كان مركزاً مهما للتجارة يعج بالسفن وبالبضائع من جميع الأنواع.

أما الديانة الأوغاريتة هي امتداد لديانة كنعانية كما تبين الأساطير الميثولوجية الواردة في النصوص الدينية والملاحم ونصوص الشعائر والعبادات وكذلك من وجود عدة معابد أهمها معبدان على الأكروبول (مرتفع المدينة)، بينهما بيت الكاهن الأكبر، معبد الإله إل (ءل - ءيل - إيل)، (بيت إيل) وربما الإله دجن (داجان، داجون) معه، في الجهة الجنوبية الشرقية والذي يرجع تاريخ بنائه بـ ٢٠٠٠ ق.م، ومعبد الإله بعل (بيت بعل) في الجهة الشمالية الغربية وهو أحدث في حوالي ١٤٠٠ ق.م وكان للمعتقدات طقوسها وشعائرها .

وقد أدت مجموعة عوامل على رأسها مهاجمة "شعوب البحر" لمنطقة الساحل السوري الكنعاني إلى توقف الحياة في أوكاريت في العام ١١٨٥ قبل الميلاد تقريباً.

أما ملوك وحكام أوغاريت فهذه أسماء بعض حكام أوغاريت في الفترة التي سبقت دمارها، بالأعوام التقريبية :

- اميشتامارو الأول ١٣٥٠ ق.م
- نقم اددو الثاني ١٣٥٠- ١٣١٥ ق.م
- ار-هالبا ١٣١٥- ١٣١٣ ق.م
- نقم إبا ١٣١٣- ١٢٦٠ ق.م

- اميشتامارو الثاني ١٢٦٠- ١٢٣٥ ق.م

- إبيرانو ١٢٣٥- ١٢٢٠ ق.م

- نقم اددو الثالث ١٢٢٠- ١٢١٥ ق.م

- اموراپي ١٢١٥- ١١٨٥ ق.م

كشفت النصوص المسمارية المكتشفة حديثا في مملكة أوغاريت العائدة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد عن اهتمام سكان رأس شمرة أوغاريت في الساحل السورى بتربية الخيول الأصيلة واستيراد خيول أخرى من كركميش إحدى ممالك سورية الداخلية.

وعثر على رسالتين ضمن أرشيف القصر الملكى تتضمن كل منهما تبادل الأحصنة وشراء أحصنة وتؤكد وجود التجارة المنتظمة للخيول الجيدة بين المملكتين أوغاريت وكركميش.

ومن بين الرسالتين رسالة لابن ملك أوغاريت يدعى تابى تطالب بإلحاح تسديد ثمن الحصان الذى اشتراه وعثر على الأخرى فى منزل التاجر اورتينو المكتشف فى أوغاريت.

وذكر الباحثان فلورنس لايا وكارول روش القارئان لنص الرسالتين..

إن أوغاريت كانت تصدر الخيول إلى الغرب وبخاصة إلى قبرص وإن أوغاريت كانت من أوائل الممالك التى تاجرت بالخيول.

ووجدت نصوص بيطرية أخرى تؤكد إنشاء بما يعرف بالإصطبلات الملكية للعناية بالخيول وتربيتها وتدجينها من قبل مروضين ومعلمين وسائسين.

كما وجدت عشرة نصوص أخرى من وثائق القصر القانونية والإدارية تتعلق بإدارة عملية تربيتها وتجارتها واسماء شخصيات مهمة كان لها اهتمام كبير بالخيول وأنواعها.

وقدمت كل هذه الوثائق الكتابية المسمارية المذكورة دلالات واضحة لايرقى

اليها الشك على دور ملوك أوغاريت واهتمامهم بالخيول الأصيلة والتى كانت تتبع للسلطة الملكية.

زودتنا نصوص أوغاريت بوثائق هامة عن الحياة الفكرية والثقافية هذه النصوص التي كتبت في أوغاريت تتناول موضوعات تتعلق بمختلف جوانب الحياة السياسية والميثولوجية والأخلاقية والفلسفية والفنية والاقتصادية والحقوقية والعلمية وهناك الرسائل المتبادلة بين ملوك أوغاريت ومعاصريهم ملوك كركميش وجبيل وآمور والحثيين ومصر وقبرص وغيرها مما يدل على علاقات دبلوماسية متطورة شهدها عصر أوغاريت وهناك نصوص تتحدث عن عالم الآلهة الكنعانية التي تجسد قوى الطبيعة وهي تحمل فكراً ميثولوجياً ذا طابع إنساني وتذكر الأرباب إيل وآثيرا وبعل والرب موت الذي يجسد الجفاف وعنان ربة الخصب وكوثار إله الصناعة ورشف وحورون ودجن وغيرها إضافة الى نصوص تدل على فكر أخلاقي وإنساني تتعلق بالتعليم والمعلمين والتواضع والكرم ونصائح أخلاقية منها:

- لا تسخر من إله لم تبتهل إليه.
- أطعم اليتيم.
- أنقذ المظلوم.
- الدعوة إلى الرحمة والعطف.
- احترام الأم والأسرة والزواج والحرية وغيرها الكثير.

ويعد الساحل السوري من أقدم المناطق المأهولة منذ أقدم العصور حيث عثر في أماكن مختلفة منه على مواقع وأوابد أثرية تحدثت عنها الوثائق التاريخية المكتشفة والتي يعود تاريخها إلى العصور القديمة وأثبتت الوثائق أن مدينة أوغاريت الأثرية اكتشفت عام ١٩٢٨م مصادفة عندما اصطدمت سكة محراث فلاح في قرية رأس شمرا بحجارة منحوتة ضخمة تبين أنها سقف لمدفن أثري عائلي.

وذكر الباحث جمال حيدر مدير الآثار باللاذقية أنه لدى وصول الزائر إلى موقع أوغاريت يشاهد البوابة الكبيرة التي تتوسط التحصينات في الجهة الغربية وهي المدخل الخاص بالقصر الملكي الذي تبلغ مساحته نحو الهكتار ويتألف من فسحة مبلطة بأحجار جصية وداخل الرواق مصاطب معمرة بالحجر لاستراحة الزوار القادمين لمقابلة الملك ويضم القصر الملكي تسعين غرفة إضافة إلى صالات الاستقبال والأجنحة الملكية التي كانت تقوم في الطوابق العليا ومكاتب الموظفين وجناح السجلات الإدارية والمكتبة التي اكتشف فيها عدد كبير من الرقم الفخارية ومن أهمها أبجدية أوغاريت وهناك مجموعة كبيرة من الآبار وخزانات المياه وأقسام السكن والمدفن الملكي المغطى بسبعة ألواح حجرية.

وفي الجهة الشمالية من القصر يقع القسم العسكري الذي يضم سكن الجنود ومرابط الخيل والاصطبلات ويمتد إلى الشرق منه السوق الصناعية والتجارية والمحترفات المتعددة وقد كشفت فيه لقى أثرية تدل على الرقى الصناعي في أوغاريت وخاصة الصناعات الدقيقة كصياغة الذهب والفضة وتطريق المعادن وأهمها البرونز ومن ثم نصل إلى حي المساكن الفخمة الذي يمتاز بمنازله الواسعة وشوارعه العديدة.

ويضم هذا الحي منزل الكاتب والأديب ربانو الذي اكتشف في منزله مكتبة ضخمة فيها أرشيف كامل من الوثائق الكتابية تضم موسوعات بأسماء الطيور والأسماك والأوزان والأقمشة ولوائح بأسماء الآلهة الأوغاريتية وقواميس باللغة الأوغاريتية وغيرها.

وتتفرع من هناك مجموعة من الأحياء السكنية الشعبية حتى نصل إلى القسم العالي من التل الأكروبول ويرتفع معه معبدا بعل ودجن.

وأشار إلى أن مباني أوغاريت الحجرية المتناسقة والمتفاوتة المساحات والحجوم تدل على براعة وفن المهندسين المعماريين الفريدين من نوعهم في الشرق الأوسط لأنها شيدت ضمن مخططات مدروسة لتقاوم عوامل الطبيعة من حر الصيف وبرد الشتاء والكوارث والزلازل وقد راعت هذه العمارة

الاستفادة من المياه من خلال قنوات مسطحة تصل إلى البيوت ثم قنوات تحت الأرض لتصريف المياه المستعملة إلى خارج المدينة وتختلف عمارة المنزل في أوغاريت تبعاً للحالة المادية والمرتبة الاجتماعية لصاحبه لكننا نعرف أن المنزل الأوغاريتي بشكل عام يتألف من طابق مبنى من الحجارة والأخشاب وله مدخل مبلط بالحجارة يصل إلى صالون وغرفة أو غرفتين وهذا الطابق يخصص عادة للأشغال اليومية كممارسة حرفة معينة ويضم أيضاً المستودعات المخصصة لحفظ المؤونة والمواد والمطبخ والحمام والبئر التي توفر المياه والأجران .

كما يضم الطابق الأول المدفن العائلي ثم الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الأعلى وهو من الحجر أو الخشب ويتألف من غرف النوم والمكتبات التي احتوت على الرُّقُمِ الكتابية ولا يدخله إلا أهل المنزل أما الطابق الأرضي فهو مخصص للخدم والحراس والعمال.

وتضم الجهة الجنوبية من أوغاريت منزلاً يعد من اهم المنازل الأوغاريتية شيد من الحجارة وفيه عدة غرف وصالون إضافة إلى مدفن عائلي تم حفره في أرضية إحدى الغرف وتعود ملكية هذا المنزل إلى تاجر أوغاريتي اسمه أورتينو كانت تربطه علاقة مميزة مع الأسرة الملكية الحاكمة في أوغاريت وقد دل على ذلك اكتشاف مجموعة كبيرة من الرقم الفخارية التي تحمل كتابات محررة باللغة كما يوجد في المدينة أكثر من مئتي سرداب للدفن يعود تاريخها إلى عصري البرونز الوسيط والحديث ٢١٠٠-١٢٠٠ قبل الميلاد وجدت معظمها تحت أرضيات البيوت وتؤكد الدراسات أن متوسط توزع تلك المدافن هو مدفن واحد لكل منزلين ويتألف المدفن من مدخل على شكل درج نازل نطل منه على البهو الجنائزي مكان الدفن وهو عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل معمرة بالحجر المنحوت تتوزع في جدرانها طاقات مخصصة لوضع الأسرجة والتقدمات الجنائزية وتضيق جدران المدفن باتجاه السطح ويغطى عادة بألواح حجرية منحوتة وهى بمثابة القفل ويغلق المدفن بالحجارة ويفتح عند الدفن والمناسبات الدينية.

أما في الجهة الشرقية من المدينة فوق الأكروبول تم الكشف عن معبدين يرجع تاريخ إقامتهما إلى عصر البرونز الوسيط بين٢١٠٠-١٦٠٠ قبل الميلاد لكنهما بقيا قائمين حتى دمار مملكة أوغاريت في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد فكان المعبد الأول بعل مكرساً لعبادة الرب بعل وهو لايزال محافظاً على بعض أجزائه مبنى فوق مصطبة كبيرة مستطيلة الشكل مدخله من الجهة الجنوبية عبر بوابة كبيرة تؤدي إلى ردهة ثم إلى المذبح الذي يتقدم الهيكل أو قدس الأقداس ومن الخارج يوجد سلم حجرى يؤدي إلى سطح المعبد وكان بحكم موقعه يشاهد من مسافة بعيدة فى البحر فكان نقطة علامة للبحارة القادمين إلى ميناء مينة البيضا.

ومن خلال البقايا الموجودة داخل المعبد وخاصة المراسي الحجرية لمراكب الصيد والتجارة نستدل على أن المراسي كانت تقدم نذوراً وهدايا من قبل البحارة وهذا يظهر أن البحارة كانوا يقدسون هذا المعبد بشكل خاص ويعبرون عن شكرهم للإله بعل الذي يحميهم من أخطار البحار.

أما المعبد الثاني فهو معبد دجن الذي تم تشييده على أرض مستطيلة الشكل يماثل في مخططه معبد بَعْل وهو مجاور له على بعد ستين متراً شرقا ويتألف من المذبح والهيكل ثم السور والرواق والسلم الحجري الذي يصل إلى الطابق العلوي ثم إلى السطح ولم يبق من هذا المعبد إلا عدد من النصب الحجرية المدونة باسم الإله دجن المعروف لدى الأوغاريتيين بإله الحصاد والحبوب وواهب الأرزاق لذلك مجده الأوغاريتيون وبنوا له معبداً وقدموا له الضحايا والنذور.

هذه أوغاريت الحاضرة الجاثمة بقوتها على أرض تحدثت لُقَاها الأثرية ووثائقها المكتشفة بأنها من أقدم الحضارات الإنسانية والعمرانية وستبقى أوابدها شامخة على مدى العصور.

■ ■ ■

١٣
طروادة.. حرب عالمية في العالم القديم !!

طروادة مدينة قديمه تقع في غرب تركيا في منطقة الأناضول، ازدهرت هذه المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اشتهرت قصة حصان طروادة الخشبي الذي اختبأ داخله الجنود وتسللوا ليلا لفتح أبواب المدينة أمام جيوش الملك مينلاوس بقيادة أخيه أجاممنون. الذي حاصر المدينة المنيعة ردحا من الزمن يقارب العشر سنوات وما كان من الممكن إسقاطها إلا بالخدعة. و قد تم أكتشاف مدينة طروادة على تسع طبقات من قبل عالم الآثار هاينريش شليمان .

كانت طروادة منذ بداية نشأتها حصنًا منيعًا حيث كان يعيش بين جدرانها زعيم مع أسرته وخدمه، في عدد من البيوت القليلة الكبيرة المحاطة بأسوار متينة. وكان الفلاحون أرباب الحرف والتجار وصائدوالأسماك يعيشون في الخارج على منحدرات التل أو في السهل. وقد دمرت طروادة الأولى بفعل حريق.

وكشف علماء الآثار النقاب عن آثار تِسْع مُدُن في موقع طروادة. وقد شُيدت كل مدينة لاحقة فوق حطام المدينة التي سبقتها. ويعتقد علماء الآثار أن المدينة السابعة هي طروادة الأسطورية، الموصوفة في الإلياذة، والأوديسة. وربما تكون تلك المدينة قد شُيِّدت أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد وأُحرقت ودُمِّرت في منتصف القرن نفسه، بوساطة غزاة قدموا من أرض اليونان. و قدكشفت خرائب طروادة عن آثار عمرها حوالي ٥,٠٠٠ سنة.

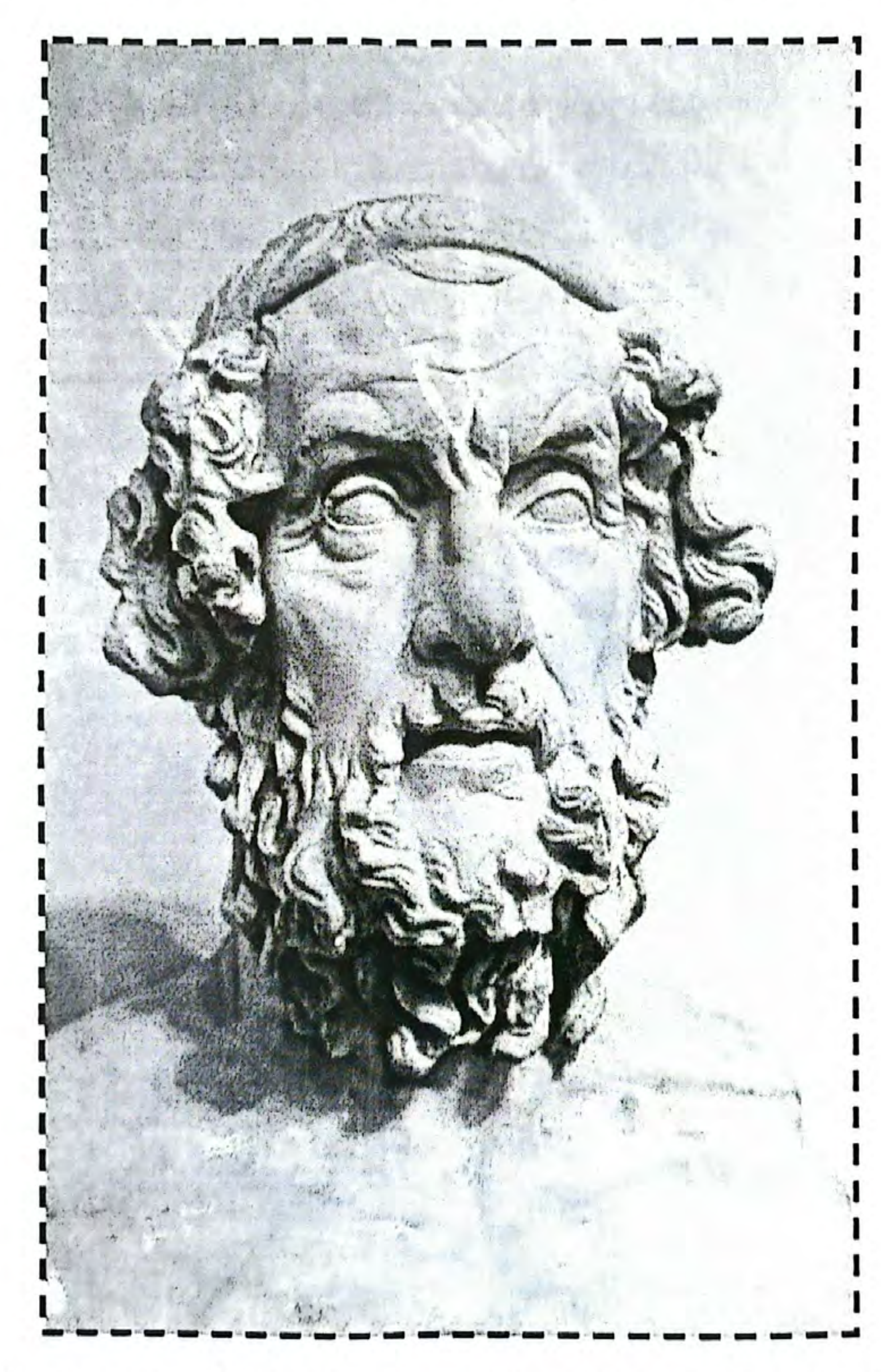
وقد ذاعت شهرة طرْوادة من خلال أساطير الإغريق الأوائل. وتُدعى أيضًا

اليُوم. وتَرْوي الإلياذة والأوديسة، وهما ملحمتان تُنْسَبان إلى الشاعر الإغريقي هوميروس (هومر)، وكذلك الإنيادة، الملحمة التي كتبها الشاعر الرومانيّ فيرجيل، قصة عن طروادة، قد لا تكون صادقة إلا بشكل محدود. وقد سُمِّيَتْ المدينة باسميها نسبة إلى إلوس، مؤسسها الأسطوري، وتروس والد إلوس.



طروادة الأسطورية مدينة كبيرة كان يحكمها الملك بريام. ويُروَى أن باريس ابن الملك حُكِّم في منافسة جمال بين المعبودات الإغريقية هيرا وأثينا وأفروديت، فاختار للفوز أفروديت إذ كانت قد وعدته بأن تزوجه أجمل امرأة في العالم. قام باريس، بعد هذه المنافسة، بزيارة منيلاوس، ملك أسبرطة، فوقع في غرام زوجته هيلين، التي كانت قد عُرفت بأنها أجمل امرأة في العالم. فأخذ باريس هيلين معه إلى طروادة، مما أغضب منيلاوس. وأقسم شعب الإغريق، الذين يُسمِّيهم هوميروس الآخيين، على الانتقام من باريس، ومن شعب طروادة. وهكذا انطلقت

حملةً، قادها أغاممنون أخو منيلاوس، وضمت إلى جانبه كلاً من أخيليوس (أخيل) وأوديسيوس، (يوليسيس كما في اللاتينية) وكثيرًا من أبطال الإغريق الآخرين.



هوميروس، شاعر الإغريق العظيم الذي جعل طروادة إحدى أشهر مدن العالم القديم عندما خلدها في رائعته " الإلياذة "

سقوط طروادة اشتهر من خلال الأساطير. وقد اختبأ جنود الإغريق داخل حصان خشبي ضخم، وقام الطرواديون الفضوليون بسحبه إلى داخل المدينة. ثم تسلل الإغريق خارجين من جوف الحصان وهاجموا طروادة.

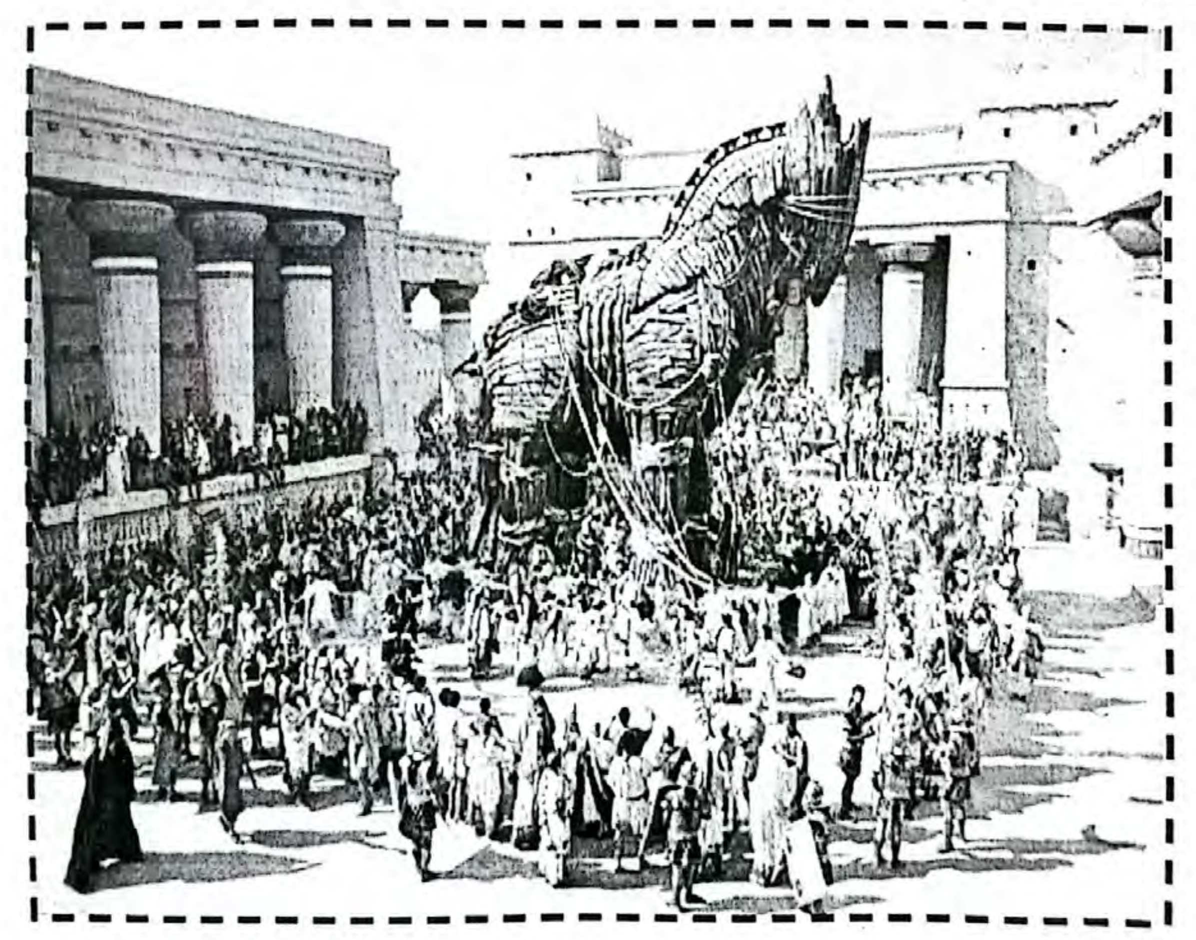
حاصر الإغريق طروادة مدة عشر سنوات إلا أنهم أخفقوا في الاستيلاء على المدينة التي كانت محصَّنة بأسوار حجرية عالية. وأخيرًا أمر أوديسيوس العمّال بصنع حصان خشبي ضخم، اختبأ في داخله عدد من الجنود الإغريق، بينما تظاهر بقية الإغريق بالإبحار بعيدًا، تاركين الحصان قائمًا خارج أسوار المدينة.

أثار الحصان فضول الطرواديين، فسحبوه إلى داخل المدينة على الرغم من تحذيرات الكاهن الطروادي لاوكون لهم بألا يفعلوا ذلك. وفي تلك الليلة تسلل الجنود الإغريق خارجين من جوف الحصان، وفتحوا بوابات المدينة أمام بقية القوات الإغريقية، لدخول طروادة. وهكذا نفذ الإغريق مذبحةً ذهب ضحيتها شعب طروادة، ونهبوا المدينة وأحرقوها. وقد نجا إينياس، بطل ملحمة الإنيادة لفيرجيل، إلى جانب عدد قليل من الطرواديين، من هذه المذبحة بينما قُتل باريس في هذه الحرب وعادت هيلين إلى منيلاوس.

وفيما عدا هذه الأساطير فإن ما هو معروف عن تاريخ طروادة قليل وعلماء الآثار يعرفون أن طروادة أسِّسَتْ في أوائل العصر البرونزي، الذي ابتدأ في آسيا الصغرى نحو ٣٠٠٠ق.م. وتقوم المدينة على سهل مرتفع بسهل خصيب، يقع في شمال غربي تركيا الحالية وكانت قريبة من الطرف الجنوبي للمضيق المعروف الآن باسم الدردنيل، الذي كان يسمى هيليسبونت. وقد اكتشف علماء الآثار تسع مدن بنيت في موقع طروادة، كانت كل مدينة تالية منها تُبنى على أنقاض المدينة التي سبقتها.

كانت كلٌّ من طروادة الثانية وطروادة السادسة، بصفة خاصة، مدينتين غنيتين. فقد اشتغل الطرواديون بالزِّراعة وبتربية الأغنام وبإنتاج السلع الصوفية، كما تاجروا مع المسِّينيين الذين كانوا يعيشون في بلاد الإغريق، ومع شعوب أخرى تعيش على امتداد سواحل آسيا الصغرى المطلة على بحر إيجة.

ولا يعرف العلماء إلا القليل عن حرب طروادة الحقيقية، إذ وجد علماء الآثار دلائل على أن الإغريق ربما كانوا قد هاجموا طروادة، ودمروها في حملة مماثلة لتلك التي وصفتها الإلياذة. إلا أن سبب تلك الحرب ظلّ غير معروف. ويَعْتَقِدُ علماء اليونان أن طروادة سقطت حوالي العام ١١٨٤ق.م، بينما يظنّ كثير من علماء الآثار أن المدينة السابعة التي قامت على موقع طروادة هي المدينة التي كُتِب عنها في الأدب الإغريقي القديم. ويَعْتَقِدُ هؤلاء العلماء أن هذه المدينة قد دُمِّرت نحو عام ١٢٥٠ق.م.



حصان طروادة

موقع طروادة يضم بقايا تسع مدن متتالية والأسوار الحجرية التي تُرى في الصورة من طروادة السادسة، التي دمرها زلزال حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وربما تكون هذه طروادة التي ورد ذكرها في الأسطورة القديمة.

طروادة الأثرية. كان أول عالم آثار يقوم بدراسة طروادة ألمانيّا يدعى هنريش

شليمان، بعد أن لاحظ أشخاص آخرون، وجود كومة ركامية صغيرة على بعد ستة كيلومترات من الدردنيل، وقد بدت مناسبة لأن تكون هي الموقع الجغرافي لطروادة كما وصفتها الإلياذة. وكانت كومة الركام هذه تسمى هِسارْليك.

وهكذا شرع شْلِيمان، سنة ١٨٧٠م، بالحفر هناك. فوجد دلائل على وجود عدة مدن بُنيت في هذا الموقع، على امتداد فترة زمنية طويلة، كما اكتشف عند نهاية الحفريات خرائب مدينة قديمة ذات أسوار ضخمة، وبيوتًا مبنيةً بناء حسنًا، وكنوزًا مخبأة من ذهب وفضة. واعتقد شلِيمان، خطأ، أن هذه المدينة، التي سمّاها طروادة الثانية، هي طروادة نفسها التي وصفها هوميروس.



وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، قام عالم الآثار الألماني فِلْهلم دُوربفلِد، وكان مساعدًا لشلِيمان من قبل، بإجراء حفريات أخرى في طروادة. وكان هو الباحث الأول الذي تَعَرَّف على وجود تسع مدن كانت تقع في الموقع

نفسه. واعتقد دورْبفِلد أن المدينة السادسة منها هي المدينة نفسها التي ورد ذكرها في إلياذة هوميروس. وكانت هذه المدينة، التي أُطلق عليها اسم طروادة السادسة، أكبر من سابقاتها، وكانت محصنةً بأسوار عالية، وبيوتها فسيحة ومستطيلة الشكل، وقد تكون قد بنيت حول قصر مركزي.

في عام ١٩٣٢م ابتدأ كارل بليجن، وهو عالم أمريكي من جامعة سنسناتي بأوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية ابتدأ حملة بحث جديدة في طروادة.

واستمرت دراسته مدة ست سنوات، أكد إثرها النتائج التي كان دُوربفِلد قد توصل إليها، باستثناء أن بليجن اعتقد أن المدينة السابعة هي طروادة الأسطورية.

فوفقًا لبليجن، مثّلت طروادة السادسة، مرحلة رئيسية من مراحل تطور المدينة، على الرغم من أنها لم تكن طروادة المذكورة في الأساطير الإغريقية.

وقد تميزت هذه المرحلة بقدوم مهاجرين إليها شاركوا المسِّنيين في اليونان في كثير من خصائصهم الحضارية. وقد دُمِّرت طروادة السادسة نتيجة زلزال وقع في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. أما المدينة التالية التي يُطلق عليها علماء الآثار اسم طروادة السابعَة، فكانت ذات بيوت غير مُتْقنة ومتزاحمة، كما كانت أقلّ ازدهارًا من المدن الطروادية التي سبقتها. وقد نُهبت طروادة السابعة وأحرقت.

وعلى الرغم من أن بليجن كان يعتقد بأن طروادة السابعة هي المدينة الأسطورية، إلا أن علماء الآثار لم يتمكنوا من إثبات ما إذا كانت هذه المدينة هي المدينة القديمة نفسها.

وخلال الفترة من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، لم يعش أحد في موقع طروادة،. بينما قام بعض المستوطنين الإغريق، في نحو القرن الثامن قبل الميلاد، ببناء قرية صغيرة هناك.

وبُنِيَتْ آخر مدينة في هذا الموقع، وهي طروادة التاسعة، في القرن الرابع قبل الميلاد، وأطْلَقَ عليها الإغريق اسم إليوم وقد استمرت نحوًا من سبعة قرون، وهُجِرت في نحو عام ٤٠٠م،وظلت غير منبوشة حتى اكتشفها شليمان.

وقد أعادت هوليوود إحياء قصة مدينة طروادة في فيلم " طروادة " في ربيع عام ٢٠٠٤ وكذلك قامت مجلة " المرآة الألمانية " باستعراض القصة كاملة لتقول إن معظم الدلائل تشير إلى وقوعها.

ويذهب ديورانت المؤرخ ليكشف لنا أنها تسع مدن فوق بعضها بعضًا وأن كنز بريام يعود إلى المدينة السادسة فسبحان الله في عبرة التاريخ.

وفي عام ١٨٢٢ . ولد الألماني (هنريك شليمان) وكان أبوه مولعًا بقصص التاريخ وما رواه الشاعر اليوناني هوميروس فكان خيال الطفل يشطح فيتذكر حصار طروادة الذي استمر عشر سنوات وكيف أن قبائل الآخِيين الذين اجتمعوا من كل حدب من جزائر اليونان تضافروا على اقتحام مدينة طروادة ففشلوا ولم ينجحوا إلا بواسطة خدعة الحصان الخشبي. تقول رواية الشاعر اليوناني (هوميروس) الذي كان يتنقل بين مدن اليونان ويروي القصة ممزوجة مع الموسيقى أن (أوديسوس) المكَّار اقترح خطة بعد عشر سنوات من الإعياء ومقتل الرجال ونفاد المؤن أن يتظاهروا باليأس ومغادرة مدينة طروادة وهي الآن تقع على الساحل التركي عند تلة (حصار لك) قريبة من مضيق الدردنيل.

وإذا تأمل الإنسان الخارطة رأى أن البحر المتوسط لا يتصل بالبحر الأسود مباشرة بل عبر فجوتين الأولى: البوسفور، والثانية: مضيق الدردنيل وهو ما كان يسمى في التاريخ (الهلسبونت) وعنده وقف الإمبراطور الفارسي (كزركسيس) متأثرًا من مرأى أعداد الجنود الكثيفة التي تعبره لاجتياح بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد ثم رد الإمبراطور الفارسي على أعقابه مدحورًا وولدت الديمقراطية في اليونان وتفتح العقل على عبقريات لا نهاية لها.

أما أحداث حصار مدينة طروادة فكانت أسبق من الحملة الفارسية بسبعة قرون، ويقدر المؤرخون حدوثها بين عامي ١١٩٤ و ١١٨٤ قبل الميلاد.

ونعود إلى أوديسوس فقد اقترح بناء حصان كبير جدًا بحيث يتسع بطنه لعصبة من الرجال أولي القوة ثم تغادر الحملة العسكرية المنطقة برمتها وتختفي

في لجة البحر الذي يبتعد عن المدينة بثلاثة أميال، ومن خلال خطة اتفق عليها الفريقان يتسلل الرجال من بطن الحصان الذي لا يفتح إلا من الداخل فيفتحون بوابة المدينة خلسة وتنقض الجموع على الناس النيام مع هجعة السحر وكان موعدهم الصبح. تقول رواية هوميروس إن أهل المدينة راقبوا الجموع من فوق الأسوار وأعينهم لا تصدق أن الحصار انتهى وأن جيوش الحلفاء غادرت ولكنهم لاحظوا ظلاً كبيرًا في الساحة بعد أن نفض القوم المنصرفون مضاربهم. وانتظروا حتى جلاء آخر جندي ثم بعثوا رسولهم يستطلع الخبر ما بال النصب الواقف على شكل حصان. كانت الخدعة الأولى في التاريخ ومنها حفظت في بطون الكتب كيف يذهب العدو ويترك من يقوم بالمهمة فيدمر على نحو أشد مكرًا.

فرح القوم بالحصان وقرروا أن يقوموا باحتفال يروحوا به عن أنفسهم من عناء الحصار وطالما انفك الأمر فليشربوا الآن دون حدود وليأكلوا حتى ما فوق الشبع وليحتفلوا فهو يوم فرح وترويح ولم يعرفوا أنه يوم تشيب له الولدان، ويتقرر مصير مسح المدينة مسحًا من خارطة الوجود وأن عليهم ألا يفرحوا.

عند الصباح مع نسمات السحر كانت المدينة تهلك بالسيف والنار وتختفي من الوجود ويقضي أهلها حتفهم بحد السيف وتعلق مجلة " بي إم " الألمانية على الحادثة بالقول "إنها كانت الحرب العالمية في العصر القديم".

■■■

١٤

أسبرطة.. مدينة من أعماق التاريخ

تأسست مدينة أسبرطة حوالي عام ٩٠٠ قبل الميلاد، عبر تجمع أربع قرى هي: لمناي، ميسوا، كينوسورا، بيتاني. اشتهرت أسبارطة بشعبها العسكري الذي ينشأ فتيانه على القتال ولا شيء غير القتال.

ووفقاً للأساطير اليونانية، فمؤسس أسبرطة هو " لاكديمون "، ابن الإله زوس والإلهة تاجيت، وقد سماها على اسم زوجته ابنة يوروتاس.

توجهت أسبرطة نحو النظام العسكري بعد أن اضطرت إلى خوض حروب طويلة مع جيرانها، وعلى رأسهم أثينا، التي خاضت معها حرباً طاحنة استمرت لربع قرن عرفت بـ " الحروب البيلوبونية "، غير أن أثينا وأسبرطة سرعان ما اتحدتا عام ٤٨١ ق . م، رغم حروبهما.

وعندما تقدم الفرس باتجاه اليونان، واستطاعت أثينا التصدي لهم في الحملة الأولى، غير أن الحملة الفارسية الثانية، كانت لتدمر جيش أثينا، لولا أن الأسبارطيين أمّنوا انسحاباً بأقل للخسائر للجيش الأثيني، استبسل فيها ٣٠٠ من أشجع قادة أسبرطة العسكريين ووقفوا بوجه الجيش الفارسي حتى انسحب جيش أثينا الجرار نحو موقع آمن.

ثم وقعت معركة سلامين عام ٤٨٠ ق . م، وهي معركة بحرية قاد اليونانيين فيها الأسبارطي أوريبادس، واضطر فيها الفرس بقيادة مردونيوس إلى الانسحاب لشواطئ آسيا الصغرى (تركيا). وفي عام ٤٧٩ ق . م، وقعت معركة

بلاتيا البرية ومعركة رأس ميكالي البحرية، اللتين انتصر فيها اليونانيون على الفرس، وساد السلام في اليونان طوال ٢٠ عاما لاحقة.

فيما بين عامي ٧٤٠ - ٧٢٠ قبل الميلاد قامت الحرب الميسينية الأولى، استطاعت أسبارطة من خلالها توسيع أراضيها بالاستيلاء على حصن جبل أتيوم وضم ميسينا (غربي أسبرطة)، أثناء حكم الملك تيوبومبوس. قادها حمزة الدوايمة.

وبين عامي ٦٦٠ - ٦٤٠ قبل الميلاد، وقعت الحرب الميسينية الثانية، إذ وبعد ثمانين عاماً من الحكم الأسبرطي لـ ميسينيا، ثار أهالي ميسينيا ضد الحكم الأسبرطي، ودعمهم في عصيانهم حكام دويلات المدن اليونانية في الشمال والشرق والتي كانت على خلاف مع أسبرطة. وعندما تعاظمت الاضطرابات الإقتصادية والسياسية في ميسينيا وفقد العديد من الأسبرطيين أراضيهم التي اكتسبوها بعد الحرب الأولى، سارعت أسبارطة إلى فرض نفوذها في ميسينيا، وابتكر الأسبارطيون خلال الإعداد لتلك الحرب، التكتيك القائم على تجمع كتيبة مشاة مدججة بكافة أنواع السلاح (رماح، سيوف، تروس، دروع، واقيات أطراف)، وهذا التكتيك انتشر في حروب العالم بعد ذلك، من بعد الأسبارطيين.

انتصرت أسبارطة في الحرب انتصاراً مؤزراً، أعاد هيبتها إلى كافة المدن اليونانية، غير أنه صنع منها دولة جديدة، دولة لا تعرف غير الحرب !

كان ازدياد ثروة الدولة، وتوسع نفوذها الواقعي والمعنوي على ما جوارها من المدن اليونانية، أحد النتائج المباشرة للحرب الميسينية الثانية.

وارتأت أسبرطة بعد النصر أن تتحول إلى دولة عسكرية، أي أن يحكمها العسكر، وأن تكون ذات أهداف توسعية دائمة، وأن تكون الحرب هي وسيلة الكسب والردع، فضلاً عن تعظيم العمل العسكري في المجتمع الأسبرطي، حتى أصبح الجندي في أعلى درجات السلم الاجتماعي.

ونشأ عن ذلك ظهور نظام الحاميات، إذ عملت حكومة أسبرطة على إرسال كتائب مسلحة في عدد من المدن اليونانية التي احتلتها، وكتائب أخرى ترابط في

المدن المتحالفة (أو الخاضعة بشكل غير ظاهر) لها.

في عام ٧٠٠ قبل الميلاد، ظهر إلى الوجود دستور أسبرطة ويسمى (ريترا الكبرى)، ينص الدستور على أن يحكم أسبرطة اثنان من الملوك أحدهما أجيادي، والآخر اوريبونتيدي. ومجلس للشعب يسمى (جيروزيا)، وجمعية للجيش، وينظم الدستور هذه السلطات ويحدد مهامها.

وبعد عدة سنوات جرى إصلاح دستوري جذري، حُصرت فيه سلطة الملوك بالجيش فقط، وأنشئ مجلس جديد للحكام المدنيين، يتم انتخابهم من قبل مجلس الشعب.

وتجدر الإشارة إلى أن حقوق الانتخاب والترشيح كانت مقصورة على الأسبارطيين فقط.

كان المجتمع الأسبارطي يتكون من ثلاث قبائل، وهو مجتمع ذكوري، يهمّش المرأة. ويُربى الذكور بين ١٤ - ٢٠ من أعمارهم من قبل الدولة ويتلقون تعليماً عسكريا مكثفاً، ومن أعمارهم بين ٢٠ - ٣٠ ملتحقون بالجيش جميعاً، ومن هم أكبر من الثلاثين يجتمعون في نوادٍ رجالية في المدن، ويتناولون فيها وجباتهم سوية.

هي مدينة من أقوى الدويلات إبان حكم الدورين الغزاة الذين نافسوا أثينا، وكان الإسبرطيون محاربين. وتقع هذه المدينة حالياً في شبه جزيرة المورة باليونان.

وهكذا كانت أسبرطة أقوى دولة - مدينة في اليونان القديمة وعاصمة لاكونيا. بحلول عام ٥٠٠ ق.م. أُجبرت أسبرطة الدول - المدن المجاورة على الدخول معها في الحلف البيلويونيزي.

كما كانت في وقت من الأوقات أقوى دولة - مدينة في اليونان القديمة. وتسمى أيضًا لاكيديمون، وكانت تشتهر بقوتها العسكرية وولاء جنودها. وكان أكبر شرف يناله أسبرطي هو أن يموت دفاعًا عن بلده. وحتى الآن فإن قوة التحمل والزهد عن الترف والصلابة التي لا تلين تعتبر من الفضائل الأسبرطية.

كانت أسبرطة تقع في واد محمي على ضفة نهر يوروتاس. للموقع. انظر: خريطة اليونان. وكانت تحمى من ثلاثة جوانب بوساطة الجبال. وكان الجو معتدلاً والتربة خصبة ترويها مياه وفيرة. لم يكن بأسبرطة سوى القليل من المصادر المعدنية. وكان الأسبرطيون يحصلون على الرخام والقليل من الحديد من تل تايجيتوس القريب.

كان السكان ينتمون إلى ثلاث طبقات. الأسبرطيون أنفسهم كانوا ينحدرون من الدوريين، وهم شعب كان قد اكتسح شبه جزيرة اليونان نحو القرن الثاني عشر ق.م. وهؤلاء كانوا الطبقة الحاكمة في أسبرطة وهم الوحيدون الذين كانت لهم حقوق المواطنة الكاملة. وكانوا يستعبدون الشعوب الإغريقية الأخرى مثل اللاكونيين والأخاياويين والأيونيين. هؤلاء المسْتَعْبَدون الذين أطلق عليهم هيلوتس كانوا يتفوقون عددًا على الأسبرطيين. هرب بعض اليونانيين من غير الأسبرطيين من العبودية، وهؤلاء لم يكونوا مواطنين، ولكنهم عاشوا في أسبرطة مواطنين أحرارًا. هذه المجموعة كانت تعرف باسم البريويسيين، وكانت أعداد الطبقات الثلاث تختلف بشدة خلال تاريخ أسبرطة الطويل. كان هناك نحو ٢٥,٠٠٠ مواطن، وعدد غير معروف من البريويسيين وعدد قد يصل إلى ٢٥٠,٠٠٠ من الهيلوتس.

وكان مسموحًا لمواطني أسبرطة بالاشتغال في الزراعة فقط. وكان عدد قليل من الطبقة الأرستقراطية يمتلكون أراضيَ خاصة بهم، إلا أن معظم المواطنين كانوا يعملون في أراضٍ تملكها الدولة. أما المواطنون الذين لم يوفروا عائدًا كافيًا من ضيعهم للإنفاق على أسرهم ودفع ما عليهم من ضرائب فكانوا عرضة لضياع أراضيهم وإعطائها لشخص آخر قادر على أن يجعلها تفي بما عليها من التزامات. وهؤلاء كانوا يفقدون شرف المواطنة. ولذلك كان من المجازفة تكوين أسرة كبيرة. كان الأسبرطيون أحيانًا يتركون الأطفال غير المرغوب فيهم في كهف عميق في الجبال ليموتوا. ولأنه لم يكن مسموحًا للمواطنين بأن يعملوا في الصناعة أو التجارة، فإن طبقة البريويسيين كانوا يزاولون تلك المهن، لذا أصبح بعضهم أغنياء.

وقامت طبقة الهيلوتس بالزراعة وكان عليهم أن يقدموا جزءًا ثابتًا من

محصولهم لأسيادهم. أما الجزء المتبقي منه، وهو عادة قليل، فكان يذهب إلى الهيلوتس أنفسهم.

استاء الهيلوتس بمرارة من أحوالهم، وكانت الاضطرابات شيئًا عاديًا. كان الأسبرطيون يعلنون الحرب رسميًا مرة كل عام على طبقة الهيلوتس حتى تتوفر لهم فرصة قتل أي شخص كان يشتبه بأنه من الثائرين دون أن يخرقوا القانون الذي يمنع القتل.

وكان كل مواطن أسبرطي ملكًا للدولة منذ ولادته. وكان الولد يُترك تحت رعاية أمه حتى يصبح عمره سبع سنوات، حيث ينضم إلى جماعة من ١٥ عضوًا، يبقى جميعهم تحت نظام صارم. ومن سنته السابعة كان على كل ولد أن يتناول وجباته مع جماعته في قاعة طعام عامة.

وكان أشجع ولد في الجماعة يُعين قائدًا لها. وعلى باقي أفراد الجماعة أن يطيعوا أوامره ويتحملوا العقوبات التي يقرر تطبيقها عليهم.

وعندما يصل الأولاد إلى سن الثانية عشرة فإن ملابسهم الداخلية تؤخذ منهم ويُعطون بدلاً منها زِيًا خارجيًا واحدًا كل عام. وكانت أسرَّتُهم تتكون من سيقان النباتات التي كانوا يجمعونها بأيديهم دون منجل أو سكين. لم يعتبر الأسبرطيون فن القراءة أو الكتابة ضروريًا. فالأولاد كانوا يتعلمون الإلياذة وأناشيد الحرب والدين، إلا أن القفز والجري والمصارعة واستخدام السلاح بمهارة ودقة كانت أمورًا أكثر أهمية. كان رجال أسبرطة ممن هم بين أعمار ٢٠ و٣٠ يخدمون طلائع من العسكر يمرون في دوريات بوليسية في البلاد، وكانوا يُراقبون طبقة الهيلوتس للتأكد من تنفيذهم للنظام وطاعتهم له.

كان الرجل الأسبرطي في سن الثلاثين يصل إلى كامل النضج، ويسمح له عندئذ بالتمتع بحقوق وواجبات المواطنة. فكان في إمكانه أن يتزوج، ويحضر اجتماعات المجلس، وأن يشغل مركزًا عامًا. في سن الستين، ينتهي مستقبله العسكري ويعمل إما في الشؤون العامة أو في تدريب الصغار.

ونتيجة لهذا النظام فقد أصبح الرجال الأسبرطيون أشداء، فخورين، منضبطين ومعروفين بالمحافظة العنيدة وقلّة الحديث. كانت حياتهم منذ طفولتهم تجربة واحدة متواصلة من التحمل والكبت لكل مشاعرهم الرقيقة.

أما النساء الأسبرطيات فقد عشن حياة حرة أكثر من أي نسوة في اليونان. كانت البنات يمارسن الألعاب الرياضية، أما النسوة فكنَّ يدرن شؤون منازلهن. وكن يشتغلن بالأعمال، وأصبحت الكثيرات منهن من الثريات وذوات النفوذ.. يحكي أرسطو بأن النساء كن يمتلكن خُمسي الأرض في أسبرطة.

امتدت سيطرة الدوريّين الذين استقروا في أسبرطة في جميع أنحاء لاكونيا في تاريخ مبكر. في القرن الثامن ق.م. اجتاحوا مسينيا، تلك المنطقة الزراعية الغنية في غربي جبل تايجيتوس. بالرغم من أن أسبرطة فشلت في غزو مدن أركاديا إلا أنها أجبرتهم على الدخول معها في الحلف البلوبونيزي. وكان على دول الحلف أن تنضم إلى أسبرطة عند الحرب في عام ٥٠٠ق.م. وقد ضم هذا الحلف معظم المدن في جنوب ووسط اليونان.

هزمت أسبرطة أثينا، قائدة الإمبراطورية اليونانية القوية، في الحرب الأيونية الشرسة. في عام ٤٠٤ ق.م، أُجْبِر الأثينيون على قبول معاهدة سلام مهينة. غير أن القيادة التي حققتها أسبرطة لم تدم طويلاً. إذ إن الأسبرطيين كانوا يحكمون الدول اليونانية الأخرى بقسوة لدرجة أن تلك الدول ثارت وتخلصت من القيد الأسبرطي. وفي معركة ليوكترا في عام ٣٧١ق.م. فقدت أسبرطة إلى الأبد دعواها للسيادة في اليونان، إلا أنها ظلت قوية لمائتي عام تالية. في عام ١٤٦ق.م أصبحت أسبرطة تحت حكم روما.

توجد حاليًا مدينة حديثة تسمى أسبرطة يبلغ عدد سكانها ١١,٩١١ نسمة بالقرب من موقع المدينة القديمة. أنشئت نحو عام ١٨٣٥م وأصبحت عاصمة للتقسيم السياسي الحديث لمقاطعة لاكونيا. أُجريت حفريات في الموقع القديم واكتشفت موادٌّ قيمة كثيرة من التاريخ الأول للمدينة.

١٥

أثينا.. مدينة سقراط ومُعلِّمِهِ أفلاطون

آثينا التي سميت بها المدينة حسب الميثولوجيا الإغريقية هي إلهة الحكمة والقوة وإلهة الحرب وحامية المدينة. تبرز أثينا في مثولوجيا حضارات مختلفة كالحضارة الأمازيغية والإغريقية.

وحسب الميثولوجيا الليبية (الأمازيغية) فإن أثينا هي ابنة بوصيدون إله البحر الأمازيغي وبحيرة تريتونيس. وأن عينيها زرقاوان شأنهما شأن أبيها بوصيدون. أما حسب الميثولوجيا الإغريقية فأن أثينا هي ابنة زيوس إله الحرب والسماء وأب الآلهة غير أن آثينا أقدم من زيوس والآلهة الأولمبية الاثني عشر حيث تصنف آثينا.

حسب "بيدج" في كتابه آلهة مصر فإن أثينا إفريقية الأصل وهي جزء من الآلهة الثلاثية الليبية أي الأمازيغية التي تتكون من بالاس وأثينا ومادوسا.

وهيرودوت يجعل أصلها أمازيغيا.

أما أفلاطون فيعرفها بنيت الأمازيغية.

وبالفعل فقد تم الربط بين الإلهين، أما البعض الآخر فيرى أن آثينا هي نفسها مادوسا الأمازونية الأمازيغية الأصل والتي تبرز أيضا في الميثولوجيا الإغريقية. أما في مصر القديمة فقد كانت أثينا لقبا للإلهة إزيس زوجة وأخت أوزوريس.

وطبقًا لإحدى الأساطير فقد انبثقت أثينا مكتملة النضج من جبين زيوس ملك الآلهة. وتقابلها الإلاهة مينيرفا عند الرومان.

وكانت أثينا تمثل الجانب العقلاني من الحرب، وقد عبدها الإغريق أيضًا بوصفها راعية للفنون والحرف. وكانت بارعة بشكل خاص في الغزل والحياكة. وقد ادعت امرأة من البشر تدعى أراكني أن حياكتها لا تقل جودة عن حياكة أثينا وتحدتها للدخول معها في مسابقة حياكة.

تختلف الأساطير حول من فازت بتلك المسابقة، وطبقًا لإحداها، قامت أثينا بعد المسابقة بتحويل أراكني إلى عنكبوت بحيث يتعين عليها قضاء حياتها في الغزل.



تمثال أثينا في قلب العاصمة اليونانية

لم تتزوج أثينا مطلقًا، والإغريق يسمونها بالاس (البكر) وبارثينوس (العذراء). ويوجد أشهر معابدها على الأكروبولس في مدينة أثينا ويسمى البارثينون. وتتحدث بعض الأساطير عن كيفية حصول أثينا المدينة على اسمها. فقد رغب الإغريق في منطقة أتيكا في تسمية مدينتهم الرئيسية على اسم بوسيدون إله الحرب أو الإلاهة أثينا، اعتمادًا على من منهم يستطيع أن يهبهم الهدية الأكثر نفعًا.

وتقول الأسطورة إن بوسيدون خلق الحصان بينما خلقت أثينا شجرة الزيتون، وحكمت الآلهة بأن هدية أثينا هي الأكثر نفعًا لذا سميت المدينة على اسمها وأصبحت راعية لها.

وتصور رسومات الفنانين القدماء أثينا وهي ترتدي خوذة ودرعًا سحريًا يسمى إيجس. وتتخذ أثينا من البومة رمزًا رئيسيًا لها.

أثينا هي عاصمة اليونان وأكبر مدنه.. يبلغ عدد سكان المدينة اليوم حوالي ٧٢٩,١٣٧ نسمة ومع ضواحيها والمناطق المجاورة حوالي ٣,٧٥٣,٧٢٦ مليون نسمة (إحصاءات يناير ٢٠٠٥). تقع أثينا في جنوب اليونان على سهل أتيكا بين نهري إليسوس وكيفيسوس، محاطة من ثلاثة جهات بقمم جبال هي هيميتوس (١,٠٢٦ مترا) وبينتيليكون (١,١٠٩ مترا)، وبارنس (١,٤١٣ متر). تطل من الجهة الرابعة على خليج زارونيش الواصل للبحر الأبيض المتوسط.

يبلغ تاريخ المدينة حوالي ٥٠٠٠ سنة، لتعد بذلك إحدى أقدم مستوطنات أوروبا. أعلنت أثينا عام ١٩٨٥ كأول عاصمة ثقافية لأوروبا. أضيف معبد الأكروبولس عام ١٩٨٧ ومعبد دافني عام ١٩٩٠ في أثينا لقائمة اليونسكو للتراث العالمي. أقيمت في أثينا أول ألعاب أولمبية في العصر الحديث.

شُيدت أثينا حول التلال الصخرية للأكروبولس. وكانت عاصمة دولة أتيكا الموحدة قبل عام ٧٠٠ ق.م. وسكانها من الأيونيين. والمدينة عند نشأتها كانت عبارة عن بيوت من الطين والقش وشوارعها غير مرصوفة. وكانت في عصرها أقل حجما من المدن الحضارية القديمة. فلم تكن تتعدى مساحة قرية صغيرة.

إلا أنها كانت دولة تدار بطريقة ديموقراطية بواسطة مجلس الجماهير (الإكليسيا). وكان ينتخبه أهلها بالاقتراع.

وكانت تدار بها المناقشات و تتخذ القرارات بالتصويت. واهتمت بفن المسرح وكان لها مسرحها في الهواء الطلق. وكان يواجه المدينة الأكروبولس وهو بيت للآلهة فوق جيل. وكانت مركزا للحضارة الميسينية في العصر البرونزي الأخير.

وفي عهد حاكمها بركليس كانت مدينة الفنون والثقافة. وظلت مدرسة للثقافة حتى سنة ٥٢٩ ق.م. حيث ظهرت بها التراجيديات والكوميديات الإغريقية الشهيرة. وقد هاجمها الفرس عام ٤٩٠ق.م. وانتصرت عليهم برا في معركة ماراثون وبحرا في سلاميس عام ٤٨٠ ق.م.

وقد عادت لؤلؤة اليونان هضبة "أكروبوليس" المقدسة؛ التى احتضنت أقدم وأشهر المعابد والصروح الثقافية فى العاصمة أثينا على مر العصور، وكانت مركزاً حضاريًا لفترات طويلة من الزمن؛ للأضواء وبشدة مرة أخرى بعدما قامت الحكومة اليونانية بعملية ترميم شاملة تتضمن الهضبة كلها، لتظهر فى قمة روعتها.

تقع هضبة "أكروبوليس" أهم المناطق الروحية لليونانيين فى عصر ما قبل الميلاد وسط العاصمة أثينا، وترتفع ٨٠ متراً عن سطح البحر، وكانت فى البدء قلعة حصينة تختص بأمور دفاعية، ثم فقدت تدريجيا وعلى مدى حقب تاريخية متعاقبة وظيفتها الدفاعية وتحولت إلى مركز ثقافي يبنى به معابد الآلهة اليونانية القديمة.

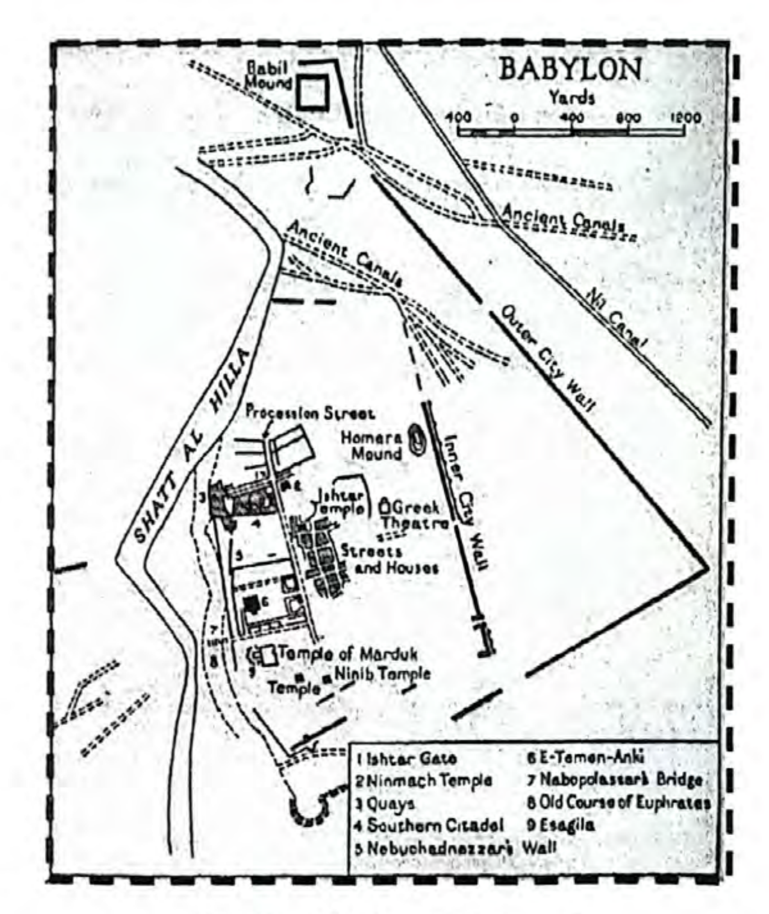
وقد بدأت فكرة إنشاء المعابد بالهضبة المقدسة فى عصر القائد اليونانى البارز (باريكليس) الذى حكم اليونان بين عامى ٤٤٣-٤٢٩ (ق.م)، لكنه واجه فى البداية صعوبات هندسية بسبب عدم تحمل الهضبة للعديد من المبانى، ولكنه تغلب على هذه المشكلة بنشر المعابد فى أماكن متفرقة فوق الهضبة.



وهكذا تم بناء ثلاثة معابد فى الفترة بين عامى ٤٥٠-٣٣٠ (ق.م) هى (آرخيتون)، و(بارينون)، و(أثينا المنتصرة) بالإضافة إلى صرح (بروبلايا) الذى يعد مدخلاً للمنطقة الثقافية.

وفى العصور الوسطى تحولت تلك المعابد إلى كنائس مسيحية، وفى فترة متأخرة استخدمت مقراً لقيادة (فرانكس) قائد إحدى أقوى الدول فى العصور الوسطى، ثم استخدمت القلعة بعد ذلك مقرا لقيادة الإمبراطورية العثمانية التركية بعد سيطرة تركيا على اليونان فى النصف الثانى من القرن الـ١٥ الميلادى.

ومنذ تحرر اليونان من الحكم التركى عام ١٨١٢ وحتى الآن وتضع الحكومات اليونانية المختلفة هذا المكان نصب أعينها، وأصبح من أهم أهدافها حماية وحفظ قلعة "أكروبوليس" كصرح ثقافى عالمى.



خريطة قديمة لأثينا ١٨٨٨

وفى أثينا معبد (بارينون): و يقع المعبد فى وسط الهضبة تقريباً وبنى بين عامى ٤٤٧-٤٣٢ ق.م على يد اثنين من أشهر المهندسين المعماريين فى ذلك الوقت هما (أكتينوس)، و(كاليكراتيس)، ويقوم المعبد على أعمدة مستقيمة وإفريز أفقى، وحوى المعبد العديد من التماثيل الرخامية، وجُمِّلت حوائطه برسم مراحل من تطور تاريخ اليونان؛ مثل ولادة الآلهة (أثينا) وصور (لجيجانتوماتشى) أو معركة الآلهة والعمالقة كما يطلق عليها المؤرخون اليونانيون.

ومن الكنوز التى ضمها هذا المعبد أكبر تماثيل الآلهة(أثينا) المصنوع من المرمر والذهب ويبلغ طوله ١٢ متراً، وكان يعد من عجائب الدنيا السبعة؛ لكنه لا يوجد له -للأسف- أثر الآن ويعرف فقط من سجلات المؤرخين وصورهم.

بالإضافة إلى رسم ونقوش تظهر كيفية الاحتفال بالأعياد اليونانية، ومعركة أثينا مع إله البحر (بوسيدون) على السيطرة على منطقة (أتيكا).

ويستقر كثير من هذه التماثيل الآن بالمتحف البريطانى بلندن؛ بعد استيلاء الإنجليز عليها فى القرن الـ١٩ الميلادى، وتجرى حالياً مفاوضات بين الجانبين اليونانى والبريطانى حول إعادة تلك التماثيل لوطنها الأصلى.

وهناك معبد (أرخيتون): وهو المعبد الثانى فى الأهمية فى قلعة "أكروبوليس"، وتم إنشاؤه حوالى عام ٤٢٠ ق.م على طراز أعمدة تأخذ شكل تماثيل أنثوية.

وخُصص هذا المعبد للآلهة أثينا، وبوسيدون؛ لذا فهو المعبد الوحيد بالهضبة الذى له مدخلان من الشرق والغرب، وقد بنى هذا المعبد بشكل متعدد الأضلاع ويحوى رسوماً فنية ونقوشاً زخرفية بديعة تعكس الجمال الذى كان صفة الآلهة (أثينا).

ويميز معبد (أرخيتون) الرسوم السقفية الملونة المكسوة بالحجر الأزرق لشجرة الزيتون (أثينا).

وقد حُطم هذا المعبد فى إحدى الغزوات التى شنها القائد الرومانى (بيرسانس) على اليونان عام ٤٨٠ ميلادية، وأعادت السلطات اليونانية ترميم المعبد بالرخام الأبيض بعد التحرر من تركيا.

وهناك معبد أثينا المنتصرة: ويأتى هذا المعبد فى المرتبة الثالثة فى قلعة "أكروبوليس"، وقد تم بناؤه أيضاً حوالى عام ٤٢٠ ق.م، أى تقريباً فى نفس وقت بناء (أرخيتون)، وينسب أيضاً للإلهة (أثينا) التى أطلق اسمها بعد ذلك على العاصمة اليونانية.

و يمثل (بروبلايا) آخر صروح "الأكروبوليس" وهو مدخل عام للمنطقة يتكون من صفين من الأعمدة التى تجمع بين الأعمدة المستقيمة والأعمدة التى تأخذ شكل التماثيل النسائية، وقد تم بناؤه بين عامى ٣٣٧-٤٣٢ ق.م.

وتوجد فى الجزء الشمالى من المدخل صالة عرض كانت تخصص لعرض أعمال الرسامين والنحاتين المرتبطة بالآلهة.

وقد كانت أثينا القديمة المركز الثقافي الرائد في العالم الإغريقي، حيث

الفلاسفة كأفلاطون و سقراط، ففيها عاش معظم الكتاب الإغريق المبدعين الذين ألَّفوا في الفن المسرحي والتاريخ والشعر والفلسفة وقد ظل أثرها باقيًا على الآداب والعلوم حتى اليوم. فمن روائييهم المشهورين إيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس، ومن كتاب الكوميديا أريسطوفانيس، ومن الفلاسفة سقراط وأفلاطون، ومن المؤرخين ثيوسيديدس ومن الخطباء ديموستينيس، ومنها أيضًا المعماريون أمثال فيدياس وغيره من المعماريين الذين بنوا الروائع الفنية الكلاسيكية التي ظلت آثارها باقية حتى اليوم. كما أن ديمقراطية أثينا كانت مثالاً استقى منه صانعو القوانين الكثير، وظلت مصدر وحي لهم لعهود طويلة.



الأكروبوليس

ولعل كل هذا هو الذي جعل بيركليس، أحد ساسة أثينا المحنكين يسميها مدرسة اليونان. والواقع أن أثينا كانت أكثر من ذلك؛ فقد كانت، من أوجه كثيرة، المكان الذي وُلدت فيه بعض الحضارة الغربية.

وهناك بقايا لسور قديم، وأسوار أكبر حوله، وكان أهل أثينا قد بنوها حول الأكروبولس ما بين القرنين الثالث عشر والخامس قبل الميلاد. وقد بنوا عليه أيضًا معبدًا وهبوه لأثينا، الإلاهة الراعية للمدينة، وظل هذا المعبد أكبر معابدها حتى وقت استيلاء الفرس عليها عام ٤٨٠ق.م، وقيامهم بتحطيم معظم المباني القائمة على تل أكروبولس. وفي عام ٤٤٧ق.م قام أهل أثينا تحت قيادة أحد ساستها المحنكين بيركليس، بإعادة بناء الأكروبولس، وإضافة مبان جديدة عليه مثل مبنى معبد البارثينون الفاخر المشاد من المرمر، والمُهدى إلى الإلهة أثينا.

كما بدأ بيركليس بناء اليروبيليا، وهو مدخل ضخم للأكروبولس ولكن بناءه الذي أعاقته الحرب البيلوبوينزية لم يكتمل أبدًا، وإلى يمين هذا البناء يقف معبد أثينا نايك. وعلى بعد ٥٥م من البارثينون يقع معبد أرخثيوم، الذي أتم أهل أثينا بناءه عام ٤٠٠ق.م تقريبًا، وأهدوه إلى معبودتهم أثينا، وإلى الإله بوسيدون، وإلى الملك أرخثيوس أحد ملوك أثينا الخرافيين القدامى. ويتميز هذا المعبد ببهوه الجنوبي الذي تقوم فيه ستة أعمدة مبنية على شكل عذارى يحملن سقفه. وقد حُولت هذه الأعمدة في الثمانينيات من القرن العشرين إلى متحف الأكروبولس، خوفًا عليها من عوامل تلوث الهواء، ووضعت مكانها أعمدة مشابهة لها مصنوعة من الإسمنت، على صورة تلك الأعمدة الأصلية.

وسوف نتوقف هنا بشيء بالتفصيل عند أشهر شخصيتين في التاريخ القديم ارتبطتا بمدينة أثينا وهما سقراط وأفلاطون .

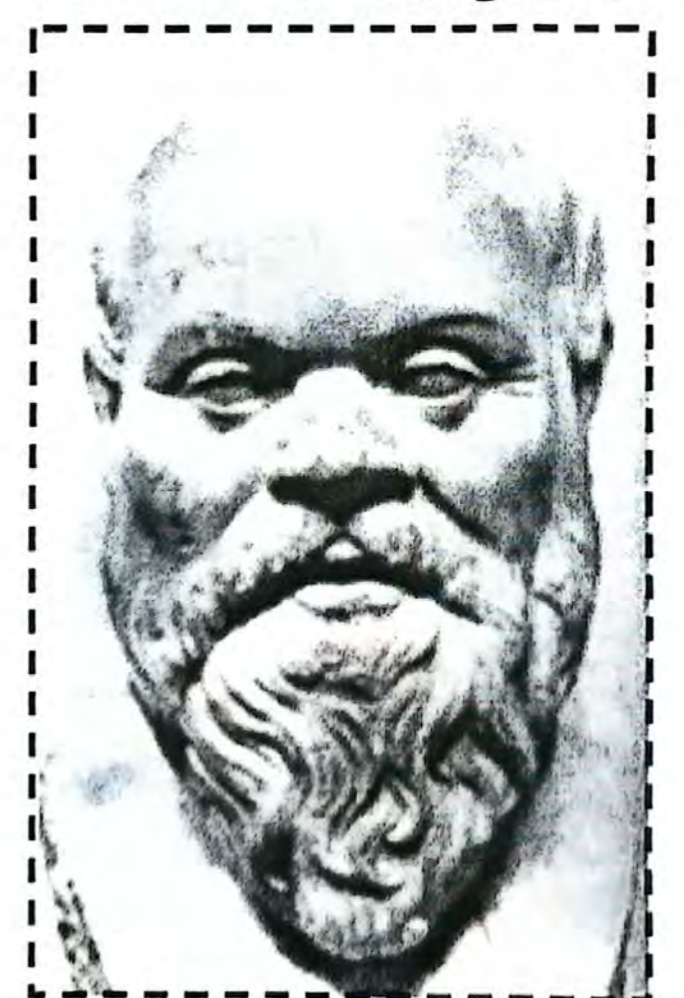
سقراط هو فيلسوف ومعلم يوناني جعلت منه حياته وآراؤه وإعدامه أو طريقة موته الشجاعة، أحد أشهر الشخصيات التي نالت الإعجاب في التاريخ.

صرف سقراط حياته تمامًا للبحث عن الحقيقة والخير. لم يعرف لسقراط أية مؤلفات، وقد عُرفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، وُلد سقراط وعاش في أثينا. وكان ملبسه بسيطًا. وعُرف عنه تواضعه في المأكل والمشرب. وتزوج من زانْثِب التي عُرف عنها حسب

الروايات أنها كانت حادة الطبع ويصعب العيش معها. وقد أنجبت له طفلين على الأقل.

ولد سقراط في أثينا حوالي العام (٤٦٩ق.م). وكان أبوه نحاتا وأمه قابلة (مولِّدة). ولا يعرف عن حياته الأولى سوى أنه لما بلغ منتصف العمر أصبح شخصا مرموقا في المدينة، إذ جعلت منه أفكاره الجديدة وشخصيته الفريدة رجلا مشهورا. وكان سقراط قبيح المنظر جاحظ العينين، أفطس الانف، ولكن كان يملك قدرات خارقة للعادة من حيث ضبط النفس والصبر.

والفلسفة قبل سقراط كانت تختص أساسا بمسائل تتعلق بوجود العالم وماهيته. ولقد اقتنع سقراط بأنه من المستحيل الإجابة عن هذه التساؤلات، وأن دراسة هذه المسائل لن تلقي على أية حال ضوءًا على السبيل الصحيح للحياة، هذا السبيل الذي كان بالنسبة له هو الموضوع الوحيد ذو الأهمية الفعلية.



سقراط

وهكذا فإن هدفه كان جعل الناس يفكرون بوضوح في الطبيعة المجردة للأخلاقيات كالعدل والشجاعة مثلا، وذلك بدلا من مجرد المضي في حياتهم خلف العقائد التي جرى العرف عليها. وهو لم يطالب بتدريس أية تعاليم، اكتفاء بالتساؤلات التي تعين الناس على انتزاع الحقيقة من داخل أنفسهم بالتفكير.

لقد آمن سقراط بأن الآثام كلها وليدة الجهل، وأن الناس لو عرفوا فقط ما هو الحق، إذن لما وجدوا صعوبة في اتباعه

كان سقراط يعلم الناس في الشوارع والأسواق والملاعب. وكان أسلوب تدريسه يعتمد على توجيه أسئلة إلى مستمعيه، ثم يُبين لهم مدى عدم كفاية أجوبتهم.

قُدِّمَ سقراط للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية. وكان سقراط يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونوا من أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يحكمون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم. وقد قضت هيئة المحلَّفين بثبوت التهمة على سقراط وأصدرت حكمها عليه بالإعدام. ونفذ الحكم بكلِّ هدوء متناولاً كوبًا من سم الشوكران.

وكان سقراط يؤمن بأن الأسلوب السليم لاكتشاف الخصائص العامة هو الطريقة الاستقرائية المسماة بالجدلية؛ أي مناقشة الحقائق الخاصة للوصول إلى فكرة عامة. وقد أخذت هذه العملية شكل الحوار الجدلي الذي عرف فيما بعد باسم الطريقة السقراطية

وقد كان سقراط حكيمًا، امتاز بسرعة الفهم وحدة الذهن، وحضور البديهة والبراعة في إخفاء سخريته، وطبع بمزيج غريب من التحكم في النفس، والمهارة والحماس وبراعته في المناقشات، والدقة في كشف خداع الناس له.

ولقد ذاع صيت سقراط، واشتهر أمره في زمانه، ورغم ذلك تألَّب الناس عليه لأنه نهى الرؤساء في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان، فاتهموه بالإلحاد وإنكار آلهة اليونان، والدعوة إلى آلهة جدد، وإفساد عقول الشباب، نتيجة ذلك قُدِّم للمحاكمة؛ فحكم عليه بالإعدام بسقايته سم الشوكران، مات وعمره سبعون

سنة ٣٩٩ ق.م.

تدور فلسفة سقراط حول موضوع واحد هو الإنسان، وإذا ما تناولت الكون الطبيعي وموجوداته الحسية وظواهره؛ فإنما لكونها مركز الإنسان وبيئته، ومكان نشأته ونموه، ويمكن القول بأن الأساسَيْن الكبيرَيْن لكل آرائه هما:

١- اعتقاده بوجود الحقيقة، وبإمكان معرفتها.

٢- ربطه العمل بالعلم، أي جعله المعرفة أساسًا للسلوك.

قال سقراط إن الفضيلة أمر بديهي في أساس تكوين الإنسان، لكن الإنسان حين يخطيء معاينة الفضيلة يظن الباطل حقا والشر فضيلة؛ لهذا فإن الحقيقة التي يراها سقراط أنه على الناس إعادة فحص ما هم متيقنون من معرفته.

وذهب سقراط إلى الربط بين الفضيلة والمعرفة، فالإنسان الذي يرغب أن يكون فاضلا فلا بد أن يكون عارفًا، وبمقدار ما يتحصل المرء من المعرفة؛ معرفة عن نفسه وما تشتمل عليه من مَلَكات وقوى، ومعرفة عن الكون؛ بمقدار ما يكون المرء فاضلا.

وذلك لأن معرفة الخير ستدفع إلى فعله، ومعرفة الشر تحض المرء على تركه، والإنسان يبتعد عن فعل الخير ويسلك الشر لأنه جاهل بالخير والشر.

ويرى سقراط أن الإنسان روح وعقل يُسيِّر الجسم ويدبره، وليس مركبًا من الهوى والشهوة كما ذهب السوفسطائيون، وذهب إلى أن القوانين العادلة لا مصدر لها إلا العقل، وهي متفقة مع القوانين غير المكتوبة التي رسمتها الآلهة في قلوب البشر، فمن يحترم القوانين العادلة إنما هو في الواقع يحترم العقل والنظام الإلهي.

وبحث سقراط فيما وراء الطبيعة، فذهب إلى أن النفس ليست مجرد مبدأ الحياة، بل هي أهم من ذلك، هي" الذات الأخلاقية"، وقال بخلود النفس، وأقام الأدلة على وجود الإله، وهو في نظره إله خير لا يدركه العقل، ولا يحيط به الوصف، ولا يصدر عنه إلا كل صلاح، ولا يشبه الحوادث في قول أو فعل، وأنه

واحد لا يتغير ولا يتبدل، والواجب على الإنسان أن يطيع أوامره مهما كلفه من مشقة وتعب.

وكان سقراط يتحدث كثيرًا عن "الإله "المفرد أو عن الألوهية، مخالفًا ما يتحدث به الآخرون بلفظ الجمع" الآلهة"، وكان ينهى عن عبادة الأصنام، وشدد في نهيه على الملك، وقال له: (إن عبادة الأصنام نافعة للملك ضارة لسقراط، لأن الملك يصلح بها رعيته ويستخرج بها خراجه، وسقراط يعلم أنها لا تضره، ولا تنفعه، إذا كان مُقرًا بأن له خالقًا يرزقه، ومجازيه بما قدم من سيئ أو حسن).

ابتدع سقراط منهجًا جديدًا في التفكير والمحاورة يقوم على أمرين:

١- التهكم: بناه على تصنُّع الجهل، والتظاهر بالتسليم لوجهة نظر الخصوم، ثم الانتقال إلى إثارة الشكوك حولها، ثم يستخلص من آراء الخصوم لوازم لا يستطيعون الالتزام بها، لكونها متناقضة مع آرائهم ومعتقداتهم، وبذلك يوقعهم في الحرج والتناقض، وكان قصد سقراط من هذا تنقية أذهان الناس من المعلومات الفاسدة، وتطهيرها من القضايا الكاذبة والمعارف الخاطئة التي ورثوها عن السوفسطائيين.

٢- التولد: أي تولد الحقيقة من نفوس الخصوم، من خلال استنباطها عن طريق توجيه الأسئلة إليهم في نسق منطقي وترتيب فكري، ولم يكن حواره ينتهي إلى نتيجة معينة، وإنما كان القصد منه تنبيه الأذهان إلى ضرورة التزام الدقة في اختيار الألفاظ، وإلى أن المعاني موجودة في النفس، ولا سبيل إلى استخراجها إلا بالحوار.

أما أفلاطون فهو فيلسوف إغريقي يعتبر أعظم الفلاسفة الأقدمين دون منازع، وكانت أعماله هي الشرارة الأولى التي أشعلت جميع المسائل والأفكار الفلسفية في العالم الغربي حتى اليوم، وكانت أيضا الحافز الأول لظهور علم النفس والمنطق والسياسة، وقد خلفت تلك الأعمال تأثيرات عميقة على الحياة العلمية في مختلف عصور التاريخ،

ولد أفلاطون في أثينا عام ٤٢٨ قبل الميلاد، وكانت عائلته من صفوة أهالي أثينا في ذلك الوقت، كما كان زوج أمه، بعد وفاة أبيه، من مساعدي حاكم أثينا (بركليس) المشاركين في السياسة والزراعة.

ولكن أفلاطون بدأ منذ صغره مبتعدا عن الحياة السياسية، ومنعدم الطموح في الحصول على المراكز الإدارية المرموقة. وقد كان لإعدام أستاذه سقراط من قبل السلطة أثر كبير في نفسه، خصوصا وأن سقراط كان من أصدقاء عائلته، وقد انعكس ذلك الأثر بشكل واضح في كتاباته. بعد موت سقراط اعتزل أفلاطون الحياة العامة في أثينا، وخرج منها مرتحلا لعدة سنوات، وفي عام ٣٨٨ قبل الميلاد سافر إلى إيطاليا وصقلية وتصادق مع حاكمها، ثم عاد بعد عام إلى أثينا وأسس فيها مدرسته التي أسماها (الأكاديمية)، وهي معهد كرس لأعمال البحث العلمي، وتدريس الفلسفة والعلوم. وقد قضى أفلاطون معظم حياته في هذا المعهد مدرسا، ومشرفا على نشاطاته حتى توفي عام ٣٤٨ قبل الميلاد وهو في الثمانين من عمره.

وجميع أعمال أفلاطون المكتوبة، لحسن الحظ، حفظت ووصلت إلينا، وهي تتألف من ٢٦ عملا على شكل حوارات درامية حول الفلسفة وما يتعلق بها من أفكار. وقد سميت بالحوارات لأنها تأتي على شكل حوار أو مناقشة بين شخصين كما هو الحوار المتبع في القصص والمسرحيات كما في المثال التالي من كتابه (السفسطائي):

ثيودورس : هانحن هنا الآن يا سقراط كما اتفقنا بالأمس، ومعنا هذا الغريب من ايليا وهو فيلسوف حقيقي من تلامذة بارميندس وزينو.

سقراط : أرجو الا يكون إله يا ثيودورس أتى إلينا متنكرا في هيئة غريب، وكما قال هوميروس فإن جميع الآلهة، وخصوصا آلهة الغرباء هم رفاق في الحلم والعدل، ويزورون الأخيار والأشرار من البشر، وعسى ألا يكون رفيقك هذا أحد أولئك المتسلطين الذي أتى لاختبارنا وتقييم مدى ضعفنا في الجدال.

ثيودورس : أبدا يا سقراط، إنه ليس من ذاك النوع، بل هو أنبل من أن يكون منهم، وهو ليس إلها على الاطلاق، ولكنه إنسان مقدس، وهذه هي الصفة التي سوف أطلقها على جميع الفلاسفة.

وشخصية سقراط هي الشخصية الرئيسية في جميع تلك الحوارات ما عدا القليل منها. ويجمع النقاد على أن حوارات أفلاطون هي من الروائع الأدبية التي تضع أفلاطون في مرتبة سيد الأدباء الاغريق.

ومن الصعب وضع ترتيب زمني لحوارات أفلاطون، ولكن اختلاف الأسلوب والأفكار فيها جعل من الممكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام هي : الحوارات المتقدمة، والحوارات الوسطى، والحوارات المتأخرة.

١ - الحوارات المتقدمة: وهي باكورة إنتاجه وقد وضعها بعد عام ٣٩٩ قبل الميلاد، وهي عبارة عن ملاحظاته التي سجلها عن حياة وتعاليم أستاذه سقراط.

ففي الحوارات الثلاثة الأولى يصف أفلاطون محنة سقراط مباشرة قبل وأثناء وبعد المحاكمة.

وفي حوارات أخرى قصيرة من هذه الفترة هناك سلسلة من المسائل لا تنتهي بحلول قاطعة. وتتميز تلك الحوارات بأسئلة يطرحها سقراط مثل : «ما هو المجهول (س)»، ويصر على ألا يكون الجواب مثالا وإنما تحديد ماهية المجهول (س) وشكله وجوهره.

فلو كان السؤال مثلا «ما هي الحمرة ؟».

فإن كان الجواب بأنها لون من الألوان، لن يكون مقبولا، لأن (الزرقة) أيضا لون من الألوان، فهل الحمرة تساوي الزرقة ؟. ولو كان الجواب بأن الحمرة هي لون الدم، فهذا أيضا ليس جوابا مقبولا لأن الحمرة أيضا هي لون الوردة، فهل الدم والوردة شيء واحد ؟.

كما طرح أيضا أسئلة أخرى مثل : «ما هي الشجاعة؟» «ما هي الحرارة؟»،

«ما هي القداسة ؟». أما السؤال الأهم الذي طرحه والذي أسس عليه عمله الشهير (الجمهورية) فكان «ما هي العدالة؟».

وعلى الرغم من أن الحوارات تنتهي دون التوصل الى إجابة قاطعة على تلك الأسئلة، إلا أن الأسلوب الجدلي الذي اعتمد في الإجابات يبين الفكرة المقصودة بشكل شديد الوضوح.



أفلاطـــون

٢ -الحوارات المتوسطة: وهي التي بدأت مع تأسيس أفلاطون لأكاديميته، وفيها نرى ظهور أفكار إيجابية في الأحاديث الواردة على لسان سقراط. وتتضمن حوارات هذه الفترة ما يمكن اعتباره أعظم أعمال أفلاطون وهي (الجمهورية).

وتبدأ (الجمهورية) بمناقشة عامة حول طبيعة العدالة، وبوضع صيغة للمجتمع السياسي المثالي، والتعليم المناسب لحكام هذا المجتمع.

والعدالة عند أفلاطون هي مبدأ لكل شيء يؤدي العمل المناسب لطبيعته، وهي مبدأ الحكم الأنسب لكل التصرفات. وبالمعنى السياسي، فإن هذا المبدأ يجب أن يحتضن من قبل المجتمع الذي يؤدي فيه المواطنون الأعمال المهيئين لأدائها، ففي نفس كل فرد من هذا المجتمع يكمن هذا المبدأ ولا يمكن اكتشافه إلا إذا أدى كل فرد الوظيفة التي تتناسب مع طبيعته.

وفي المجتمع، وعند كل فرد يجب أن يكون الحكم للعقل بشرط أن يكون مقرونا بالعدالة التي ستحقق الانسجام بين الأفعال والأحكام. وإن حكم العقل ليس طغيانا ولكنه انسجام بين أفراد المجتمع السعداء والمجتمع نفسه.

وفي حوارات هذه الفترة طور أفلاطون نظرية (الشكل) أو (الهيئة) المتعلقة بالأمور الطبيعية. ويفسر أفلاطون الشكل بأنه المبدأ الذي يشرح كون الشيء شيئا، وكيف يكون الشيء شيئا، وما هي المتطلبات التي يجب أن تتوفر لكي تتضح معالم الأشياء.

والشكل الخير أو الصحيح يتمتع بميزة فريدة تجعل منه مسؤولا عن الوجود وعن فهم العالم بشكل واضح. كما تتناول أعمال هذه الفترة تفسير (الفهم) نفسه بأنه الحكم على وجود الشيء بشكل حقيقي وواقعي وليس بأخذ فكرة عابرة عنه.

وتتناول هذه الأعمال أيضا الحب والموت، فالحب هو انجذاب خلاق نحو الجمال والخير، والموت هو انفصال الروح عن الجسد.

٣ - الحوارات المتأخرة : وهي التي كتبها بعد عودته من سراقوزا (صقلية)، ونرى فيها شخصية سقراط تتراجع إلى الخلف، لتظهر شخصيات أخرى جديدة كما في كتاب (السوفسطائي والسياسي) حيث تظهر شخصية زائر مجهول الاسم من مدينة (إيليا). ويبين السوفسطائي، أي المنظرٌ، كيف أن الفهم المناسب لمظهر الشيء يعتمد على كون الشيء موجودا أو غير موجود، وعلى العلاقة بين الجزئيات والأشكال الكاملة. وتتضمن حوارات هذه الفترة أيضا كتابا عن أصل وطبيعة الكون، وكتابا عن موقع المتعة في الحياة السعيدة، كما تتضمن أيضا كتاب (الشرائع) الذي يعتبر أطول وآخر أعمال أفلاطون، وفيه يضع أسس إنشاء المدينة الفاضلة.

وتتركز عقيدة أفلاطون بشكل عام حول فكرة (العقل) بأنه القوة القادرة على كشف المفهوم والنظام اللذين يحكمان العالم المتغير المظاهر، وعلى خلق الحياة المنسجمة السعيدة بين الحكومة والشعب. وبينما كانت نظرة سقراط بأن الفضيلة هي شكل من أشكال الفهم، وأن المعرفة هي السبيل إلى الحياة السعيدة، فإن نظرة أفلاطون هي أن التعليم الفلسفي يجب أن يهدف إلى خلق الانسجام بين العقل والعاطفة، وان الحياة السعيدة هي التي يكون فيها الإنسان سيد نفسه والتي يحكم العقل فيها إرادته لا كشيء دخيل عليها وإنما كدليل ومصدر طبيعي يهدي ويغذي تلك الإرداة.

وبعد وفاة أفلاطون استمرت تعاليمه سائدة لعدة قرون. وبعد إغلاق الأكاديمية ظهرت الأفلاطونية المحدثة التي لاقت رواجا في العهد البيزنطي والاسلامي كما انها كانت العامل الفكري المسيطر في الفلسفة اللاتينية خلال العصور الوسطى، ولا شك كان لها أثر كبير على الفلسفة الحديثة. كما شهد القرنان ١٩ و٢٠ ظهور نزعات اوربية - أمريكية قوية نحو الفلسفة الأفلاطونية.

وأفلاطون هو أرسطوقليس، الملقّب بأفلاطون بسبب ضخامة جسمه، وأشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق. ولد في أثينا في عائلة أرسطوقراطية. أطلق عليه

بعض شارحيه لقب "أفلاطون ". يقال إنه في بداياته تتلمذ على السفسطائيين وعلى كراتيلِس، تلميذ هراقليطس، قبل أن يرتبط بمعلِّمه سقراط في العشرين من عمره. وقد تأثر أفلاطون كثيرًا فيما بعد بالحُكم الجائر الذي صدر بحقٍّ سقراط وأدى إلى موته؛ الأمر الذي جعله يعي أن الدول محكومة بشكل سيئ، وأنه من أجل استتباب النظام والعدالة ينبغي أن تصبح الفلسفة أساسًا للسياسة، سافر إلى جنوب إيطاليا، التي كانت تُعتبَر آنذاك جزءًا من بلاد اليونان القديمة. وهناك التقى بالفيثاغوريين. ثم انتقل من هناك إلى صقلية حيث قابل ديونيسوس، ملك سيراكوسا المستبد، على أمل أن يجعل من هذه المدينة دولة تحكمها الفلسفة. لكنها كانت تجربة فاشلة، سرعان ما دفعته إلى العودة إلى أثينا، حيث أسَّس، في حدائق أكاديموس، مدرسته التي باتت تُعرَف بأكاديمية أفلاطون. لكن هذا لم يمنعه من معاودة الكرة مرات أخرى لتأسيس مدينته في سيراكوسا في ظلِّ حكم مليكها الجديد ديونيسوس الشاب، ففشل أيضًا في محاولاته؛ الأمر الذي أقنعه بالاستقرار نهائيًا في أثينا حيث تنتهي حياته محاطًا بتلاميذه.

■■■

١٦

أسطورة اسمها قارة أطلانتيس

هى أشهر قارة تحدثت عنها أقاصيص الشعوب القديمة وحضاراتها وأفاضت بوصفها مؤلفات كلاسيكية وأفلاما وثائقية حديثة، وتناقلت ذكراها شعوب عدة.. وبحثت العلوم الأكاديمية في آثارها المكتشفة ولا تزال. أما علوم باطن الإنسان "الإيزوتيريك" فتؤكد بأنها حقيقة تاريخية إنسانية كبرى.

فقد استقطبت هذه القارة المفقودة اهتمام الباحثين، وأطلقت تساؤلات عدة تستحث الفكر للغوص والتنقيب عنها بهدف تحديد موقعها الجغرافي وسبب اندثارها. لكن الأهمية تقبع في كشف النقاب عن التسلسل التاريخي للتطور الإنساني، وذلك للتعلم من أحداث الماضي وربطها بأحداث الحاضر لتقويم مسار المستقبل.

ولعل السؤال الاكبر الذي يطرح نفسه على الدوام هو : كيف تمكنت حضارة إنسانية عظيمة مثل الأطلانتيس أن تبلغ درجة متقدمة جدا من التطور والرقي؟. وكيف يمكن لأعداد كبيرة من البشر قد شارفت على الاكتمال بوعيها أن تخطئ وتعود إلى نقطة الصفر إلى بداية التاريخ الحجري للوعي مع ظهور إنسان العصر الحجري ؟!

فى شهر يونيو من عام ١٩٤٠، أعلن الوسيط الروحي الشهير " إدجار كايس " واحدة من أشهر نبوءاته عبر تاريخه الطويل ، إذ قال إنه ومن خلال وساطة روحية قوية يتوقع أن يبرز جزء من قارة أطلانطيس الغارقة بالقرب من جزر بهاما مابين عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ م.

ولقد اتهم الكثيرون كايس بالشعوذة والنصب عندما أعلن هذه النبوءة وعلى الرغم من هذا فقد انتظر العالم ظهور أطلنطس بفارغ الصبر.

وفى أحد الأيام صرخ أحد الطيارين المدنيين بهذه العبارة: قارة "أطلانطيس" وهو يقود طائرته فوق جزر البهاما عام ١٩٦٨، عندما شاهد مع زميله جزيرة صغيرة تبرز من المحيط، بالقرب من جزيرة " بيمن " وأسرع يلتقط آلة التصوير الخاصة به ويملأ فيلمها بصور لذلك الجزء من القارة المفقودة التي ألهبت الخيال طويلا.



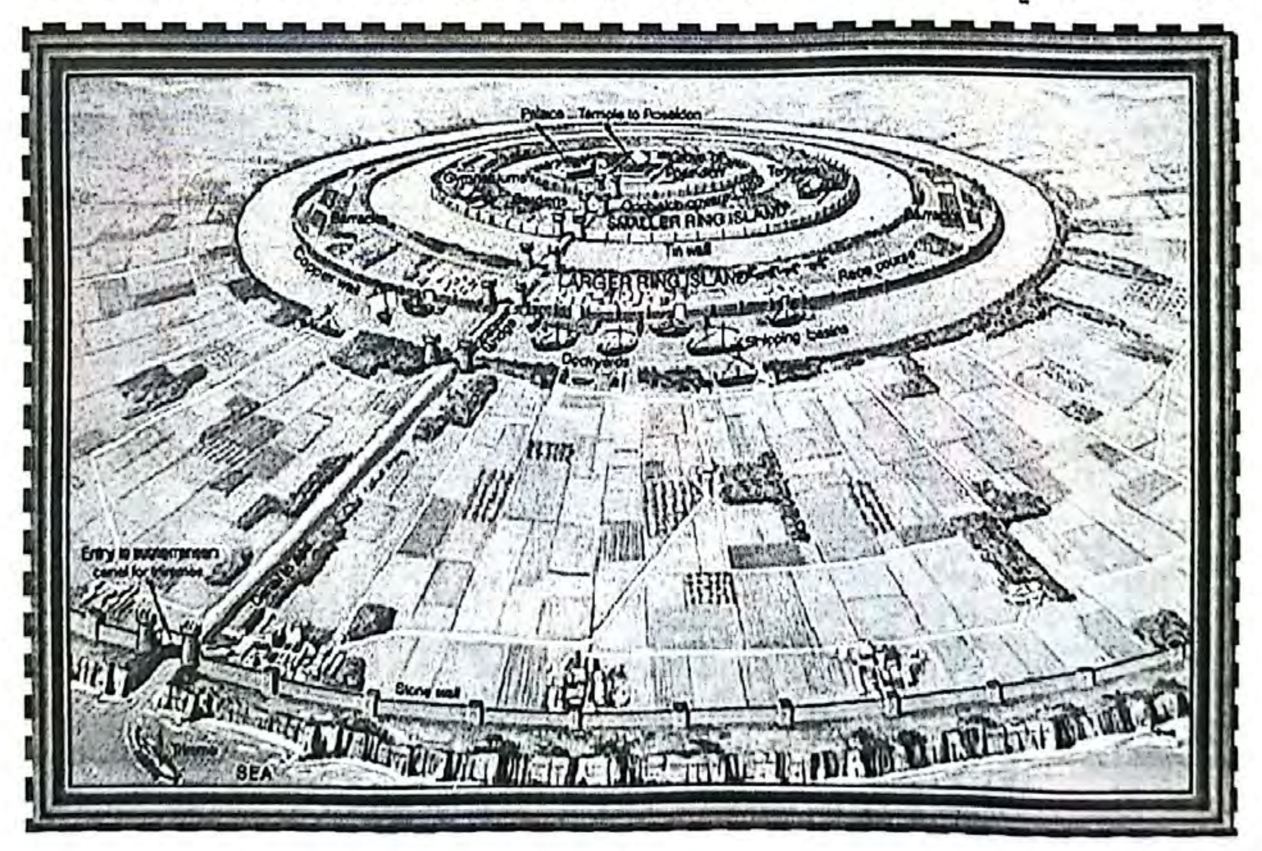
وكان لظهور ذلك الجزء في نفس الزمان والمكان الذين حددهما كايس في نبوءته وقع الصاعقة على الجميع مؤيدين ومعارضين، إذ كان في رأي الجميع الدليل الوحيد الملموس على وجود أطلنطيس.

وعلى مدار قرون طويلة، يخرج علينا العلماء و الباحثون من وقت لآخر ليقولوا إنهم عثروا على "أطلانتيس"، مرة في مياه البحار قبالة السويد، ومرة فلسطين ومرة تركيا ومرة كريت ومرة قرطاجة التونسية ومرة المكسيك ومرة القطب المتجمد الشمالي!

وهكذا تبدو "أطلانتيس" وكأنها شبح أفلت من كتب الفلسفة ليحتل مخيلة العلماء.

وللمصادفة، فقد عرضت قناة "ديسكوفري" حلقة عن "اكتشاف" علماء آثار أوروبيين لـ"اطلانتس" في مياه بحر إيجة، قبالة مدينة "سيتزريوني"، التي عُثر عليها مدفونة تحت ركام بركاني كثيف. ورأوا أن ثورة بركان في ذلك الموقع أدت إلى نتيجة مزدوجة: دفن "أطلانتس" تحت مياه البحر، ودفن المدينة الإيجية المذكورة تحت الحمم البركانية وغبارها. وعرضت القناة شريطاً يُظهر رسوماً على جدران تلك المدينة تتشابه مع رسوم أفلاطون عن "أتلانتس"!

ونشرت صحيفة "انتيكويتي"، المتخصصة بالمكتشفات الأثرية، دراسة لباحث ألماني من جامعة ويبيرتال، اسمه راينار كون. "تؤكد" العثور على "أطلانتيس" قبالة المرفأ الأسباني "كاديز"، حيث عثر على آثار لمعبدين يونانيين مدفونين تحت البحر.



هكذا تصور العلماء قارة " أطلانتس " المفقودة.

والحديث عن " أطلانتيس " يعود إلى زمن قديم، أقدم مما يمكن أن نتصور. فقد ورد ذكرها لأول مرة في محاورات أفلاطون حوالي عام ٣٣٥ ق. م.

ففي محاورته الشهيرة المعروفة باسم " تيماوس " يحكي كريتياس أن الكهنة المصريين استقبلوا " صولون " في معابدهم (وهذه حقيقة تاريخية) ثم يشير إلى أنهم أخبروا " صولون " عن قصة قديمة تحويها سجلاتهم تقول : إنه كانت هناك إمبراطورية عظيمة تعرف باسم " أطلانتس " تحتل قارة هائلة خلف أعمدة " هرقل " (مضيق جبل طارق حاليا) وأنها كانت أكبر من شمال إفريقيا وآسيا الصغرى مجتمعتين وخلفها سلسلة من الجزر تربط بينها وبين قارة ضخمة أخرى.

وقد وصف " كريتياس " أطلانتس " بأنها جنة الله سبحانه وتعالى في الأرض، ففيها تنمو كل النباتات والخضروات والفواكه، وتحيا كل الحيوانات والطيور، وتتفجر فيها ينابيع المياه الحارة والباردة، وكل شيء فيها نظيف وجميل، وشعبها من أرقى الشعوب وأعظمها.

وبالإضافة الى احتوائها على خبرات هندسية وعلمية تفوق - بعشرات المرات ما يمكن تخيله في عصر أفلاطون، إذ وصف كريتياس إقامتهم لشبكة من قنوات الري، والجسور، وأرصفة الموانئ التي ترسو عندها سفنهم وأساطيلهم التجارية الضخمة.

وهناك العديد من المعالم المادية التى بدأت تنكشف وتظهر تباعاً الى العلن تؤكد وجود قارة أطلانتس أهمها :

١- خارطة محفوظة في مكتبة الكونجرس في الولايات المتحدة تُعرف بخارطة "بيري ريس" التي تم العثور عليها عام ١٩٢٩ في قصر السلطان التركي المعروف الآن بـ "توب كابي"، حيث يَظهر اسم وموقع قارة أطلانتس على الخارطة.



خريطة بيري ريس

٢- وهنالك مخطوطة مصرية مكتوبة على ورق البردى تُدعى مخطوطة "هاريس " طولها ٤٥ مترا تشير إلى المصير الذي لاقته قارة أطلانتس وهي محفوظة في المتحف البريطاني.

٣- كذلك مخطوطة مصرية أخرى محفوظة في متحف "هيرميتاج" في مدينة بيترسبيرغ في روسيا تشير إلى إرسال الفرعون بعثة إلى الغرب بحثاً عن أطلانتس.

٤- وجود سلسلة جبال في قعر المحيط الأطلسي غرب مضيق جبل طارق صورتها بعثة روسية بواسطة غواصة تدعى " بيتروفسكي " عام ١٩٧٤. فبعد دراسة نوعية سلسلة الجبال هذه، تبين أنها كانت في القديم على سطح المحيط. ويقول الباحثون إنها كانت جزءاً من القارة المفقودة، أطلانتس.

٥- جمجمة من كريستال الكوارتز تم العثور عليها عام ١٩٢٤ على رأس معبد مهدم في هندوراس تحمل تفاصيل دقيقة جدا لجمجمة إنسان عادي دون أثر

لأية خدوش عليها. بعد دراسة هذه الجمجمة في المختبرات العلمية لشركة هيوليت- باكرد، تبين أن لها خصائص ضوئية لأنها إذا تعرضت لنور الشمس من زاوية معينة، انبثقت الأنوار من العينين والأنف والفم.



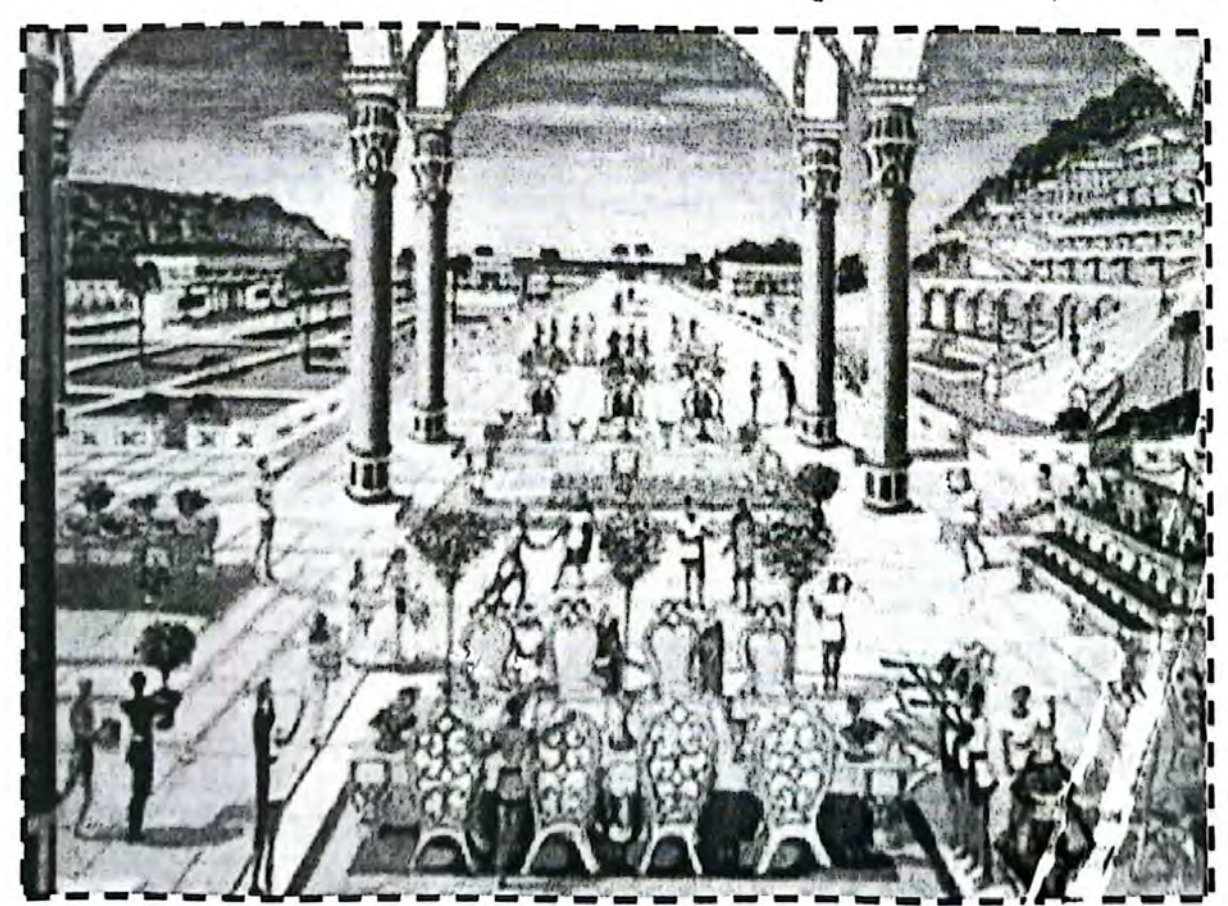
جمجمة الكريستال

وما أثار حيرة العلماء أن حجر كريستال الكوارتز يعتبر من أقسى الحجارة على الإطلاق بعد الألماس وبالتالي يصعب نحته. وإن نُحت، فلا بد لأثر (أو خدوش) الأدوات الحادة من أن تظهر عليه، في حين أن أي أثر لا يظهر على هذه الجمجمة حتى تحت المجهر. تبقى هذه القطعة المميزة والغامضة من أبرز الدلائل على وجود حضارة تكنولوجية متقدمة علينا وبالتالي ينسب بعض أشهر علماء اليوم جمجمة الكريستال هذه إلى الحضارة المندثرة أطلانتس.

ومن هذا المنطلق بدأت عشرات المحاولات لإثبات وجود أطلانطس وراح العلماء يبحثون عن أماكن أخرى بخلاف المحيط الأطلسي يمكن أن تكون المهد

الحقيقي لأطلانطس ، فأشار أحد العلماء إلى أن أطلانطس هي نفسها قارة أمريكا، وأكد آخر أن الجزر البريطانية هي جزء من قارة أطلانطس في حين اقترح البعض الآخر وجودها في السويد أو المحيط الهندي أو حتى القطب الشمالي.

ثم جاءت نبوءة " كايس " لتضع قاعدة جديدة للقضية كلها.. وبعد ظهور جزيرة كايس الصغيرة والمباني أو الأطلال الأثرية فوقها قرر باحث وأديب وغواص شهير يدعى "تشارلز بير ليتز" أن يبحث عن أطلانطس في نفس الموقع وبدأ بحثه بالفعل ليلتقط عددا من الصور لاطلال واضحة في قاع المحيط ومكعبات صخرية ضخمة ذات زوايا قائمة مقدارها تسعون درجة بالضبط مما ينفي احتمال صنعها بوساطة الطبيعة وعوامل التعرية وحدها . ولم يكن هذا وحده ما تم العثور عليه في تلك المنطقة من المحيط .



رسم يصور " هاريس ".

لقد عثر الباحثون بالقرب من سواحل فنزويلا على سور طوله أكثر من مائة وعشرين كيلومترا في أعماق المحيط ، وعثر السوفييت شمال كوبا على عشرة أفدنة من أطلال المباني القديمة في قاع المحيط.. وشاهدت ماسحة محيطات فرنسية درجات سلم منحوتة في القاع بالقرب من بورتوريكو.

وهكذا ظلت دائما مجرد أسطورة.. يعجز أي عالم أو باحث أثري مهما بلغت خبرته عن إثبات أو وجودها بصورة قاطعة.. إنها قارة (أتلانتس).. تلك القارة الغامضة التي يبدي أي عالم آثار استعداده لأن يدفع نصف عمره لاكتشاف أطلالها.

■ ■ ■

١٧

روما.. رومولوس بناها ونيرون أحرقها !!

تعد روما الإيطالية من أشهر مدن العالم القديم الساحرة، و أهم مدن أوروبا وهى مدينة تاريخية زاخرة بالفن والتراث .

و تروي الأسطورة إن " رومولوس " هو من أسس مدينة روما عام ٧٥٣ قبل الميلاد .و روما واحدة من أبرز عواصم العالم القديم التي تنفرد بثراء معماري تصميمي وتخطيطي، وهي من المدن التاريخية العريقة التي ظلت طيلة قرون عديدة تحرص بألا تكون مدينة خليط وليدة أنماط معمارية مختلفة من التراث الفني، بل ليكون لها طابعها الخاص المتميز ذو الصلة الوثيقة ببيئتها الجيولوجية والطبيعية والحضارية.

لم يصبها التحديث المعماري، بل امتزجت مع خلفيتها الطبيعية بانسجام تام، ولا يغيب عن الذهن الحريق الشهير الذي أشعل المدينة عام ٦٤ للميلاد والذي استمر تسعة أيام ودمر ثلاثة أرباع المدينة.

وروما العريقة على الرغم ما أصابها من دمار وتدمير متعاقبين، ظلت حتى نهايات القرن السابع عشر تصمم وتنشئ وتعيد بناء روائع معمارية تمثل أبرز الطرز المعمارية العالمية وتضاهي أو تتقدم مثيلاتها في عموم أوروبا، وهى تحفظ وتطور على نحو مستمر تقاليد وأساليب حلول وتصاميم معمارية.

وتملك روما ثروة لا مثيل لها من الآثار التي ترقى إلى الحقبة الاتروريّة وصولا إلى عصرنا الحديث. ولا يزال الغموض يلف التاريخ القديم لروما الذي

خضع أولا لسيطرة ملوك اتروريا ثم لسيطرة الجمهورية. بيد أن الإمبراطورية الرومانية التي حكمت في المرحلة الثانية، تركت إرثا غاية في الأهمية. ونذكر على سبيل المثال: البانتيون (شُيِّد عام ٢٧ ق.م وأعيد إعماره في العام ١١٨ بعد المسيح على إثر تضرره من حريق) الذي يُعتبر أحد أجمل المعابد الأثرية، وقد تم الحفاظ عليه إلى جانب عدد كبير من الآثار، منها نصب على غرار الكوليزه (٨٠ بعد المسيح) وهو مدرج عظيم أجريت فيه احتفالات قتال المصارعين وعروضات مختلفة، فوصلت إلينا وقد أفسدتها القرون.



وتعرف روما بغناها بالمعالم الأثرية المختلفة: القلاع المحصنة وأقواس النصر بالإضافة إلى الكنائس والقصور. ومن أبرز هذه المعالم: الفوروم الروماني وهو عبارة عن مركز للتجارة، حمامات كراكلا التي بنيت حوالى العام ٢١٢ والتي تستة بل خلال الصيف عروض الأوبرا، بالإضافة إلى السراديب التي تقع تحت الأرض، وكانت مقرا يجتمع فيه المسيحيون الأوائل واستخدت مدافن لموتاهم أيضا. وتمتاز روما كذلك بكنائسها وأهمها كنيسة القديس بطرس التي تحتضن

لوحة "العذراء المنتحبة" لمايكل أنجلو. وقد شُيِّدت في القرن الرابع وأعيد بناؤها في القرن السادس عشر.

كما تبرز ساحتا كامبيدوليو ونافونا، أما أهم التحف الحديثة التي تلفت الأنظار فهي من دون تردد "فورو إيطاليكو" المجمع الرياضي الذي بدأ العمل فيه في أوائل الحقبة الفاشية، وتم توسيعه لاستضافة الألعاب الأولمبية عام ١٩٦٠.

ويسبب التلوث الناتج عن عوادم السيارات مشاكل خطيرة للتراث الهندسي. لذلك اعتمدت المدينة تدابير معينة بغية الحد من حركة مرور السيارات في الوسط التاريخي الذي تجتاحه اليوم الدراجات الهوائية.

وتمثّل روما المركز العالمي للدراسات الفنية بفضل غناها العظيم في هذا المضمار. لذلك تملك المدينة مؤسسات مختصة، ولاسيما أكاديمية الفنون الجميلة والأكاديمية الوطنية للرقص، والأكاديمية الوطنية للفن الدرامي، بالإضافة إلى معهد سانتا سيسيليا الموسيقي والمعهد المركزي لترميم الآثار الفنية. ويقيم طلاب من مختلف أقطار العالم في روما، بعد عصر النهضة، لكي يستفيدوا من التواصل مع تراث المدينة.

ولهذا السبب، بنى لويس الرابع عشر أكاديمية فرنسا التي تستقبل في كل سنة فنانين ومؤرخين فرنسيين.

وتملك روما إحدى أجمل قاعات الأوبرا في البلد إلى جانب موقع تاريخي مخصص لفصل الصيف وهو "حمامات كاراكلا ". كما نجد أيضا حوالى عشرين مسرحا وست قاعات خاصة بالحفلات المهمة حيث تقدّم عروض مسرحية متنوعة طوال السنة.

أما في الجنوب الشرقي لمدينة روما فيقع مجمع سينسيتا السينمائي الذي شيد في أواسط الثلاثينيات والذي شهد تصوير بعض التحف الفنية للسينما الإيطالية والعالمية.

وتعدّ المتاحف الرومانية من أجمل المتاحف في العالم وهي لا تحصى وتضم

كافة أوجه الفنون والعلوم. وتتضمن أقدم مجموعة فنية للمدينة قطعا أثرية فريدة من نوعها، وهي محفوظة في المتحف الكابيتولي.

وفي روما متحف "فيللا جوليا" الوطني الذي يعرض مجموعة مميزة من التحف الفنية الأترورية والرومانية، ومتحف بورغيزه حيث اللوحات والمنحوتات والمتحف الوطني الروماني الذي صممه مايكل أنجلو.

وقد أُعلنت روما عاصمة لإيطاليا الموحدة في العام ١٨٧١، اختيرت ألوان العلم الإيطالي خلال مظاهرة طلابية وهى ألوان مفضلة في شمال إيطاليا منذ مئات السنين حيث اختارها الفيلسوف والشاعر دانتي الليجري كرمز للفضائل الثلاث الإيمان والأمل والإحسان .

تشتهر مدينة روما بجماليات نوافيرها المنتشرة في ميادينها وساحاتها العامة، ومن أجمل هذه النوافير على الإطلاق وأحد معالم روما الشهيرة:نافورة تريفيو. وهي نافورة تشغل حيزا كبير من الساحة بتماثيلها ونوافيرها والتي ينساب الماء منها على شكل شلالات صغيرة، تصب داخل البركة، وفي قراءة للتاريخ نجد أن هذه المياه كانت تنقل عبر قنوات معلقة وتنتهي في هذا المكان الذي يعرف الآن بنافورة "تريفي" وهذه القنوات بناها "أقريبا" في سنة ١٩ قبل الميلاد.

وفي القرن الخامس بعد الميلاد، أمر البابا "نيكولو الخامس" ترميم القناة الناقلة للمياه، وكلف " ليون باتيسيا البرتي" أن يبني حوضاً لتجميع المياه، في نفس مكان النافورة التي نشاهدها اليوم، أما الصخور والتماثيل المرمرية تم نحتها في القرن الثامن عشر، بواسطة الفنان "نيكولو سالفي" الذي نسق بإبداعه الفني بين التمثال الكبير الذي يتوسط العمل الفني للتماثيل المنحوتة داخل النافورة، ونرى علي جانبي النافوة تمتد الصخرة ليتجمع عليها نحوتات لعروس البحر.

ومن الأساطير التي تروي عن هذه النافورة أن كل من يلقي بداخلها قطعة نقود لا بد وأن يعود مرة ثانية لروما.

وتقول الأساطير بأن روما تأسست على يد رومولوس، بمساعدة أخيه ريموس، اللذين كانت أمهما هى ريا سليفيا كاهنة في معبد الإله فيستا آلهة الموقد وفى يوم عندما كانت ذاهبة إلى بستان الإله مارس ظهر لها في هيئه بشرية واغتصبها وكان من الفروض أن كاهنات المعبد عذراوات فسجنت ووضع الطفلان في صندوق وألقى في النهر حتى استقر الصندوق على الشاطىء فرأتهما ذئبة كانت قد وضعت فارضعتهما. قتل أخيه وأصبح أول ملك على المدينة.

وتشكلت الشعوب الرومانية القديمة في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد، حينما أتت قبائل شمالية إلى عمق شبه الجزيرة الإيطالية لتستقر عند نهر التيبر. لعدة قرون على مر الزمن، كانت روما أهم مدينة في العالم الغربي، عندما كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية. مع ظهور الدعوة المسيحية وانتشارها، أصبحت روما مركزا للدين المسيحي ومقر باباوات الكنيسة الكاثوليكية. في العصور الوسطى وخاصة بعد انحطاط الإمبراطورية الرومانية، دخلت روما عهدا مظلما. سطع نجمها مجددا في عصر النهضة وأصبحت من خلال فناني وأدباء إيطاليا عاصمة سياسية لأوروبا.

وكسبت روما، التي كان عدد سكانها ٢٠٠٠٠ نسمة فقط، معنى جديدا منذ عهد بيبين كعاصمة للدولة الكنائسية. وأضحت أهم وجهة للحجاج المسيحيين إلى جانب القدس وسانتياغو دي كومبستيلا. توج كارل الكبير في عام ٨٠٠ على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة على يد البابا ليو الثالث. بين ٨٤٣ و٨٤٩ فشلت محاولات المسلمين فتح المنطقة.

وأصبحت روما بعد زوال الدولة الكنيسية عاصمة إيطاليا الجديدة في عام ١٨٧١. أنهى موسوليني أثناء حكمة ارتباط الدولة بالدين وفصل مدينة الفاتيكان سياسيا عن روما وأعلن استقالالها في الاتفاقات اللاتيرنية عام ١٩٢٩. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية غادر ملك البلاد إيطاليا وأعلنت جمهورية في ١٩٤٦. أجريت الألعاب الأوليمبية الصيفية في روما في ١٩٦٠

وقد نشأت روما القديمة عندما استوطنت جماعة صغيرة من الرعاة في وسط إيطاليا وأصبحت واحدة من الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ ثم انهارت.

تأسست مدينة روما حسب القصص الروماني، سنة ٧٥٣ ق.م. وفي نحو سنة ٢٧٥ ق.م. سيطرت روما على معظم شبه الجزيرة الإيطالية وشملت الإمبراطورية، وهي في أوجها، في القرن الثاني الميلادي، نحو نصف أوروبا والقسم الأكبر من الشرق الأوسط والساحل الشمالي لإفريقيا. ثم بدأت في التفتت. وأطاحت القبائل الجرمانية، المولعة بالحرب، بآخر إمبراطور روماني سنة ٤٧٦م.

وكان الملايين من الناس، الذين عاشوا في الإمبراطورية الرومانية، يتكلمون لغات متعددة، ويتبعون تقاليد وأديانًا مختلفة. ولكن الإمبراطورية الرومانية ربطتهم جميعًا بنظام قانوني وحكم مشترك. وقد أثار هذا الإنجاز البارز الاهتمام والإعجاب منذ الأزمنة القديمة وحتى الوقت الحاضر.

كان لروما القديمة تأثير كبير على تطور الحضارة الغربية؛ لأن هذه الإمبراطورية كانت واسعة للغاية، ودامت زمنا طويلا، فقد أصبحت لغة الرومان القدماء - وهي اللغة اللاتينية - أساسًا للغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية، واللغات الرومانسية الأخرى. كما قدم القانون الروماني الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية. وأسهمت مبادئ العدالة الرومانية والنظام السياسي الروماني في إقامة حكومات في عدد كبير من البلاد في الغرب. كما ظلت بعض الطرق والجسور والقنوات الرومانية تستخدم نماذج للمهندسين في العصور اللاحقة.

وكان للإمبراطورية الرومانية موارد طبيعية متعددة، من حقول القمح الخصبة في صقلية وشمالي إفريقيا، إلى المناجم المعدنية الغنية في أسبانيا وبريطانيا، ومحاجر الرخام في اليونان. كما وُجدت أيضًا غابات كثيفة في آسيا الصغرى، وبساتين الكروم والزيتون في الغال (وهي حاليًا فرنسا وبلجيكا وجزء من ألمانيا).

وتختلف الشعوب التي رزحت تحت هيمنة الإمبراطورية الرومانية اختلافًا كبيرًا في التقاليد واللغات.

فثقافات سكان بلاد الرافدين وفلسطين ومصر واليونان كانت أعرق وأقدم من حضارة روما. ولكن شعوبًا عديدة، في كل من بريطانيا وألمانيا والغال، تعرفت عن طريق الرومان، على حضارة أكثر تقدمًا. وقد تكلم موظفو الحكومة وأفراد الطبقة العليا، في كل أرجاء الإمبراطورية، اللغتين اللاتينية واليونانية. ولكن معظم الشعوب المغلوبة استمرت في استخدام لغاتها المحلية؛ ففي كل من الغال وبريطانيا، مثلاً، كان الناس يتكلمون اللغة السلتية، وفي شمالي إفريقيا اللغة البربرية ويتكلمون في سوريا وفلسطين الآرامية، وفي مصر اللغة المصرية القديمة في لهجتها القبطية.

انقسم سكان روما القديمة إلى طبقات اجتماعية متعددة. وكانت قلة من الرومان تنتمي إلى الطبقة العليا. وشكَّل أعضاء مجلس الشيوخ وعائلاتهم الفئة الأعظم نفوذًا من بين أفراد هذه الطبقة، أما معظم الناس فكانوا من الطبقات الدنيا، ومكانتهم الاجتماعية وضيعة. وكان الرومان يُميِّزون، داخل الفئة الأخيرة نفسها، بين المواطنين والمستعبدين. فقد ضمت فئة المواطنين المزارعين الصغار وعمال المدن والجنود، في حين كان معظم المستَعْبَدين أناسًا تم أسرهم في الحروب. وقد أصبح بإمكان المستعبدين، في وقت لاحق، أن يشتروا أو يُمنحوا حريتهم ويصبحوا أحرارًا، ثم مواطنين في نهاية المطاف.

ومع توسع العالم الروماني ظهرت طبقة اجتماعية جديدة تتمتع بأهمية كبيرة. تألفت من ملاك الأراضي الأثرياء وأصحاب الأعمال. وقد أطلق عليها اسم طبقة الفرسان، واحتل أفرادها، في ظل الأباطرة، مناصب حكومية مهمة، وأسهموا في إدارة الخدمات المدنية للإمبراطورية.



الكولوسيوم (مدرج روما القديمة)

ويعد الكولوسيوم (مدرج روما القديمة) أهم معالم روما القديمة .

وتقول الأسطورة: مادام الكولوسيوم قائما ستبقى روما قائمة وحين تسقط روما سيسقط العالم بأسره.

شيد هذا المبنى الضخم على شكل مدرج ومسرح نصف دائري في وسط العاصمة الايطالية منذ ألفي سنة كأكبر شاهد على عظمة العالم القديم والإمبراطورية الرومانية. حين تتجول هذه الأيام في أروقة الكولوسيوم تحس وكأن الأحجار تتكلم وتخاطبك الآثار بما مر عليها من غزاة صنعوا التاريخ.

ورأيت البعض يقرأ في ساعة الغروب كتاب مرغريت يورسينار «مذكرات الإمبراطور ادريانو» الذي انتصر على الملكة زنوبيا في تدمر بسورية، وتذكرت موسيقى «صنوبر روما» للموسيقار رسبيغي تصور جحافل جيوش الرومان تتقدم في الشرق والغرب لتقيم أضخم إمبراطورية في الزمن القديم

وربما كان مارش النصر من أوبرا «عايدة» لفردي أنسب قطعة نستمع إليها تحت قوس قسطنطين المجاور.

ويعتبر الكولوسيوم تحفة هندسية لفن العمارة بمحيط دائرة تصل إلى ٥٢ مترا واستعمل فيه الحجر الجيري، وهو مؤلف من أربعة طوابق يحمل الطابق الأول أعمدة من النوع الدوري (وهو أبسط وأقدم نوع من الأعمدة في الهندسة المعمارية الأغريقية) ويليه طابق تحمله أعمدة من النوع الأيوني (نسبة الى ايونيا اليونانية) ثم ترى الطابق الثالث تحمله أعمدة من النوع الكورنثي (نسبة إلى كورنث في اليونان التي اشتهرت قديما بالترف والتهتك وتزدان تيجان الأعمدة بزخارف تشبه أوراق الاشجار) وله ثمانون مدخلا مثل ملاعب المدن الرياضية الحديثة أما داخله فينقسم إلى ثلاثة أقسام: المسرح المدور أو مكان التنافس والمنصة العالية ومقاعد المتفرجين .وتتقسم حسب طبقاتهم من الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ وبقية أفراد الشعب.

وقد انتبه الرومان منذ ذلك الوقت إلى ضرورة السيطرة على مواطنيهم بتوفير الخبز وتسليتهم بالرياضة.

وقد أقيم المدرج بالقرب من دار الإمبراطور نيرون الذي أحرق روما كتعويض لأهلها عن الضيم الذي لحق بهم بعد مصادرة نيرون لأرضهم وسمي كولوسيوم نسبة إلى تمثال نيرون البرونزي الضخم في شكل إله الشمس وارتفاعه ٣٨ مترا، والذي كان منتصبا بالقرب من المدرج في أول شارع النصر (أو المنصة الإمبراطورية الآن) بعد أن جره ١٢ فيلا لإقامته في ذلك الموقع وبني بالقرب منه قوس قسطنطين عام ٣١٥ بعد الميلاد تكريما لنصر الإمبراطور الذي بنى

القسطنطينية والذي قلده الفرنسيون في قوس النصر بباريس. وتم تحطيم التمثال في القرن السادس بأمر من البابا غريغوري الكبير حين تنصرت روما وردا على اضطهاد المسيحيين ثم إجبارهم على مصارعة الأسود.

بدأ إنشاء الكولوسيوم عام ٧٢ بعد الميلاد ودشنه الإمبراطور تيتوس الذي هدم المعبد في القدس بعد ٨ سنوات من البناء فأقيمت فيه الألعاب الرياضية لمدة مائة يوم قتل خلالها خمسة آلاف حيوان مفترس ونصب البحارة خياما وأشرعة على سقفه لحجب ضياء الشمس القوية عن المتفرجين أما الآن فيتوافد عليه السياح من كافة بقاع الأرض ويقضون ساعات طويلة من دون غطاء يحميهم من أشعة الشمس الحارقة، خلال موجة الحر الشديد لكن ذلك لم يمنع البعض من إقامة حفلات الزواج والتقاط الصور التذكارية في بهو المدرج، أو مكان صراع العبيد أو الأسرى أو المارقين مع الوحوش الضارية.

بعد تحطم جزء من الكولوسيوم إثر هزة أرضية عنيفة في القرون الوسطى استخدم أمراء عصر النهضة قسما من حجارة المدرج لبناء قصورهم العامرة مثل باباريني الذي تحول إلى متحف الآن وفرنيزي الذي استولى عليه نابليون ليصبح مقر السفارة الفرنسية.

وبالنظر إلى صفحات تاريخ روما نجد بعضها يقطر دماً وتتصاعد منه آهات وأنين، ومن هذه الصفحات المؤلمة تطل علينا شخصية نيرون الإمبراطور الروماني الذي لم يدخر جهداً في تعذيب أبناء شعبه وقتل القريب منه والبعيد، بعد أن قتل أمه ومعلمه، والأخطر أنه أحرق روما ودمر ثلاثة أرباعها .

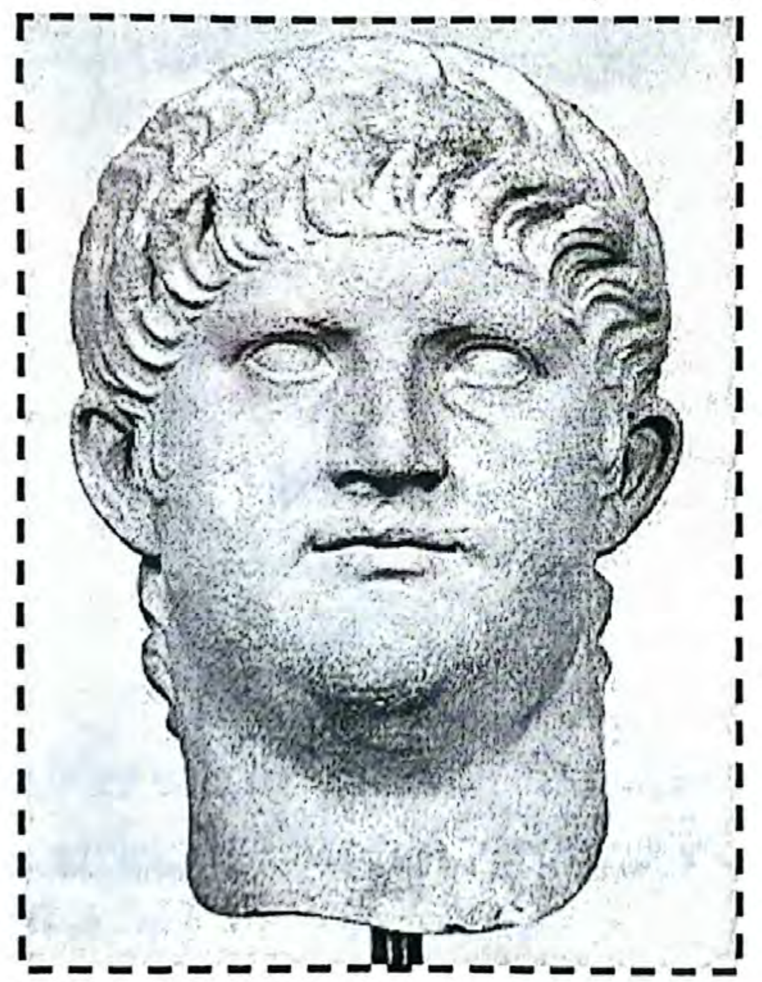
ولد نيرون عام ٣٧م بأنتيوم والده هو جناوس دوميتيوس أهينوباريوس كان من طبقة النبلاء بروما أما والدته فهي أجريبينا الصغرى حفيدة الإمبراطور أوغسطس، والتي من الممكن أن يكون نيرون قد ورث عنها ميولها الوحشية.

توفى والده عندما كان نيرون ما زال طفلاً صغيراً فقامت والدته بالزواج من الإمبراطور كلوديوس عام ٤٩م، وبعد زواج أجريبينا وكلوديوس قام الأخير بتبني

نيرون فجعله كابن له وأطلق عليه اسم نيرون كلوديوس دوق جرمانكوس، كما تزوج نيرون من أوكتافيا ابنة كلوديوس.

صعد نيرون إلى عرش روما وهو في الخامسة عشرة من عمره، وبدأ منذ هذه اللحظة سلسلة من الأحداث المتتابعة فلم يصعد نيرون إلى العرش لأنه يستحقه أو لأنه ابن للإمبراطور السابق، بل لقد قامت والدته بدس السم لكلوديوس لكي يعتلي ابنها العرش.

كانت السنوات الأولى التى اعتلى فيها نيرون عرش الإمبراطورية الرومانية سنوات معتدلة تميزت بالاستقرار النسبي، وقد أرجع البعض هذا نظراً لوجود معلمه " سينيكا" بجواره يوجهه ويرشده، هذا المعلم الذي اعتنى بالقيم والأخلاق وترويض النفس، ولكن دوام الحال من المحال فما لبث أن قام نيرون باتباع أساليب عديدة من العنف والجور والظلم لأبناء شعبه فقتل وعذب وقهر.



نيرون أحرق روما بسكانها لارضاء ذاته المريضة !!

تبع صعود نيرون إلى عرش الحكم تحوله إلى الظلم والقهر، وبدأت معاناة الشعب ولم يقتصر هذا على الشعب فقط بل امتدت يده لتبطش بأقرب الناس إليه فقتل أمه ومعلمه "سينيكا" كما قتل زوجته أوكتافيا، وأخاه، وانتقلت يده لتقتل بولس وبطرس الرسولين المسيحيين زيادة في بطشه وظلمه وطغيانه.

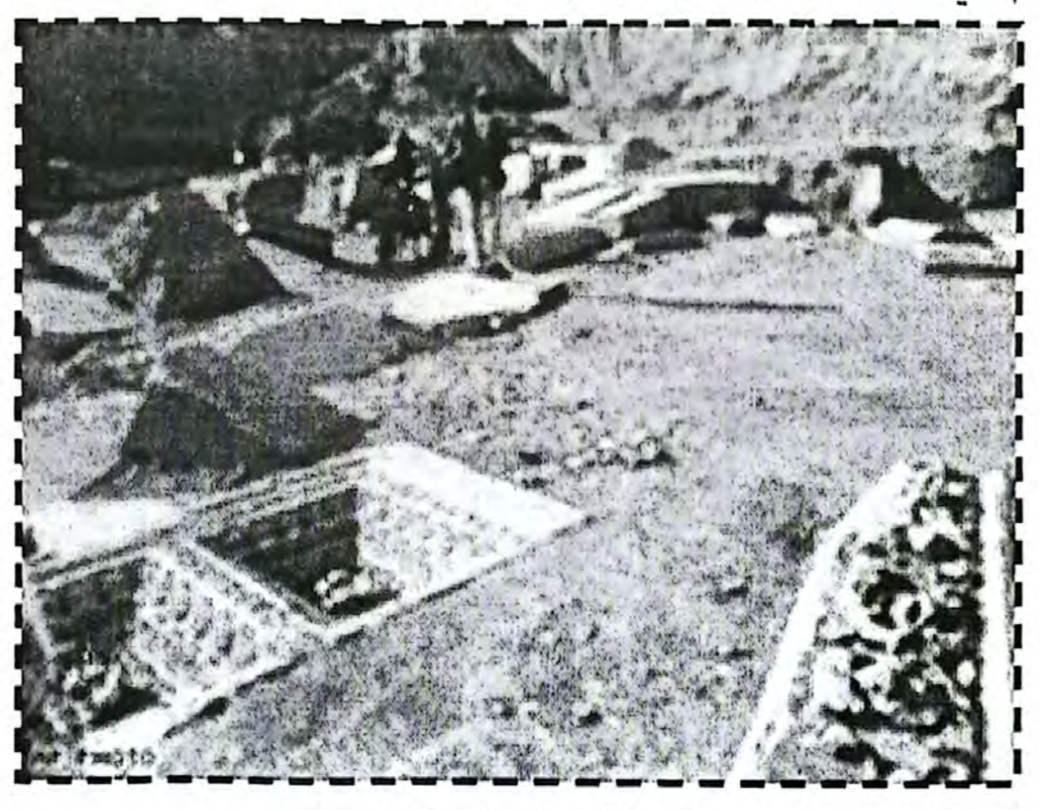
قيل في إحدى الروايات عن قتله لزوجته أوكتافيا أنه عندما كان يؤدي دوراً في مسرحية وكان يمسك بيده صولجاناً فسقط من يده، وقامت زوجته بمدح أدائه في المسرحية ولكنها علقت بقولها " ولكن لو أنك لم تسقط الصولجان" وكانت هذه الجملة هي نهاية أوكتافيا فبادر نيرون بقتلها، وكانت المسكينة أوكتافيا عبرة لغيرها فلم يستطع أحد بعدها أن ينتقد أي عمل يقوم به نيرون.

وعن السبب الذي دفعه لقتل معلمه قيل آن " سينيكا" كان فيلسوفا رومانيا شهيرا له شعبيته بين الشعب وكان المعلم الخاص لنيرون ومستشاره المخلص فعمل على تقويمه وكبح جماح وحشيته، ولكن التف المرابون حول نيرون وتحولت أخلاقه من سيء إلى أسوأ، فأكثر "سينيكا" من توبيخه محاولاً تعديله وتقويمه دون فائدة، وفي النهاية ضاق نيرون من معلمه ونصائحه المستمرة له، كما أوشى له البعض بضرورة التخلص من "سينيكا" خاصة لما كان له من تأثير قوي على الشعب الذي كان يلتف حوله فوجب إسكاته، وبالفعل عقد نيرون العزم على قتله ولما علم "سينيكا" بهذا فضل أن يقتل نفسه على أن يتم قتله على يد هذا الطاغية.

جاء انتشار الديانة المسيحية في روما لتكون سبباً آخر في زيادة ظلم نيرون، خاصة عندما وجد أن كثيرا من الشعب قد دخل إلى المسيحية، وجاء التاريخ ليدون واحدة من أبشع الجرائم التي ارتكبت فيه وهي حريق روما الشهير عام ٦٤م، حيث عمل على زيادة تعذيب الشعب وجاءت أبشع صور طغيانه لتضيف جريمة جديدة لتلك التي فعلها في حياته حيث قام بإشعال النار في روما وجلس متفرجاً، متغنياً بأشعار هوميروس ومستعيداً لأحداث طروادة، وانتشرت النيران في أرجاء روما واستمرت مندلعة لأكثر من أسبوع حاصدة معها أرواح البشر من رجال ونساء وأطفال، كما زاد في جوره وطغيانه للمسيحيين ولم يترك أي وسيلة

لتعذيبهم إلا وفعلها.

بعد حريق روما وتصاعد النبرة الغاضبة الكارهة له سواء من شعبه أو من باقي ملوك أوربا، مشيرة إلى أنه السبب وراء هذا الحريق الهائل، عمد إلى إيجاد ضحية جديدة ليفتدي بها نفسه فكان عليه أن يختار ما بين اليهود والمسيحيين، وبما أن اليهود كانوا تحت حماية بوبياسبينا إحدى زوجات نيرون، فلم يتبق لديه سوى مسيحيي روما فألصق تهمة الحريق بهم، فسفك دماءهم وعمد إلى اضطهادهم، وحشد الشعب من أجل هدف واحد وهو قتل المسيحيين وتعذيبهم في مشاهد دموية وحشية بشعة.



المقبرة التي عثر عليها بالصدفة

ولأن كثرة الظلم تولد الثورات، فاجتمع العديد من الناس ورجال المملكة على عزل نيرون، فتم عزله وحكم عليه بالقتل ضرباً بالعصا، وشاءت الأقدار أن اليد التي امتدت لتقتل وتبطش هي نفس اليد التي تلتف وترتد لصاحبها مرة أخرى لتقتله.

فقد أبى نيرون على نفسه أن يقتل بيد شعبه فقتل نفسه، وقيل في بعض الروايات أنه أمر كاتم أسراره بقتله، وقيل أيضاً إن الجنود انقضوا عليه فقطعوه

بسيوفهم قطعاً، فكانت وفاته عام ٦٨م.

وفي شهر نوفمبر عام ٢٠٠٨، عثر عمال في مشروع لتجديد ملعب "رغبي" على مقبرة ضخمة تحت مدينة روما تشبه في تصميمها مدينة متكاملة بشوارعها ومنازلها، وفقا لما ذكره مسؤولون إيطاليون.

وقال مسؤولون في وزارة الثقافة الإيطالية إن قطع الخزف التي تعود للقرون الوسطى والتي عثر عليها في "مدينة الموتى"، تظهر أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان خلال العصور المظلمة بعد أن كانت تستخدم لقرون لدفن الموتى في الفترة الرومانية.

ومن غير الواضح حتى الآن من هم الذين دُفنوا في تلك المقبرة، لكن علماء الآثار الذين يتابعون التنقيب في الموقع أكدوا أن بعض الموتى هم عبيد يونانيون جرى تحريرهم، وفقا لما أوردته وكالة أسوشيتد برس.

وقالت عالمة الآثار مارينا بيرانومونت "إنها مسألة أسابيع قليلة لاكتشاف ما هو مدفون هناك.. إنه بالتأكيد شيء كبير ومهم، إذ تبدو المقبرة كأنها أحد الأحياء الكبيرة."

وفي حفريات منفصلة شمال مدينة روما، كشف العلماء عن قبر أحد الأشراف، وهو الذي قاد جيوش روما في القرن الثاني الميلادي، وكان الضريح مغطى بالطين بسبب فيضان نهر "تيبر" ما ساعد في الحفاظ على مجموعة رائعة من الزينة والرخام والأعمدة والنقوش.

وأظهرت الكتابات في ذلك الضريح أن صاحب القبر هو ماركوس نونيوس ماكرينوس، وهو أحد أقرب مساعدي وجنرالات الإمبراطور ماركوس أوريليوس خلال الحملات التي شنها ضد القبائل الجرمانية في أوروبا الشمالية.

ويعتقد علماء الآثار الذين يعملون على ترميم قصر في منطقة "بالاتين هيل" في قلب روما القديمة، أنهم اكتشفوا ممرا تحت الأرض جرى فيه قتل الإمبراطور الطاغية كاليغولا على يد حراسه.

١٨

بيزنطة.. من جستنيان حتى محمد الفاتح

بيزنطة أو بيزنطية هي مدينة إغريقية قديمة كانت تقع على مضيق البوسفور بتركيا. أسست عام ٦٥٨ ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين. وفي عام ٣٣٥م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية).

وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الإرثوذكسية الشرقية بكنيسة آيا صوفيا (مسجد آيا صوفيا حاليا). وكان محمد الفاتح العثماني قد أسقطهاعام ١٤٥٣م وأطلق عليها (إسلام بول). ثم أطلق عليها العثمانيون الآستانة. وحاليا يطلق عليها إسطنبول.

والإمبراطورية البيزنطية هي إمبراطورية تاريخية كانت عاصمتها القسطنطينية (بيزنطة). وكان يطلق عليها الإمبراطورية الرومانية الشرقية وكلمة بيزنطي اخترعها مؤرخ ألماني (هيرونيموس ولف) سنة ١٥٥٧ . ونشرها الفرنسيون في القرن ١٨ للإشارة للإمبراطورية الرومانية الشرقية. رعايا الإمبراطورية كانوا يستخدمون كلمة روماني وكان إمبراطورهم يدعى الإمبراطور الروماني. عاشت الإمبراطورية البيزنطية ما يزيد عن أحد عشر قرناً ونصفا من الزمان.

وظلت قائمة حتى عام ١٤٥٣ م. وكانت معبرا للقوافل التجارية بين الشرق والغرب.

كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية قبيل وفاة الإمبراطور ثيوديسيوس الأناضول بآسيا واليونان وجزر بحر إيجه وأرمينية وآسيا الصغرى وسوريا والجزيرة الفراتية السورية ومصر وبرقة.

وعندما اعتلى الإمبراطور جستنيان العرش بدأ في تنفيذ مشروعه بتوحيد الإمبراطورية الرومانية الكبرى مرة أخرى، فاستطاع في غضون ٣٠ عاما تقريبا ضم شمال إفريقيا, وجنوب أسبانيا، إقليم دلماشيا، وإيطاليا، بالإضافة إلى استيلائه على جزر البحر المتوسط مثل سردينيا و كورسيكا,وبذلك أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية مرة آخرى.

كانت هذه الإمبراطورية تأخذ طابعا إغريقيا في الثقافة والعلوم حيث حافظت على التراث الإغريقي والروماني.

كما تأثرت بحضارات وفنون سوريا ومصر وبلاد الإغريق ومابين النهرين . لكن البيزنطيين إستحدثوا لهم ثقافاتهم وطرزهم المعمارية الخاصة بهم ولاسيما في بناء الكنائس والقصور والحمامات والمكتبات والمستشفيات والخانات والأسواق المغطاة وبيوت الضيافة على طرق القوافل. واشتهروا بالأيقونات الملونة. واشتهرت مخطوطاتهم بالتزيين والخط البديع وتهميش الصفحات ووضع العناوين.

كما اشتهروا بصناعة أبواب القصور والقلاع المصفحة ونسج الحرير الملون وصناعة الأختام من الرصاص والسيراميك (الفسيفساء) والزجاج الملون وسك الدنانير البيزنطية الذهبية والتي كانت متداولة في الإمبراطورية.

أما مصطلح الإمبراطورية البيزنطية هو من اختراع المؤرخين ولم يستعمل قط خلال مدى عمر الإمبراطوريه. مصطلح "البيزنطية" يأتى من اسم مدينة القسطنطينية نفسها "بيزنطة".

يرجع أصل اللفظة Byzantion اليونانية Bu zavntion إلى اسم بلدة قديمة بناها الإغريق على ساحل البوسفور الأوروبي، قبل أن تصبح عاصمة قسطنطين. هذا الاسم الأقدم للمدينة نادرا ما استخدم من هذه النقطه فصاعدا إلا في

سياقات تاريخية أو شعرية. تسمية الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالإمبراطورية "البيزنطية" بدأت في أوروبا الغربية في سنة ١٥٥٧.

لكن السؤال هنا: هل إطلاق لفظة (يزنطي) لأي شخص لها تأثير في الشخصية؟ بمعنى آخر: "أنت شخص بيزنطي" عند المجادلة، هل يدل ذلك على تحجر في التفكير، أو قوة مجادلة أم ماذا ؟

كان العرب يطلقون عليها اسم بلاد الروم وكانت على الحدود الشمالية لسورية. وكان مؤسسها الإمبراطور قسطنطين قد جعل عاصمتها القسطنطينية عام ٣٣٥م. بعدما كانت روما عاصمة للإمبراطورية الرومانية. والتي أصبحت بعد انفصال جزئها الشرقي (البيزنطي) عاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية. وظلت روما مقرا للكنيسة الكاثوليكية الغربية وبها كرسي البابوية (الفاتيكان)، وبعد أن انتشرت الإمبراطورية شرقا وضمت كامل سوريا للإمبراطورية الرومانية .

أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية ٤٧٦ Eastern Roman Empire فهو الاسم المعطى إلى الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية بعد تقسيمها في القرن الثالث الميلادي. عاصمتها مدينة القسطنطينية أو (روما الجديدة).إنه يمثل تقسيما إداريا من الإمبراطورية الرومانية، ولكنها نجت بعد سقوط الجزء الغربى من الإمبراطورية الرومانية حتى سقوط القسطنطينية في عام ١٤٥٣م. شرق الإمبراطورية كان يطلق عليه أيضا اسم الإمبراطورية البيزنطية. مصطلح "الإمبراطورية البيزنطية" بدأ من القرن السابع عشر.

وخلال القرنين الثاني والثالث، جاءت ثلاث أزمات معا وهددت انهيار الإمبراطوريه الرومانية: الغزوات الخارجية، والحروب الأهلية الداخلية، والاقتصاد تعتريها نقاط الضعف والمشاكل وفي غضون ذلك، أصبحت مدينة روما أقل أهمية بوصفها المركز الإداري للإمبراطورية الرومانية. أزمة القرن الثالث أظهرت عيوب النظام المتجانس للحكومة التي أنشأت أوغسطس لإدارة

الإمبراطورية الرومانية. أدخل خلفاؤه بعض التعديلات، ولكن الأحداث وضحت أن نظاما عالميا جديدا موحدا أكثر مركزية هو النظام المطلوب.

بدأ تقسيم الإمبراطورية في أواخر القرن الثالث من قبل ديوكلتيانوس في عام ٢٨٦م، كانت تهدف إلى السيطرة بكفاءة على الإمبراطورية الرومانية الإمبراطورية الرومانية الغربية (Western Roman Empire) يشير إلى النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

النصف الآخر من الإمبراطورية الرومانية أصبح يعرف باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأصبحت معروفة على نطاق واسع باعتبارها الإمبراطورية البيزنطية والتي قامت مدنها بشكل كبير في كافة أرجاء سورية.

قسم ثيودوسيوس الأول (يطلق عليه أيضا اسم "العظيم") الإمبراطورية الرومانية لولديه آركاديوس إلى الشرق (مع عاصمة بلاده في القسطنطينية) وهونوريوس في الإمبراطورية الغربية (مع عاصمة بلاده في ميلانو).

ويعد جستنيان الأول من أهم حكام بيزنطة. كان اهتمام جستنيان الأول هو إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية في الغرب، فقد كانت كل الولايات الرومانية في الغرب تحت سيطرة حكام من الجرمان،فإن القوط الشرقيين كانوا يحكمون إيطاليا، والوندال في شمال إفريقيا،والقوط الغربيين في أسبانيا، والفرنج في غاله، والانجلوساكسونيين في إنجلترا.

وقد بلغت الإمبراطورية البيزنطية أقصى اتساعها في عهد جستنيان الذي حكم ما بين عامي ٥٢٧م و٥٦٥م.تم استرداد إيطاليا بما فيها روما على يد قائده بليزاريوس.كما اتسعت الإمبراطورية بضم آسيا الصغرى (تركيا الحالية) وشبه جزيرة البلقان وسوريا وشمالي إفريقيا وفلسطين والساحل الجنوبي لأسبانيا. وقد ساعدت بطولة بليزاريوس وبسالته في ميدان القتال على رسم صورة لعهد جستنيان كعصر ذهبي في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية..

وفي سنة ١٠٧١م، انتصر السلاجقة الأتراك على الرومان الشرقيين في

موقعة ملازكر وكان من أهم نتائج ذلك الانتصار تثبيت قدم الأتراك في آسيا الصغرى وتأسيسهم سلطنة سلاجقة الروم.

وطلب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس الذي اعتلى العرش سنة ١٠٨١م المساعدة من مسيحيي أوروبا الغربية، للدفاع عن الإمبراطورية ضد الأتراك . وكان هؤلاء قد سيطروا على الأراضي المقدسة وهددوا الإمبراطورية البيزنطية كذلك. وأصبحت الحملات العسكرية التي قام بها مسيحييو أوروبا الغربية على الأراضي المقدسة تعرف باسم الحروب الصليبية. وخلال الحملة الصليبية الأولى، استولى الصليبيون على المناطق الساحلية من الأراضي المقدسة. وسواحل سوريا وبلاد الشام.

خلال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م، استولت جيوش الغرب على القسطنطينية، وكان ذلك يعود، جزئيًا، إلى رغبة تجار مدينة فينيسيا الإيطالية في الهيمنة على التجارة في الشرق الأوسط وفي تقويض أركان الكنيسة الأرثوذكسية.

ونجح بعض رجال البلاط من البيزنطيين المهزومين، في تأسيس قواعد لهم في آسيا الصغرى واسترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م. ولكن استولى الأتراك العثمانيون على أجزاء من آسيا الصغرى، كما تقدم الصرب في البلقان، في حين أضعفت الحروب الأهلية أركان الإمبراطورية.

وفي أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، لم يكن قد بقي في حوزة الإمبراطورية البيزنطية سوى القسطنطينية وجزء من بلاد اليونان. وسقطت عندما استولى الأتراك العثمانيون عليها سنة ١٤٥٣م. ومات آخر إمبراطور بيزنطي، وهو قسطنطين الحادي عشر، بينما كان يدافع عنها. وسقطت طرابزون - وكانت المعقل للسلطة الإغريقية - بيد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٦١م.

وتشتهر بيزنطة القديمة بعمارتها. والعمارة البيزنطية هي عبارة عن الفن المعمارى في عصر فجر المسيحية حسبما أخذ مجال تطوره في "القسطنطينية" وفي الإمبراطورية الشرقية ككل بعد تحول العاصمة الرومانية إلي القسطنطينية

عام ٣٢٤م؛ ولقد كانت أغراضه متشابهة تماما لأغراض العمارة الرومانية في فجر المسيحية ولقد اتخذت الإمبراطوريه الغربية نظام المباني البازيليكيه في بناء الكنائس. أما الإمبراطورية الشرقية اتخذت نظام القباب الذي هو نتاج للتأثير الشرقي حيث إن القبة كانت هي المستعملة في التسقيف في العصور المتقدمة عند الفرس وغيرهم من ممالك الشرق. و يقع في القسطنطينية اليوم أروع ما نتجت عنه هذه الحقبة وهو متحف آيا صوفيا.

حذا البنائون البيزنطيون حذو الرومان في طرق الإنشاء واستخدام مواد البناء، أي أنهم استعملوا الطوب والخرسانة في الحوائط والأقبية وغيرها وحتى الفخار فلقد استعملوه في القباب وذلك لخفته. أما الطوب فكان يستعمل لدرجة محددة إذ لم يكن استعماله بمثل الكثرة التي كان يستعمل بها في إيطاليا. وكان الطوب يستعمل غالبا في بناء الحوائط الخارجية من مداميك على هيئة رباط لغرض زخرفى وليحل محل الحليات التى لم يكن لها وجود إلا قليلا وكان الطوب المستعمل كنظيره من الطوب الروماني تماما "أى من قطع كبيرة رفيعة"وكان يبنى باستعمال المونة ولحاماتها متسعة.

ولقد كانت القباب وما أدخل عليها من ابتكارات في أوضاعها وطرق إنشائها هى أهم ما يميز عمارة ذلك العصر

كانت العاصمة هي بيزنطية وسميت بعد ذلك بالقسطنطينية أو إسطنبول وكانت أحيانا تسمى روما الجديدة حيث كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية عام ٣٣٠م، ونجد أن بيزنطة تقع على سبع هضاب وكانت أيضا تقع على ملتقى طريقين رئيسيين للتجارة: وهما "الطريق المائي وهو طريق البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط" و"الطريق التجاري الواصل بين أوروبا وآسيا" ولذلك تحكمت بيزنطة في التجارة. وعلى ذلك نرى أن الفن البيزنطي غزا الإمبراطوريه الرومانيه الشرقيه، وحمله التجار إلى اليونان وسوريا وآسيا الصغرى وروسيا حتى المناطق الواقعة غرب البحر الأبيض المتوسط مثل فينسيا ورافينا وغيرها وكان لهذ الفن البيزنطي تأثير كبير على العمارة في هذه المناطق المختلفة حيث لعب الموقع الجغرافي دورا هاما في هذا الشأن.

وتعتبر بيزنطية من الناحية الاجتماعية مقرالحكم السياسى والدينى والعسكرى عام ٢٣٤م، نظرا لموقعها المتوسط بالنسبة للإمبراطورية الرومانية.

ولكن نظرا لأن أهل هذه المدينة في ذلك الحين كانوا محدودى الذكاء، مشهورين بالكسل والشراسة،فكان لهذاالتغيير، وهو انتقال العاصمة والحكم إلى القسطنطينية، أثر فعال وسريع في تدهور الإمبراطورية الرومانية. كانت بيزنطية مدينة إغريقية قديمة، وعلى ذلك فالمبانى الحكومية التى أنشئت في ذلك الوقت قام ببنائها حرفيون إغراقيون متأثرين بالروح والتقاليد الرومانية.

ولذلك نجد أن القسطنطينية نفسها أُنشئت على أسس وخطوط رومانية كلما سمحت المناطق الجبلية بذلك. فأنشت الفورم forum حول الشارع الرئيسى، وأنشئت كنيسة آيا صوفيا والقصر الإمبراطوري ومجلس العلوم ودار القضاء وساحة العرض الكبرى والاحتفالات العامة والاستعراضات، حيث كانت الساحة تخصص أيضا لمحاكمة وإعدام المجرمين.

كما اهتم الرومان اهتماما بالغا بمجارى المياه و الحمامات ووسائل تخزين المياه، إما تحت سطح الأرض في مخازن خاصة أو في خزانات مرفوعة على عمد. وبمرور الأيام اتسعت المدينة وزاد عدد السكان، وأنشئ الحائط العظيم ببوابته وأبراجه المشهورة الذى بناه تيودور الثانى عام٤١٣م لحماية المدينة.ولكن خلف قسطنطين "الرجل القوى"أباطرة ضعفاء وانقسمت الإمبراطورية، إلى عدة إقسام،بعد ذلك حكم جستنتيان البلادعام٥٢٧-٥٦٥م، راعى الفن والعمارة، والذى في عهده استمر في إنشاء كنيسة ايا صوفيا وكنائس أخرى مختلفة في المدينة وفى سوريا وفلسطين، وبعد ذلك دب الفساد في البلاد وانتهى الحكم الرومانى حينما سقطت المدينة في يد الأتراك العثمانيين عام١٤٥٣م على يد السلطان محمد الفاتح.

■■■

١٩

سمرقند.. الإسكندر وتيمور لنك وجنكيز خان

تقع مدينة "سمرقند" في آسيا الوسطى. وأصل الاسم "شمرأبوكرب"، ثم حُرِّف الاسم إلى "شمركنت" ثم عُربت إلى "سمرقند"، ومعناها وجه الأرض.. وقد وصفها "ابن بطوطة" بقوله: " إنها من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا، مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادى القصَّارين، وكانت تضم قصورًا عظيمة، وعمارة تُنّبئ عن هِمَم أهلها ".

وتعد من أقدم مدن العالم، وهي اليوم ثاني مدن جمهورية أوزبكستان، وقد كانت عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين إلى عهد التيموريين. وقد أطلق عليها الرحالة العرب اسم "الياقوتة" الراقدة على ضفاف نهر زرافشان. وهي المنافسة التاريخية لبخارَى، وهي العاصمة الرائدة التي أعدها تيمورلنك لتحتل الصدارة في عهده.

ولقد كانت سمرقند وبخارى أهم حاضرتين فيما وراء النهر (الصغد وما وراء النهر) وتقوم سمرقند على الضفة الجنوبية لنهر الصغد (وادي الصغد، زرافشان) في موقع عرف بأنه جنة بحق.

لم يستطع المؤرخون تحديد الزمن الذى نشأت فيه مدينة سمرقند، وذهب بعضهم إلى أن المدينة بناها ذو القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم، وهو الذى يعتقد البعض أنه الإسكندر الأكبر بينما يرجِّح البعض الآخر أنه قورش مؤسِّس دولة الفرس (إيران) .

ويبدو أن العرب المسلمين كانوا شديدي الاعتزاز بسمرقند، حتى إن ياقوت الحموى فى موسوعته معجم البلدان يقول إن الذى بنى المدينة هو: شمر أبو كرب الملك العربى اليمنى القديم! ثم تحرفت الكلمة إلى: شمركند.. ثم إلى: سمرقند.

ويرتبط تاريخ المدينة بالإمبراطوريات الصينية القديمة، وبفتوح الإسكندر الأكبر.. وفى سنة ٥٥ هجرية وصل المسلمون إلى سمر قند، وفى سنة ٩٣ هجرية فتحها قتيبة بن مسلم لتصير من يومها مدينة إسلامية.. ولاتزال كذلك إلى اليوم.

والعمائر الهائلة التى نراها هنا، أغلبها من إنشاء الأمير تيمور الفاتح الشهير الذى يسميه أعداؤه تيمور لنك حيث تعنى كلمة لنك : الأعرج.. ومن يزرْ مقبرته الضخمة فى سمرقند، يجدْ قبراً كبير الحجم وآخر أصغر منه كثيراً.. ولما سألت، عرفت أن القبر الصغير مدفون فيه تيمور أما القبر الكبير، فقد بناه هو لأستاذه.. وأوصى أن يُدفن تحت قدميه.

وقد استمر فى عمارة المدينة، حفيد الأمير تيمور : أُلغ بك المتوفى سنة ٨٥٣ هجرية.. وكان إمبراطوراً عظيماً، وعالماً فلكيًا كبيراً، وقد حفظ لنا التراث العلمى العربى كتابا مشهورا له فى الفلك، هو : الزيج السلطانى .

وتقع سمرقند اليوم فى جمهورية أوزبكستان التى تحررت مؤخراً من قبضة الروس الذين دخلوها سنة ١٨٦٨ ميلادية وظلوا جاثمين على صدرها حتى سقط الاتحاد السوفيتى سقوطه الأخير المروع .

ولمدينة سمرقند تاريخ طويل، ففي سنة (٨٧هـ ـ ٧٠٥ م) تم الفتح الإسلامى لمدينة " سمرقند" على يد القائد المسلم" قُتَيْبة بن مُسلم الباهلى" ثم أعاد فتحها مرة أخرى سنة (٩٢هـ ـ ٧١٠م).. . وبعد الفتح الإسلامى قام المسلمون بتحويل عدد من المعابد إلى مساجد لتأدية الصلاة، وتعليم الدين الإسلامى لأهل البلاد ـ وفى بداية الغزو المغولى للمدينة ؛ قام "المغول" بتدمير معظم العمائر الإسلامية،

وبعد ذلك اتجه "المغول" أنفسهم بعد اعتناق الإسلام إلى تشييد العديد من العمائر الإسلامية، خاصة في العهد التيمورى، وذلك على مدى (١٥٠) عامًا هى فترة حكمهم لبلاد ما وراء النهر من (٦١٧هـ - ١٢٢٠م) إلى عام (٧٧٢هـ - ١٦٧٠ م). - وقد اتخذ "تيمورلنك" "سمرقند" عاصمة لملكه، ونقل إليها الصُنَّاع وأرباب الحرف لينهضوا بها فنيًا وعمرانيًا، فكان عصر "تيمور لنك" بحق عصر التشييد والعمران. - وفى القرن (١٩م) استولى الجيش الروسى على بلاد ما وراء النهر ومنها مدينة "سمرقند".

وفى سنة (١٩١٨ م) بعد قيام الثورة الشيوعية في روسيا استولى الثوار على مدينة "سمرقند" وظلت تحت سيطرتهم إلى أن سقطت الشيوعية في عام (١٩٩٢ م). - وقد نالت "سمرقند" الاستقلال ضمن الجمهوريات الإسلامية بعد سقوط ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى.

وقد - اشتهرت "سمرقند" بكثرة القصور التى شيدها "تيمورلنك" ومنها: - قصر دلكشا (القصر الصيفى) ؛ وقد تميَّز بمدخله المرتفع المزدان بالآجر الأزرق والمُذهب، وكان يشتمل على ثلاث ساحات بكل ساحة فسقية. - قصر باغ بهشت (روضة الجنة)، شُيِّد بأكمله من الرخام الأبيض المجلوب من "تبريز" فوق ربوة عالية، وكان يحيط به خندق عميق ملىء بالماء، وعليه قناطر تصل بينه وبين المنتزه. - قصر باغ جناران (روضة الحور)، عرف هذا القصر بهذا الاسم لأنه كانت تحوطه طرق جميلة يقوم شجر الحور على جوانبها، وكان ذا تخطيط متقاطع متعامد. - مدرسة بيبى خانيم ؛ تميز تخطيط هذا الأثر اعتمد على صحن أوسط مكشوف، وأربعة إيوانات. - مدرسة وخانقاه وضريح الأمير تيمورلنك: شيد هذا المجمع الدينى قبل عام (٨٠٧هـ - ١٤٠٥ م) المهندس الأصفهانى "محمد بن محمود البنا". - ميدان داجستان ؛ بدأ تكوين هذا الميدان في عهد "تيمورلنك" وكان يقوم بعرض فتوحاته في هذا الميدان. - ومن أهم أعلام سمرقند: "محمد بن عدى بن الفضل أبوصالح السمرقندى" توفى سنة (٤٤٤هـ) و"أحمد بن عمر الأشعث أبوبكر السمرقندى" كان يكتب المصاحف من

حفظه، وتوفى سنة (٤٨٩هـ)، و"أبومنصور محمد بن أحمد السمرقندى"، فقيه حنفى له كتاب "تحفة الفقهاء".

وقد تعرضت سمرقند عبر تاريخها لويلات وكوارث عديدة كان أهمها :

- تدمير الإسكندر لها عام ٣٢٩ قبل الميلاد، وكانت تعرف وقتذاك باسم "مرقندا".

- والمرة الثانية التي تعرضت فيها للتدمير كانت في عهد جنكيزخان عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠ م.

-أما التدمير الثالث فكان على أيدي الأوزبك حوالي منتصف القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي. وكانت قبائل الأوزبك حتى هذه الفترة لم تعتنق الإسلام.

وقد احتل الإسكندر مدينة سمرقند عدة مرات إبان قتاله مع السبتاميين وسواها بالأرض هذا ما جاء في إحدى الروايات في حين تذكر بعض الروايات أن الإسكندر هو منشئ هذه المدينة.

وكانت سمرقند في عهد القواد الذين تنازعوا ملك الإسكندر بعد تقسيم عام ٣٢٣ قبل الميلاد تابعة لولاية بلخ بصفتها قصبة الصغد، وقد وقعت في أيدي السلوقيين هي وبلخ عندما أعلن ديودوتس استقلاله، وتأسست المملكة الإغريقية البلخية في عهد أنطيوخس الثاني ثيوس، ومن ثم أصبحت معرد.. لهجمات برابرة الشمال.

وغدت سمرقند من ذلك الوقت حتى الفتح الإسلامي منفصلة عن إيران من الناحيتين التاريخية والاقتصادية وإن ظل التبادل الثقافي بينها وبين البلاد الغربية متصلا. وكانت فتوحات المسلمين لمناطق وراء نهر جيحون قد بدأت منذ عام ٤٦هـ / ٦٦٧ م، ولم يبدأ المسلمون توغلهم فيما وراء النهر توغلا منتظما إلا بعد أن عين قتيبة بن مسلم واليا على خراسان حيث وجد طرخون حاكما على مدينة سمرقند.

وفي عـام ٩١هـ / ٧٠٩ م تصـالح طـرخـون مع قـتـيـبـة على أن يؤدي الجـزية للمسلمين ويقدم لهم الرهائن غير أن ذلك أغضب رعاياه فخلعوه، وحل محله إخشيذ غورك، واسمه بالصينية أو -لي- كيا، ولكن قتيبة أجبر إخشيد على التسليم في عام ٩٣هـ / ٧١٢ م بعد أن حاصر المدينة وقتا طويلا. وقد سمح له بالبقاء على العرش، ولكن أقيم في المدينة والٍ مسلم ومعه حامية قوية.

وغدت سمرقند هي وبخارى قاعدة للفتوح الإسلامية الأخرى ونشر الإسلام في البلاد، وهو أمر كانت تزعزعه في كثير من الأحيان الفتن التي تثيرها مماحكات الولاة التي أشاعت القلاقل فيما وراء النهر في العقود الأخيرة من عهد الأمويين.

وفي عـام ٢٠٤هـ / ٨١٩ م تولى أبناء أسد بن سامان سمرقند بأمر من الخليفة المأمون العباسي، وظلت منذ ذلك الحين دون أن تتأثر بفتن الطاهرية والصفارية في أيدي بيت سامان إلى أن قضى إسماعيل بن أحمد على سلطان الصفارية عام ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م، وأسس الدولة السامانية فأتاح بذلك لما وراء النهر قرنا من الرخاء والازدهار لم تر له مثيلا إلا بعد ذلك بخمسمائة سنة أيام تيمور وخلفائه المباشرين. وقد ظلت سمرقند محتفظة لنفسها بالمكانة الأولى بصفتها مركز التجارة والثقافة وخاصة في أنظار العالم الإسلامي حتى بعد أن انتقلت القصبة إلى بخارى.

وقد حكم القراخانية سمرقند بعد سقوط الدولة السامانية (الإلكخانية)، ففي عام ٤٩٥هـ / ١١٠٢ م كان أرسلان خان محمد القراخاني صاحب السلطة على سلجوق سنجر وظلت سلالته قابضة على السلطة إلى أن أصبح القرة خطاي أصحاب الكلمة فيما وراء النهر بعد أربعين سنة، عندما انتصر القرة خطاي انتصارا كبيرا على سنجر في قطوان عام ٥٣٦هـ / ١١٤١ م.

وفي عام ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م هزم خوارزمشاه محمد بن تكش الكورخانية وحاصر جنكيزخان خصم خوارزمشاه المخيف، سمرقند بضعة أشهر بعد أن عبر نهر

سيحون في طريقه من بخارى التي دمرها تدميرا تاما. ومن حسن حظ هذه المدينة أنها سلمت في ربيع الأول عام ٦١٧هـ / مايو ١٢٢٠م. وسمح لعدد من أهلها بالبقاء فيها تحت حكم والٍ مغولي وإن كانت قد نهبت وطرد الكثير من سكانها.

وكانت سمرقند في المائة والخمسين سنة التالية صورة باهتة لما كانت عليه من عز ومكانة. وبدأت المدينة تنتعش عندما أصبح تيمور لنك حوالي عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩ م صاحب الكلمة العليا فيما وراء النهر. واختار سمرقند قصبة لدولته الآخذة في النمو باستمرار، وراح يزينها بكل آيات الروعة والفخامة. وقد جمل أولغ بك حفيد تيمور هذه المدينة بقصره المسمى "جهل ستون" كما شيد بها مرصده المشهور.

وقد استولى تيمور لنك على سمرقند لأول مرة عام ٩٠٦هـ / ١٤٩٧ م. واحتفظ بها بضعة أشهر، وفي عام ٩٠٩هـ / ١٥٠٠ م. استولى عليها منافسه تيمور أوزبك خان شيباني، وبعد وفاة أوزبك تحالف بابر مع إسماعيل شاه الصفوي فأفلح في الظفر مرة أخرى بفتح ما وراء النهر واحتلال سمرقند، ولكنه اضطر في العام التالي إلى الانسحاب انسحابا تاما إلى مملكته الهندية تاركا الميدان للأوزبكيين ولم تكن سمرقند في عهد الأوزبكيين إلا قصبة بالاسم دون الفعل، ذلك أنها قد تخلفت كثيرا عن بخارى.

وقد تقدم الإسلام من هذه البلاد إلى الصين والهند وروسيا ذاتها، حتى إن الأراضي الروسية ظلت خاضعة للسيطرة التترية الإسلامية لمدة ثلاثة قرون، بل كان دوق موسكو يدفع الجزية سنويا لأمير بخارى.

ولكن قياصرة روسيا سرعان ما استردوا هذه المناطق الإسلامية وسقط أول حصن إسلامي وهو حصن آق مسجد في بلاد ما وراء النهر بيد الروس عام ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢ م.

وفي منتصف القرن السادس عشر وبينما كانت الدولة العثمانية تهدد وسط أوروبا وتزحف إلى إفريقيا وآسيا، كانت روسيا القيصيرية تهاجم المناطق

الإسلامية حتى سقطت قازان في منطقة الفولغا، وبعدها دولة خانات ستراخان ثم مملكة سيبير المسلمة في سيبيريا، ثم اتجهت الجيوش الروسية إلى الجنوب إلى تركستان في القرن التاسع عشر.

وتساقطت الخانات فيما وراء النهر الواحدة تلو الأخرى، حتى زحف ثمانية آلاف من جيوش الروس نحو سمرقند وعبروا نهر زارافشان في ١٣ مايو عام ١٨٦٨م / ١٢٨٥ هـ وسيطروا عليها في اليوم التالي، ودخل القائد كاوفمان العاصمة التيمورية القديمة، وكانت في ذلك الوقت في أيدي مظفر الدين أمير بخارى.

وحين قام النظام الشيوعي عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م في روسيا صارت سمرقند ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق حتى انهياره عام ١٤١٢هـ / ١٩٩١م فصارت إحدى مدن جمهورية أوزبكستان المستقلة.

ومن معالم مدينة سمرقند:

أولاً الأسوار: كان يحيط بمدينة سمرقند سور عظيم يفتح منه أربعة أبواب رئيسية:

١- **باب الصين**: وهو في شرق المدينة، وقد أقيم تخليدا لذكرى الصلات القديمة مع الصين الناجمة من تجارة الحرير.

٢- **باب بخارى**: وهو في شمال المدينة،وقد وجدت كتابة بالعربية اليمنية الحميرية عند باب بخارى هذا نصها: "بين المدينة وبين صنعاء ألف، فرسخ وبين بغداد وبين إفريقية ألف فرسخ، وبين سجستان وبين البحر مائتا فرسخ، ومن سمرقند إلى زامين سبعة عشر فرسخا".

٣- **باب النوبهار**: ويقع في جهة الغرب ويشير هذا الاسم إلى معبد قد يكون بوذيا.

٤- **الباب الكبير أو باب كش**: ويقع في الناحية الجنوبية و يرتبط باسم بلدة كش موطن تيمور الأصلي.

ثانياً المساجد: ومن أهم معالم سمرقند الأثرية التي تشهد على تاريخ المسلمين في سمرقند المساجد الكثيرة التي حول بعضها إلى متحف لتاريخ الفن والحضارة في أوزبكستان ومن هذه المساجد :

-**المسجد الجامع**: الذي شيد في أواخر القرن الرابع عشر في شرق ميدان ريكستان، ويطلق عليه اسم مسجد بي بي خانم زوجة تيمورلنك الكبرى. ويذكر بأن تيمورلنك هو الذي وضع أسس المسجد في أعقاب حملته الناجحة على الهند. وفي الجانبين الشمالي والجنوبي من المسجد يقوم مسجدان صغيران لكل منهما قبة تواجه الأخرى.

ولقد اقترن بناء المساجد في سمرقند بالأضرحة فهي تمثل سمة مميزة للمدينة، إلا أن أبرز ما فيها هو الناحية الجمالية التي تتمثل في القباب المزخرفة وهي نموذج فريد من الفن الإسلامي المشرقي.

ثالثاً منشآت شاه زنده: وهي تتضمن الكثير من المؤسسات والآثار الإسلامية منها:

١-ضريح قثم بن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي قيل بأنه استشهد في فتح سمرقند عام ٥٧ هجرية. وأقيم له ضريح على غاية من الروعة والجمال، غير أن تاريخ البناء الموجود حاليا يعود لعام ٧٥٣ هجرية، وهو قد يكون تاريخ تجديد الضريح، ويضم الضريح ثلاث قاعات ومسجدا وغرفة للعبادة والاعتكاف.

ولقد تحول شاه زنده بعد ذلك إلى مجموعة من الأضرحة والمنشآت الدينية. وكان ذلك كفيلا بأن يوفر للأضرحة المقامة حول ضريح قثم وللمساجد أسبابا عديدة للعناية بها والإنفاق الكثير عليها، جعلت منها قطعا فنية رائعة، واجتمعت لأجلها قدرات أمهر الفنانين والبنائين في عهد تيمورلنك وبعده، حتى أصبحت مجموعة "شاه زداه" من أهم التراث المعماري الفريد في آسيا.

٢-ومن المنشآت المميزة في منطقة " شاه زنده " مجموعة كاملة من المباني

أنشئت بأمر من الأميرة " ترمان آقا " زوجة تيمورلنك، وتضم مسجدا (خانقاه) وضريح "ترمان آقا" الذي لا يقل روعة وجمالا عن أي ضريح آخر في " شاه زنده " بل ويزيد عليها جميعا ببوابة مكسوة بالفسيفساء ليس كمثلها بوابة أخرى. كما تضم هذه المجموعة حجرة متوسطة للخدمة.

رابعا الاضرحة :

١- **ضريح الإمام البخاري** الواقع في ضاحية سمرقند عند مشارف قرية باي أريق حيث دفن هناك بعد وفاته في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي عن اثنتين وستين سنة، وذلك بعد هجرته من بخارى، ودفن إلى جواره عدد من علماء بخارى... وقد أقيم بالقرب من ضريحه قبل سنوات قليلة مسجد حديث في أواخر السبعينيات من القرن العشرين.

٢- **قبر تيمورلنك**، حيث يتميز بقبته الباهرة التي تعلو الضريح. وهي قبة فيروزية مضلعة ومكسوة بكم هائل من زخارف الفسيفساء. ويسمى هذا الضريح باسم كور أمير أو مدفن خلفاء الأمير تيمور. وكور أمير يطلق أيضا على مجموعة من المباني المرتبطة باسم حفيد تيمور المعروف باسم محمد سلطان وتضم هذه المجموعة مدرسة خانقاه، والضريح الملحق بالمسجد، ومبانيَ عديدة تطل على مئذنة من كل ركن فيها. كما يتميز البناء بوجود حجر المرمر الرمادي السداسي الشكل وهو حجر العرش الذي لا يزال يطلق عليه الاسم التقليدي له "كوك طاش".

٣- **ضريح " طوغلوتكين** " إحدى الأميرات المغوليات. وإلى جواره ضريح آخر عرف باسم " أمير زاده ". وبجانبه مُصَلًّى صغير اسمه "زيارة خانه" غطيت جدرانه بنقوش كثيفة تلمع رغم الظلام النسبي الذي يسود المكان. وهناك ضريح هام بمثابة تحفة معمارية وفنية هو ضريح الأميرة شيوين بيكه آقا شقيقة تيمورلنك. كما يوجد ضريح آخر لشقيقة أخرى لتيمورلنك هي الأميرة تركان آقا.

٤- توجد أيضا مجموعة من الأضرحة تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي عندما اختار تيمورلنك سمرقند عاصمة له.

خامسا الأسواق:

اشتهرت سمرقند عبر التاريخ بالعديد من المنتجات الوطنية مثل المنسوجات والسجاد، إلا أن أشهر ما عرفت به سمرقند هو ((الورق السمرقندي)) وقد نقلت سر صناعته عن الصين. ولهذا الورق شهرة خاصة تميزت بها سمرقند عبر التاريخ. ولقد بدأت هذه الشهرة عندما قام أهل إقليم بخارى بثورة في عهد أبي مسلم الخراساني فبعث بحملة قوامها عشرة آلاف رجل بقيادة زياد بن صالح حيث قضى على الثورة في مدينة بخارى واستمر في زحفه إلى أن أخضع أيضا ثورة سمرقند التي كان الصينيون يساندون الثوار فيها ضد العرب المسلمين وقد وقع الكثير من الصينيين في الأسر وخيروا بين الرق أي العبودية وبين الحرية إذا علموا المسلمين حرفة فآثروا العتق وعلموا المسلمين من بين ما علموهم صناعة الورق.

ومع مضي الزمان تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن في صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذي وجد سوقا رائجة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد فالورق صفحة من صفحات الفخر للإسلام والمسلمين فالورق كان معروفا في جنوب شرق آسيا إلا أن العالم لم يعرفه سوى بعد أن تعلمه المسلمون وانتقل من بلادهم إلى العالم كله.

وقد أنشئ أول مصنع للورق في بغداد حاضرة الخلافة العباسية بعد نصف قرن من إقامة مصانع الورق في سمرقند.

وقد ازدهرت هذه الصناعة في سمرقند أيما ازدهار ثم بدأ الصراع بين الورق المصري الذي كان يطلق عليه القراطيس أو القباطية وبين ورق سمرقند الذي كان يطلق عليه الكاغد أو الرقوق الرومية. ولكن الكاغد السمرقندي تفوق على كل هذه الأنواع ولاقى رواجا عظيما حتى عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها.

وقد تميزت سمرقند على مر العصور بالعديد من المدارس التي تدل على

مدى اهتمام أهلها بالعلم كما تدلنا على الحالة العلمية التي كانت عليها هذه المدينة.

المدارس: من أهم مدارس سمرقند التاريخية في قلب ميدان ريكستان ثلاث مدارس هي:

١-مدرسة أولغ بك: ذات واجهة مهيبة وعالية، وتنتصب حول بوابتها مئذنتان عاليتان، وتظهر قبة في ركن جانبي، والكل حافل بالنقوش البديعة. وكانت المدرسة تضم (٥٠) غرفة للدراسة والإعاشة ويدرس بها حوالي مائة طالب ثم ازداد العدد إلى أكثر من ذلك وكان المبنى يشتمل على طابقين وأربع قباب عالية فوق قاعات الدراسة الركنية (درس خانه). وكان أولغ بك قد تولى بنفسه التدريس في هذه المدرسة.

٢- مدرسة شيرا دار: كانت في الأساس زاوية للصوفيين ومسجدا لهم ثم أقام حاكم سمرقند في المكان ذاته هذه المدرسة العظيمة المواجهة لمدرسة أولغ بك. ولكن الناظر إلى واجهتها لا يظنها مدرسة نظرا للفخامة والعظمة والروعة المعمارية التي تتميز بها لا سيما بابها وقببها والمنارتان اللتان انتصبتا بشموخ على مداخلها.

٣- مدرسة طلا كاري يعود تاريخها إلى عام ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦ م. وهي المدرسة الذهبية الفخمة التي تمثل المضلع الثالث في ميدان ريكستان، ويلاصقها المسجد. وهي تتميز بفن معماري جذاب وبثروة في الألوان والزخارف.

وقد توقفت هذه المدارس الدينية والعلمية عن رسالتها الإسلامية بعد أن تحولت منذ عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨ م إلى مبان أثرية سياحية وذلك بعد الاجتياح الروسي الشيوعي والذي كان يريد أن يمحو كل ما هو ذو صلة بالدين محاولة منه في سلخ أهل هذه البلاد عن هويتهم الإسلامية.

وينتسب إلى سمرقند جماعة من أهل العلم نذكر منهم:

- الفقيه أبو منصور الماتريدي: وهو نسبة إلى حي ماتريد أو ماتريب أحد

أحياء سمرقند وكان له أثر حاسم في تطور الفقه السني بالمشرق.

- الفقية محمد بن عدي بن الفضل أبو صالح السمرقندي، نزيل مصر سمع بدمشق أبا الحسن الميداني، وجماعة غيره، وروى عنه أبو الربيع سليمان بن داود بن أبي حفص الجبلي، وجماعة غيره.

-الفقية أحمد بن عمر أبو بكر السمرقندي، سكن دمشق وقرأ القرآن وأقرأه، وكان يكتب المصاحف من حفظه.

ومن أعلام سمرقند:

- صاحب التفسير المعروف بتفسير العياشي، وهو محمد بن مسعود السمرقندي، وكان من المحدثين والأطباء والنجوميين.

ومن أعلامها أيضا علاء الدين السمرقندي. ومنهم نجيب الدين السمرقندي، وكان طبيبا معاصرا لفخر الدين الرازي، وقتل بهراة لما دخلها التتار. ومنهم شمس الدين السمرقندي العالم والمنطقي والفلكي والأديب.

- ومن علمائها المتأخرين أبو القاسم الليثي السمرقندي. وكذلك الفلكي المشهور قاضي زاده الرومي أستاذ أولغ بك الذي كان أحد أبرز الفلكيين في العالم خلال العصور الوسطى.

■■■

٢٠

الفسطاط ..
مدينة عمرو بن العاص

تعتبر مدينة الفسطاط وجامع عمرو أول أثرين إسلاميين بمصر وإفريقيا ويرمزان لمرحلة محورية بل بداية عصر بكامله لا نزال نعيش فيه وهو العصر الإسلامي.

وكانت الإسكندرية عاصمة مصر منذ بناها الإسكندر عام ٣٣٢ ق.م. مرورا بالإغريق البطالمة والرومان والبيزنطيين الروم.

وكان عمرو بن العاص بين أمرين هما لو أبقى على الإسكندرية كعاصمة فوجوده بها سيجعله معرضا من البحر لأي غزو وهذا ماحدث فعلا عندما غزا البيزنطيون المدينة من البحر بإسطولهم عام ٦٤٦م. مما جعل المصريون يطلبون إعادة عمرو بن العاص بعدما كان الخليفة عثمان قد عزله. والأمر الثاني الذي جعله يختار مكان الفسطاط أنه بالإسكندرية سيكون بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية مما يصعب نجدته.

وكان قرار الخليفة عمر لعمرو بعدم عزل القوات بمانع مائي وهو الفيضان والنيل وعدم سكناها المدن حتى لايتقاعسوا عن مواصلة الفتح.

لهذا اختار ابن العاص هذا المكان الصحراوي الذي يعتبر عسكريا موقعا إستراتيجيا شمال حصن بابليون وأقام فيه مدينة الفسطاط فوق عدة تلال يحدها جبل المقطم شرقاوخلفه الصحراء التي يجيد فيها العرب الكر والفر والحرب والنيل غربا ومخاضة بركة الحبش جنوبا وهما مانعان طبيعيان.

شيد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط كمدينة حصينة وبها حصن بابليون لتكون مدينة للجند العرب وأقام بها المسجد الجامع (مسجد عمرو بن العاص) أول مسجد أقيم بمصر الإسلامية وبجواره دار الإمارة.

وكانت في تخطيطها على غرار تخطيط الرسول ﷺ للمدينة المنورة. وكانت تبدو من بعيد كأنها جبل شامخ كما وصفها الرواة والمؤرخون.

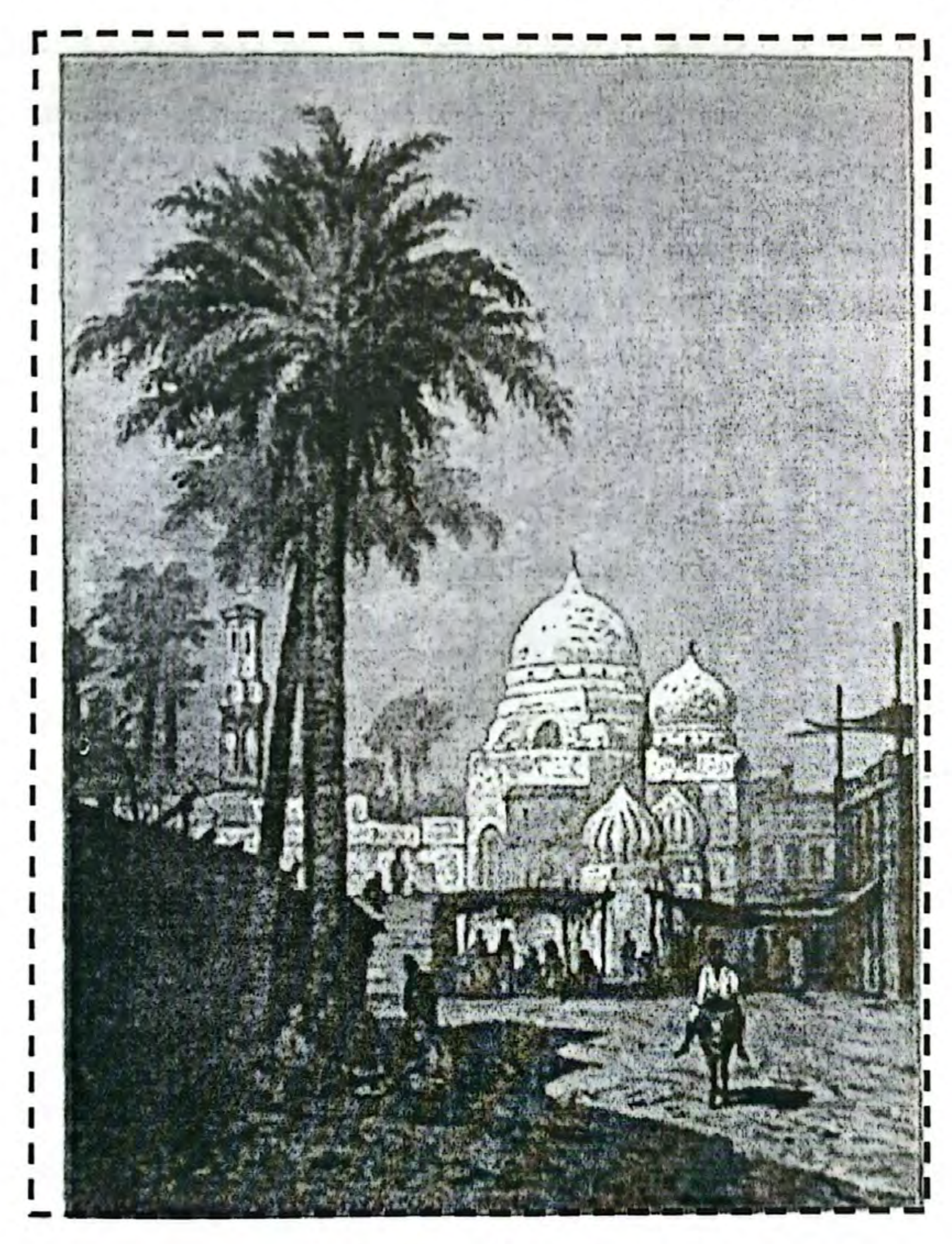
وفي نهاية حكم الفاطميين شهدت مدينة الفسطاط الحريق علي أيدي الصليبيين أيام الخليفة العاضد عندما بلغوها بمراكبهم بالنيل وأسروا ونهبوا بقيادة الملك عموري (أمالوريك) عام ٥٦٤ هجرية - ١١٦٨م. أمر وزيره بجمع العبيد وإحراق مدينة الفسطاط.

وأصبحت الفسطاط بعد الحريق مدينة أشباح خاوية على عروشها عدة قرون وفقدت أهميتها كعاصمة للمال والتجارة والصناعة ولم يبق منها سوى جامع عمرو بن العاص والذي أُنقذ من الحريق بإعجوبة.

إذن الفسطاط هي المدينة التي بناها عمرو بن العاص عقب فتح مصر عام ٦٤١م وهي تقع بمقربة من حصن بابليون تقع على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل القاهرة بحوالي ميلين، وكان النيل عندها ينقسم إلى قسمين. وموضعها كان فضاءً ومزارعَ بين النيل والجبل الشرقي ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون الذي يطل على النيل من بابه الغربي الذي يعرف بباب الحديد.

واستفادت الفسطاط من موقعها على النيل بنتيجتين: فقد يسر النيل للأهالي سبل الحصول على الماء من جهة، وخدم توسعها العمراني من جهة ثانية، فتحكمت بطرق المواصلات التجارية الداخلية والخارجية بين مصر والشام، وبين مصر والحجاز. وقد اكتشف هذا الموقع الاستراتيجي الفراعنة والبابليون والرومان، فاتخذ منه الفراعنة مكانا لمدينة كبيرة جعلها البابليون مكانًا لاستقرارهم عند نزولهم في مصر، ثم اتخذه الرومان مقرا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري

والقبلي، ويدفعون منه كل معتدٍ خارجي على مصر، والفسطاط من حيث المناخ، تتبع المناخ شبه الصحراوي، فهي حارة نهارًا وباردة ليلاً، لا ينزلها المطر إلا نادرًا كما هو الحال في باقي إقليم مصر ما عدا الإسكندرية.



رسم يوضح الفسطاط قديما

بعد الفتح سار المسلمون إلى الإسكندرية وعاونهم القبط في أعمالهم ورحبوا بهم.. وعند حصن الإسكندرية اقتتلوا قتالاً شديدًا ثم تم لهم فتحها بعد حصار دام بضعة أشهر، وقبل أهل مصر الصلح.. وعليه نشير إلى أن عمرو بن العاص حينما عزم على التوجه إلى الإسكندرية، أمر بنزع فسطاطه الذي ضربه قرب حصن بابليون فإذا فيه يمام قد فرخ فأقره كما هو.

وحينما فتح المسلمون الإسكندرية أراد عمرو بن العاص اتخاذها عاصمة ودار هجرة للمسلمين. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر رسول عمرو بن العاص : هل يحول بيني وبين المسلمين الماء؟ فأجابه: نعم. فكتب عمر إلى ابن العاص أن يرحل عن هذا المكان لأنه لا يريد أن يحول بينه وبين المسلمين الماء، لا في الصيف ولا في الشتاء. فتحول عمرو بن العاص إلى موضع فسطاطه القديم وذلك حينما استشار أصحابه أين ينزلون فأشاروا عليه بالنزول في هذا الموضع، وكان مضروبًا في موضح الدار التي تعرف بدار الحصى عند دار عمرو الصغرى، ثم انضمت إليه القبائل وتنافست في المواضع، واختط عمرو المسجد الجامع الذي عرف بتاج الجوامع، وكان حوله حدائق وأعناب، وقام عمرو بنصب الحبال مع أصحابه حتى استقامت، وقد اشترك في وضع قبلة المسجد من ثمانين صحابيًا، واتخذوا فيه منبرًا ثم اختط الناس بعد اختطاط المسجد الجامع، ونزل المسلمون الفسطاط بعد تمصيره سنة ٢١هـ.

هذا وقد أنزل عمرو بن العاص القبائل العربية بالفسطاط، وبعد أن اختط المسجد الجامع، بنى للخليفة عمر دارًا عند المسجد، فكتب إليه عمر قائلاً: أَنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟!! وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين، وتم ما أراده أمير المؤمنين وأصبحت هذه الدار تسمى بدار البركة.

وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة بجامعها الكبير، وبأسواقها التجارية التي أحاطت به، وبدور السكن التي ارتفعت بمرور الزمن إلى خمس وسبع طبقات، وعظم أمرها واغتنت وكثر ساكنوها حتى قاربت ثلث بغداد

مساحة، أي حوالي فرسخ على غاية الخصب والعمارة و الحضارة. وبقيت دار الإمارة حتى سقطت الدولة الأموية وبنيت المعسكرات بظاهرها.

وقد وُفِّقَ عمرو بن العاص في اختيار الموقع الاستراتيجي لبناء الفسطاط سياسيا وجغرافيا، فالموقع الذي ضرب عليه عمرو فسطاطه كان موضعًا لمدينة قديمة اندثرت ثم ازدهرت ثانية مع دخول الإسلام لمصر، وإنما بنمط معماري جديد وبحياة وحضارة جديدتين، حتى أصبحت الفسطاط مع هذا كله مدينة جديدة زاهرة بكل ما يجعل شأن العواصم كبيرًا.

وكان ذلك إيذانًا بدخول وادي النيل في الإسلام لتسطع من الفسطاط فيما بعد أنوار الحضارة العربية الإسلامية وأنوار الدين الإسلامي، ولتصبح فيما بعد قاعدة الفتوح الإسلامية في المغرب.

وعن سبب التسمية نشير إلى أن عمرو بن العاص كما يذكر الطبري، وبعد فتح حصن بابليون أراد رفع الفسطاط والمسير إلى الإسكندرية .تمام فتح مصر، فإذا يمام قد فرخ في أعلاه فتركه على حاله وأوصى به صاحب الحصن والقصر.. وكما ذكرنا فيما تقدم.

فلما فتح الإسكندرية وأراد الاستقرار بها نهاه عمر بن الخطاب عن ذلك وأوصاه باختيار موضع وسط يتيسر الاتصال به، فلم يجد عمرو أنسب من اختيار الموقع الملاصق لحصن بابليون لحصانته وموقعه وسأل أصحابه: أين تنزلون؟ قالوا: نرجع إلى موقع فسطاطه لنكون على ماء وصحراء. فعاد إليها ومَصَّرَها وأقطعها للقبائل التي معه، فنسبت المدينة إلى فسطاطه، فقيل: فسطاط عمرو. فالفسطاط على هذا النحو معسكر أو مخيم أو بيت من الشَّعر.

ويذكر ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار أن العرب يقولون لكل مدينة: الفسطاط، ولذا سموا مصر بالفسطاط، ويستشهد على ذلك بحديث للرسول ﷺ رواه أبو هريرة قال فيه: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط) أي المدينة.

وعن تخطيط المدينة العمراني نشير إلى أن أول بناء اختطه عمرو بن العاص في الفسطاط كان مسجده الجامع، وكان مسجدًا كبيرًا شريف القدر شهير الذكر. ثم بنى عمرو داره الكبرى عند باب المسجد وكان يفصلها عن الجامع طريق، ثم اختط دارًا أخرى ملاصقة لها، وبنى حمام الفار (الذي سمي كذلك لصغر حجمه قياسًا بحمامات الروم الضخمة)، واختطت قريش والأنصار وأَسْلَمُ وغفار وجهينة ومن كان قد اشترك في جيش المسلمين ممن لم يكن لعشيرته في الفتح اختطوا جميعًا حول المسجد الجامع ودار عمرو.

هذا وكانت هذه الخطط في الفسطاط بمثابة الحارات في القاهرة، واختط خارجة بن حذافة غربي المسجد، وبنى أول غرفة بمصر، والغرفة هي قاعة تعلو الدار وتطل على الطريق، وهي التي أمره عمر بن الخطاب بهدمها لكي لا يطلع على عورات جيرانه.

أما الدار البيضاء التي استغرق بناؤها أربعين يومًا فاختطها عبد الرحمن بن عديس البلوي، وبُنِيَتْ لمروان بن الحكم حين قدم إلى مصر وكانت صحنًا وموقفًا لخيل المسلمين بين المسجد ودار عمرو. وبنى عمرو بن العاص لبني سهم دار السلسلة الواقعة غربي المسجد. واختطت ثقيف في الركن الشرقي للمسجد الجامع. واختط أبو ذر الغفاري دار العمد ذات الحمام، واختطت همذان الجيزة وحينما أخبر عمرو عمر بن الخطاب بذلك ساءه وكتب إلى عمرو يقول:

كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك،لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فيء المسلمين حصنًا. وحينما لم يرجعوا ومن والاهم من رهطهم كيافع وغيرها بنى لهم عمرو الحصن سنة ٢٢هـ.

وكان يتوسط خطط الجيزة أرض فضاء فسيحة، فلما قدمت الإمدادات زمن عثمان بن عفان، وفيما بعد ذلك، كثر الناس في هذه الأرض وكثر بنيانها حتى

التأمت خطط الجيزة، وأصبحت امتدادًا للفسطاط وأرضًا منها.

وكثرت بالفسطاط الحارات والأزقة والدروب، التي تعتبر مظهرًا من مظاهر التوسع العمراني والازدهار الاقتصادي، ويقول في ذلك جمال الدين الشيال اعتمادًا على حفريات الفسطاط لبهجت وعكوش: أنه كان يفصل بين منازل الفسطاط أنواع من الطرقات المختلفة الاتساع والامتداد فأكبرها لا يزيد عرضه عن ستة أمتار، وأضيقها لا يتجاوز مترًا ونصف المتر، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم حارة أو درب أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التي نزلت بها أو باسم كبار العرب الذين سكنوها أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة.

كانت الفسطاط والتى شيدت بالقرب من حصن بابليون مركزا رئيسيا للتجارة البحرية الخارجية، لوقوعها علي النيل في موقع متوسط بين الوجهين البحري والقبلي، ولاتصالها بثغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل. تأكد هذا الدور في العصر الفاطمي لاتصالها بالقاهرة، مقر الخلفاء الفاطميين. وأصبحت الفسطاط ميناء للتجارة القادمة من الصين والهند واليمن وأوروبا، كما أصبحت المركز الرئيسي لحركة النقل المائي. وقد وصفها المقريزى بإنخفاض أسعارها عن القاهرة. ووجدت المحال التجارية على ساحل الفسطاط، حيث تفرغ البضائع مباشرة على أبوابها. وكان يستحيل نقل البضائع علي ظهور الدواب نظرا لازدحام مدينة الفسطاط. حتى إن الرحالة المقدسي، الذي زار مدينة الفسطاط، تعجب من كثرة السفن والمراكب التي رآها بميناء الفسطاط. كما أن الرحالة ابن سعيد، الذي زار الفسطاط، قال "لئن قلت إنني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإني أقول حقا".

وعندما كانت ترسو المراكب الواصلة إليها والمحملة بأصناف الغلات المختلفة، كان الحمالون يقومون بحمل ذلك إلى أماكن التخزين الخاصة بها التي تقوم في عدة أماكن بالقاهرة.

ونلاحظ ان مركز الفسطاط التجاري لم يهتز بشدة عقب المجاعة والشدة، التي حدثت في عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

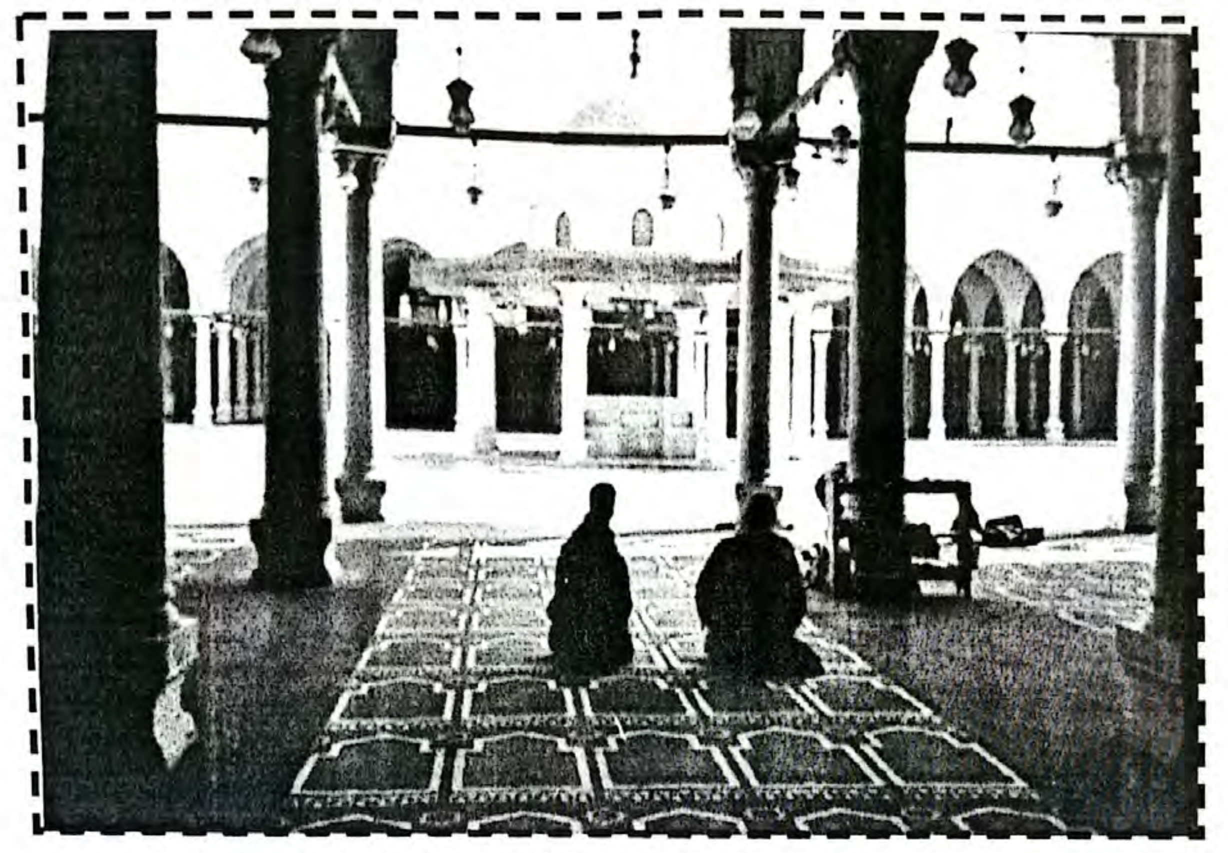
وقد قام أحمد بن طولون ببناء ترسانة، في جزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط، وعندما تولى محمد بن طغج الإخشيدى الحكم، حول منطقة ترسانة الفسطاط إلي حديقة، وأنشأ ترسانة جديدة سنة ٣٢٥هـ / ٩٣٧م.

ويقال إنها ظلت تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك. كما ذكر في المصادر التاريخية، أن هذه المدينة هى مركز تصنيع الأسطول الذي استخدمه صلاح الدين في البحر المتوسط لمحاربة الصليبيين، كما حدث في عهد الملك الكامل محمد وولده الصالح نجم الدين أيوب. وكانت هذه السفن تجهز بالأسلحة والمحاربين، ثم كان يتم إرسالها من الفسطاط عن طريق النيل إلى الموانى الشمالية مثل الإسكندرية، ورشيد ودمياط. كما كان للترسانة أيضاً دور حيوى في بناء المراكب البحرية في عصر المماليك، فقد منع السلطان الظاهر بيبرس الناس من التصرف في خشب السفن وأمر بإنشاء عشرين مركباً. كما كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأخوه السلطان الناصر محمد بن قلاوون من كبار صناع السفن في الفسطاط. ويفهم من كتب المؤرخين أن دار صناعة الفسطاط قد توقفت عن العمل في عصر الناصر محمد بن قلاوون.

وعن معالم الفسطاط سنجد :

جامع عمرو بن العاص: جامع عمرو بن العاص أول جامع أقيم في مصر، ويعرف بالجامع العتيق، وكان موضعه جبانة، وعندما نزل المسلمون في مكانه حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التجيبي ونزله، وحينما رجع المسلمون من الإسكندرية إلى هذا المكان، سأل عمرو قيسبة في منزله هذا أن يجعله مسجدًا فتصدق به على المسلمين، فبُنِيَ في سنة ٢١هـ، وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جِلّة الصحابة رضوان الله عليهم قال المقريزي: إنهم ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن

الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان طوله خمسين ذراعًا في عرض ثلاثين، ثم توالت الزيادات.



جامع عمرو بن العاص

وكانت تقام فيه حلقات الدروس، بعضها للإرشاد، والآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب، فكان جامعة إسلامية ذاع ذكرها في الآفاق، وصار يقصدها الطلاب من الأقطار المختلفة.. ويروي ابن إسحاق أن عَمرًا بنى بعد فتح الإسكندرية مسجدًا كان لا يزال باقيًا إلى عصره .

ويعتبر جامع عمرو بن العاص هو أول مسجد في مصر وإفريقيا كلها.

وكما ذكرنا يقع الجامع بالفسطاط بحي مصر القديمة، فبعد فتح الاسكندرية أرادها عمرو عاصمة لمصر فأمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ينزل المسلمين منزلاً لا يحول بينه وبينهم نهر ولا بحر، فاختار مكان فسطاطه ونزل هناك فسميت البقعة باسم الفسطاط.

ثم بنى عمرو رضي الله عنه مسجداً لإقامة شعائر صلاة الجمعة فبني هذا المسجد

الذي سمي باسمه حتى الآن، وكان يعرف أيضاً بمسجد الفتح ... والمسجد العتيق... وتاج الجوامع، وكان أول إنشائه مركزا للحكم ونواة للدعوة للدين الإسلامي بمصر.

ثم بنيت حوله مدينة الفسطاط التي هي أول عواصم مصر الإسلامية، وأخذ الفسطاط يتسع سريعاً بعد أن نزلت فيه القبائل العربية الإسلامية مثل (أسلم، بَلِيّ، معاذ، ليث، عنزة، هُذَيل، عدوان).. حتى أصبحت المدينة الجديدة حاضرة مصر.

كانت مساحة الجامع وقت إنشائه ٥٠ ذراعاً فى ٣٠ ذراعاً وله ستة أبواب، وظل كذلك حتى عام ٥٣هـ / ٦٧٢م حيث توالت التوسعات فزاد من مساحته "مسلمة بن مخلد الأنصاري" والي مصر من قبل "معاوية بن أبي سفيان" وأقام فيه أربع مآذن، وتوالت الإصلاحات والتوسعات بعد ذلك علي يد من حكموا مصر حتى وصلت مساحته بعد عمليات التوسيع المستمرة نحو أربعة وعشرين ألف ذراع معماري، وهو الآن١٢٠ فى ١١٠أمتار (أي حوالي ١٣٢٠٠ متر)

وفي عام ٥٦٤ هـ إبان الحملة الصليبية على بلاد المسلمين، تخوف المسلمون من احتلال مدينة الفسطاط التي فيها جامع عمرو بن العاص، فعمد الوزير الضعيف شاور إلى إشعال النيران فيها، لعجزه عن الدفاع عنها، فاحترقت المدينة، وتخرب جامع عمرو بن العاص، وتشعث، بعد أن استمرت النيران ٤٥ يوماً تتأجج في الفسطاط وتأتي على ما فيه.

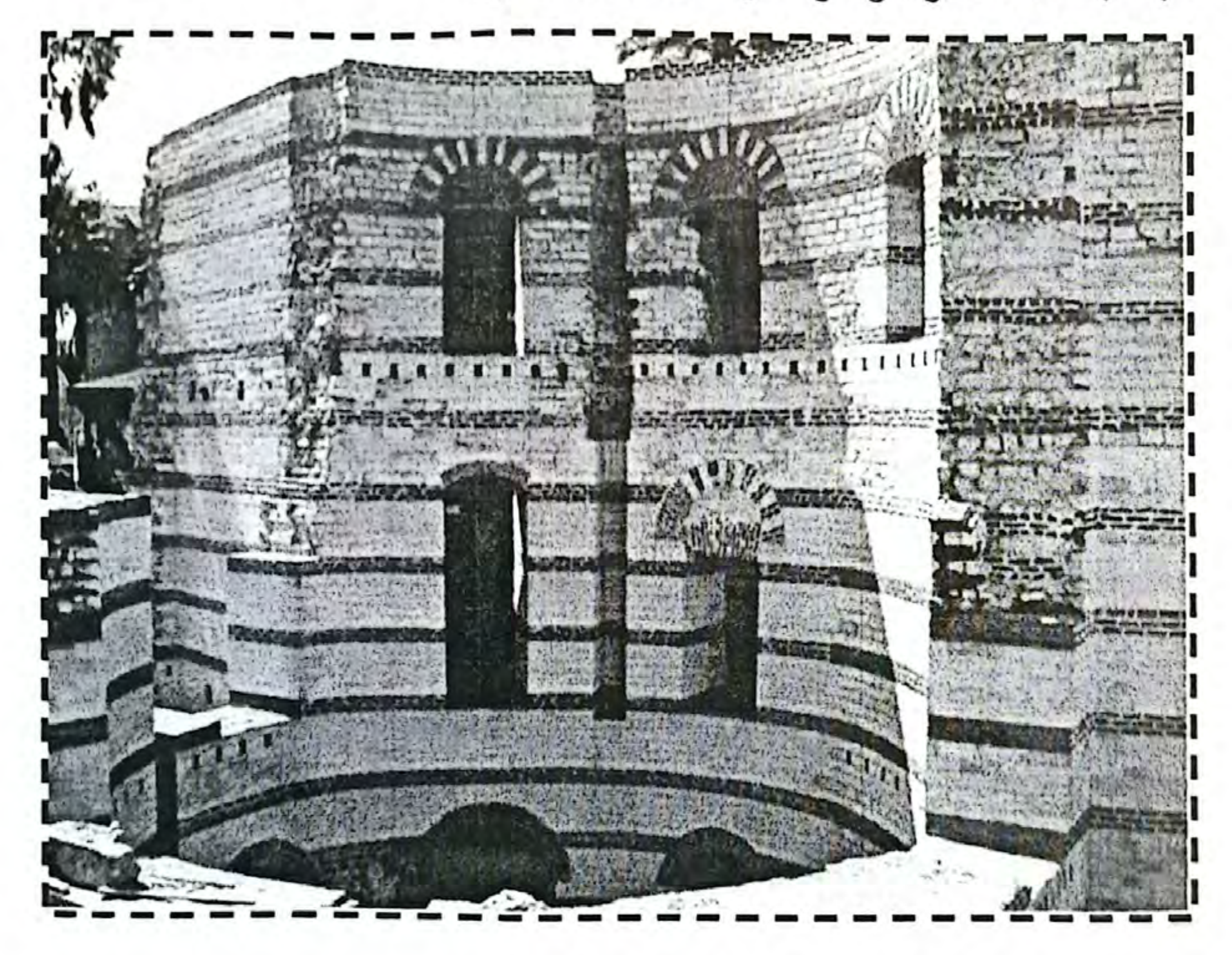
إلا أن بطل تحرير بلاد المسلمين من الصليبيين صلاح الدين الأيوبي، بدأ مرحلة إعمار المسجد من جديد بعد تلك النكبة المهولة، فأصلح منه عام ٥٦٨ هـ كثيراً، وأعاد بناء صدر الجامع والمحراب الكبير، وكساه بالرخام، ونقش عليه نقوشاً حسنة منها اسمه.

وفي١٢١٢ في عهد العثمانيين قام الأمير مراد بك بإعادة بناءٍ داخلِ الجامع بعد هدمه، إثر سقوط إيوانه وميل عُمُده، إلا أن القائمين على البناء لم يكونوا بمستوى العمل الكبير والمهمة العظيمة لمثل هذه المساجد الضخمة، فكان ترميم

مراد بك غير منتظم ولا متناسق، غير أنه بنى بالمسجد منارتين هما الباقيتان إلى الآن.

ووافق الفراغ من ترميم مراد بك لمسجد عمر بن العاص آخر جمعة من شهر رمضان، فاحتفل بافتتاحه، وأثبت تاريخ هذه العمارة في ألواح تاريخية فوق الأبواب الغربية وفوق المحرابين : الكبير والصغير.

وقد اتخذت عادة الاحتفال الشعبي الكبير بآخر جمعة في رمضان في هذا المسجد بصلاة الأمراء والملوك فيه منذ ذلك الحين.



حصن بابليون

حصن بابليون: يقع حصن بابليون الآن في القاهرة القبطية عند محطة مار جرجس (إحدى محطات مترو أنفاق حلوان). وكان الإمبراطور تراجان قد أمر ببنائه في القرن الثانى الميلادى في عهد الاحتلال الرومانى لمصر وقام

بترميمه وتوسيعه وتقويته الإمبراطور الرومانى أركاديوس في القرن الرابع حسب رأى العلامة القبطى مرقص سميكة باشا. و قلعة تراجان هذه غير القلعة القديمة التى ذكرها إسترابو المؤرخ وكان موقعها إلى الجنوب من قصر الشمع بالقرب من دير بابليون الحالى .

ويلاحظ أنه استعمل في بنائه أحجارا أخذت من معابد فرعونية وأكملت بالطوب الأحمر مقاسه ٣٠/٢٠/١٥ سم ولم يبق من مبانى الحصن سوى الباب القبلى يكتنفه برحان كبيران - وقد بنى فوق أحد البرجين الجزء القبلى منه الكنيسة المعلقة - كما بنى فوق البرج الذى عند مدخل المتحف القبلى كنيسة مار جرجس الرومانى للروم الأرثوذكس (الملكيين) أما باقى الحصن وعلى باقى السور في بعض أجزائه من الجهه الشرقية والقبلية والغربية بنيت الكنائس - المعلقة - وأبو سرجة - ومار جرجس - والعذراء قصرية الريحان - ودير مار جرجس للراهبات - والست بريارة - ومعبد لليهود .

يعرف الحصن الرومانى بقصر الشمع أو قلعة بابليون وتبلغ مساحته حوالى نصف كيلومتر مربع ويقع بداخله المتحف القبطى وست كنائس قبطية ودير. وإطلاق اسم قصر الشمع على هذا الحصن أيضاً يرجع إلى أنه في أول كل شهر كان يوقد الشمع على أحد أبراج الحصن التى تظهر عليها الشمس ويعلم الناس بوقود الشمع بانتقال الشمس من برج إلى آخر.

الكنيسة المعلقة: الكنيسة المعلقةسميت بالمعلقة لأنها بنيت على برجين من الأبراج القديمة للحصن الروماني (حصن بابليون)، ذلك الذي كان قد بناه الإمبراطور تراجان في القرن الثاني الميلادي، وتعتبر المعلقة هي أقدم الكنائس التي لا تزال باقية في مصر .

تقع الكنيسة المعلقة في حي مصر القديمة، في منطقة القاهرة القبطية الأثرية الهامة، فهي على مقربة من جامع عمرو بن العاص، ومعبد ابن عزرا اليهودي، وكنيسة القديس مينا بجوار حصن بابليون، وكنيسة الشهيد مرقوريوس

(أبو سيفين)، وكنائس عديدة أخرى.

تذهب بعض الروايات إلى أن الكنيسة بنيت على أنقاض مكان احتمت فيه العائلة المقدسة (السيدة مريم العذراء، المسيح الطفل، و القديس يوسف النجار) أثناء الثلاث سنوات التي قضوها في مصر إستنادا إلى الكتاب المقدس هروبا من هيرود حاكم فلسطين الذي كان قد أمر بقتل الأطفال تخوفا من نبوؤة وردته. والبعض يرى أنها مكان لقلاية (مكان للخلوة) كان يعيش فيها أحد الرهبان النساك، في واحد من السراديب الصخرية المحفورة في المكان.

جددت الكنيسة عدة مرات خلال العصر الإسلامي مرة في خلافة هارون الرشيد حينما طلب البطريرك الأنبا مرقس من الوالي الإذن بتجديد الكنيسة. ومرة في عهد العزيز بالله الفاطمي الذي سمح للبطريرك افرام السرياني بتجديد كافة كنائس مصر، وإصلاح ما تهدم. ومرة ثالثة في عهد الظاهر لإعزاز دين الله.

كانت مقرا للعديد من البطاركة منذ القرن الحادي عشر، و كان البطريرك خريستودولوس هو أول من اتخذ الكنيسة المعلقة مقرا لبابا الإسكندرية، وقد دفن بها عدد من البطاركة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، ولا تزال توجد لهم صور وأيقونات بالكنيسة تضاء لها الشموع، وكانت تقام بها محاكمات الكهنة، والأساقفة، ومحاكمات المهرطقين فيها أيضا، وتعتبر مزارا هاما للأقباط، نظرا لقدمها التاريخي، وارتباط المكان بالعائلة المقدسة، ووجودها بين كنائس وأديرة لقديسين أجلاء، فتسهل زيارتهم أيضا.

وكانت الفسطاط والتى شيدت بالقرب من حصن بابليون مركزا رئيسيا للتجارة البحرية الخارجية، لوقوعها على النيل في موقع متوسط بين الوجهين البحري والقبلي، ولاتصالها بثغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل.



الكنيسة المعلقة

تأكد هذا الدور في العصر الفاطمي لاتصالها بالقاهرة، مقر الخلفاء الفاطميين. وأصبحت الفسطاط ميناء للتجارة القادمة من الصين والهند واليمن وأوروبا، كما أصبحت المركز الرئيسي لحركة النقل المائي.

وقد بدات مدينة الفسطاط أول مدينة إسلامية أنشئت في مصر منذ حوالي ١٤٠٠ عام في الكشف عن بعض أسرارها، حيث أسفرت أعمال التنقيب، التي أجريت بالقرب من جامع عمرو بن العاص، عن الكشف عن بقايا ساقية ربما ترجع إلى العصر العباسي.

ويقول إبراهيم عبدالرحمن مدير منطقة آثار الفسطاط إنه تجري حاليا أعمال التنقيب للكشف عن بقايا القناطر التي كانت مرتبطة بهذه الساقية، وتحديد اتجاهاتها، وذلك في ضوء المعلومات المتوافرة عن التطور العمراني لمدينه الفسطاط منذ إنشائها حتى سنوات اضمحلالها.

وقد أسفرت أعمال التنقيب والحفر كما تقول زينب طايع كبيرة مفتشي آثار الفسطاط عن الكشف عن تحف منقولة عبارة عن عملات وقطع خزفية وفخارية أثرية ترجع إلى العصور الأولى في الإسلام.

وأكدت أن المنطقة التي تجري بها حاليا أعمال الحفر تبشر بالكشف عن الكثير من أسرار الفسطاط القديمة، حيث لم يسبق القيام بأعمال التنقيب بها من قبل.

وأوضحت أنه يجري حاليا بالتعاون مع محافظة القاهرة التخطيط لإزالة منطقه عزبة أبو قرن الملاصقة لمنطقة الحفائر، وذلك في إطار الجهود الجادة لإبراز الوجه الحضاري لمدينة الفسطاط الأثرية.

وكانت أعمال الحفر والتنقيب في المنطقة قد بدأت مؤخرا، وذلك عقب إزالة منطقة الفواخير خلف جامع عمرو.

ويقول عبدالله العطار رئيس قطاع الآثار الإسلامية والقبطية إن فريق الحفر الياباني التابع لمركز ثقافة الشرق الأوسط باليابان كان قد أبدى رغبته في

مشاركة مصر في أعمال الحفر والتنقيب.

كما أبدي الرغبة نفسها فريق مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة.

وقد وافقت اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية على مشاركة الجانبين الياباني والأمريكي لمصر في أعمال التنقيب شريطة توفيرهما الأجهزة المساحية والتكلفة المادية لأعمال التصوير الفوتوغرافي.

وقد تم في إطار هذه الموافقه اختيار موقع الحفر بالقرب من جامع عمرو بن العاص.

حيث قام فريق العمل المصري بالتعاون مع فريق الآثار الياباني في حفر مربعين يبلغ أبعاد كل منهما ١٥ مترا × ١٥ مترا،.

وبعد ظهور المياه الجوفية تم توصيل الحفر بينهما، مما ترتب على ذلك الكشف عن بقايا الساقية التي ربما ترجع للعصر العباسي.

■ ■ ■

٢١
قرطاج.. الأميرة إليسا والقائد هانيبال

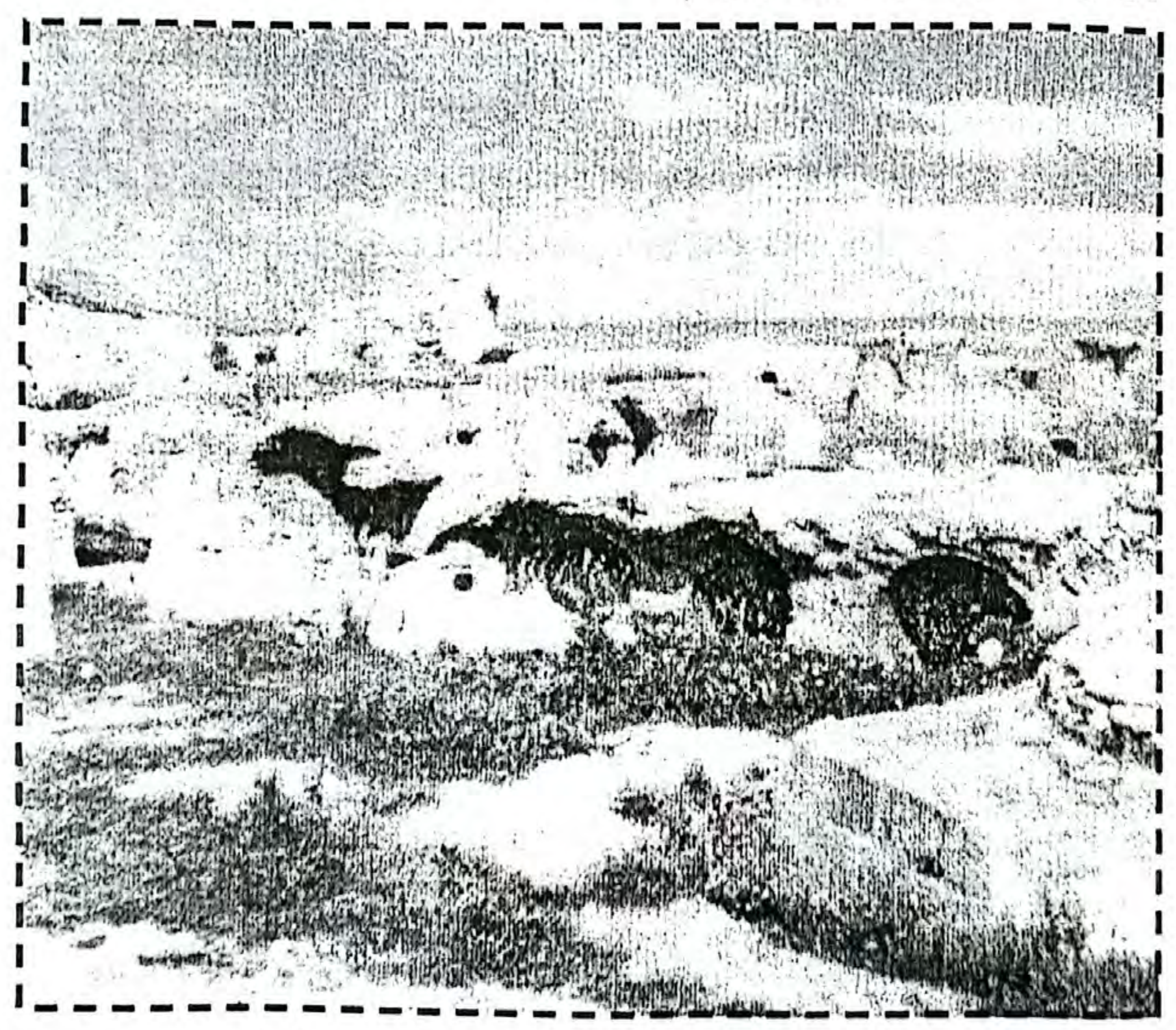
أسست الأميرة الفينيقية عليسة (أليسا أو أليسار) قرطاج عام ٨١٤ قبل الميلاد، حسب رواية المؤرخين القدماء. وجاءت الأميرة هاربة مع أصحابها من مدينة صور في لبنان، وسموا المدينة "قَرْتْ حَدَشْتْ"، وتعني "مدينة جديدة" (من الفينيقية: قَرْتْ أي مدينة، وحَدَشْت أي حديثة)، فأصبح الاسم "قرطاج" عن طريق النطق اللاتيني. وكانوا يعبدون خاصة "ملقرت"، واسمه يعني "ملك المدينة".

تقع قرطاج في مكان مهم بين شرق وغرب البحر الأبيض المتوسط، سهل عليها التجارة، فذهبت سفنها إلى كل أنحاء البحر، من المشرق حتى أبعد من موريتانيا، وأسسوا مدناً صغيرة على شواطئ صقلية والمغرب وسردينية وإسبانيا. وبدؤوا أيضاً استعمار بلاد تونس نفسها، وكانوا يسكنون الشواطئ فقط خوفاً من الحرب مع البربر الذين سكنوا البلاد. وهكذا أصبحت قرطاج المركز التجاري لغرب البحر الأبيض المتوسط كله قبل القرن الخامس قبل الميلاد.

كان هدف معظم المدن اليونانية هو نفسه هدف قرطاج، أي السيطرة على التجارة في البحر الأبيض المتوسط، ولهذا قامت بينهما عداوة دائمة. بدأ كلاهما باستعمار جزيرة صقلية منذ زمن، ولما رأت قرطاج أن جيلون، دكتاتور مدينة سيراقوسة، يحاول توحيد المدن اليونانية في صقلية، قررت محاربته في عام ٤٨٠ قبل الميلاد. فأرسلت جيشاً كبيراً بقيادة هملقار، ولكن معظم الجيش غرق مع سفنه، فهزم في هيميرا قرب باليرمو، وبسبب الهزيمة انتحر هملقار وتحولت حكومة قرطاج من أرستقراطية إلى جمهورية.

الحرب الصقلية الثانية

بعد أقل من سبعين عاماً رجعت قرطاج إلى قوتها الأصلية، فأنشأت مدناً كثيرة في شمال تونس. وفي عام ٤٠٩ ق م، انطلق حنبعل ماجو حفيد حملقار ليحارب ضد مدن صقلية اليونانية وفتح مدن سلينونتي وهيمبرا كلها، وخاصة المدينة الأقوى سيراقوسة، لكن الطاعون أصاب جيشه، فمات الكثير منهم ومن ضمنهم حنبعل ماجو. استغل القائد حملكو الحرب، واحتل مدينة جيلا، لكن تحت أثر الطاعون الشديد اضطر إلى الاتفاق مع ديونيزيوس ديكتاتور سيراقوسة على العودة إلى ديارهم.



من آثار مدينة قرطاج فى تونس

بعد مدة وجيزة - في عام ٣٩٨ ق م - نقض ديونيزيوس الاتفاق وهاجم المدينة القرطاجية موتيا في صقلية، فدافع عنها القائد حملكو وبعد نجاحه احتل المدينة اليونانية ميسينا أيضاً، وأخيراً هاجم سيراقوسة طوال عام ٣٩٧ق.م، لكن عاد الطاعون في سنة ٣٩٦ ق م فولوا الأدبار.

بعد ذلك، عادت الحروب مرات عديدة طوال ٦٠ سنة، وانتهت الحروب سنة ٣٤٠ ق م بتقسيم الجزيرة بين قرطاج في الجنوب الغربي والمدن اليونانية على الشواطئ الأخرى.

الحرب الصقلية الثالثة

في عام ٣١٥ ق م احتلّ أغاثوقليس (دكتاتور سيراقوسة) مدينة ميسينا، ثم نقض اتفاق السلام بينه وبين قرطاج وهاجم الجزء القرطاجي لصقلية ومدينة اكراغاس أيضاً. على إثر هذا، أرسلت قرطاج حملقار حفيد حنى الطيار ليحاربهم، فكان نجاحه عظيماً، ففي عام ٣١٠ ق م كان يحكم تقريبا كل الجزيرة وكان جيشه يحاصر سيراقوسة نفسها. لكن أغاثوقليس ذهب سرا مع جيش قوامه ١٤٠٠٠ جندى ليهاجم قرطاج نفسها، فدعا مجلس قرطاج حملقار للعودة والدفاع عن المدينة. وفي النهاية، ربحت قرطاج جزءاً كبيراً من صقلية، لكن حتى بعد نصر حملقار على جيش أغاثوقليس لم يستطع فتح سيراقوسة.

حروب بيروس الأبيري

كان بيروس الأبيري ملكاً يونانيّا في ألبانيا، فدعته المدن اليونانية في جنوب إيطاليا وصقلية ليحكمهم ويدافع عنهم، وخلال الفترة الواقعة بين ٢٨٠ و ٢٧٥ ق م، حارب عدويه اللدودين روما وقرطاج. في النهاية، خسر في حروبه، فعادت صقلية إلى ما كانت وحكمت روما كل جنوب إيطاليا، وهكذا اقتربت روما من قرطاج للمرة الأولى.

الحروب البونيقية (الرومانية)

الحرب البونيقية الأولى : لما مات الدكتاتور أغاثوقليس عام ٢٨٨ ق م، فقد،

الأجراء الإيطاليون في جيشه عملهم، فغضبوا وحكموا مدينة ميسينا وسموا أنفسهم "ماميرتين" يعني "تابعي إله الحرب" وشرعوا يهاجمون كل مدن صقلية. وبعدما أصبح هييرون الثاني دكتاتور سيراقوسة في عام ٢٦٥ ق م هاجمهم، فأرسل الماميرتين سفيراً إلى روما ليطلب معونتها، وسفيراً ثانياً إلى قرطاج. فأجابت قرطاج وبعثت جيشاً إلى مدينة ميسينا بينما ظل مجلس أعيان روما يناقش الموضوع . لكن بعد فترة وجيزة اتفق القرطاجيون مع سيراقوسة، فطلب الماميرتين معونة روما ليخرجوا جيش قرطاج. لم تقبل روما أن تتكون دولة قوية في ميسينا لأنها قريبة جدا من جنوب إيطاليا، فقررت أن تبعث جيشاً لمساندة الماميرتين، فبدأت الحرب البونيقية الأولى.

لم يكن النصر حليف الجيش الروماني الأول، فأرسلت روما في عام ٢٦٣ ق م جيشاً ثانياً، وبعد استحواذه على بعض المدن الصقلية، نقض هييرون الثاني اتفاقه مع قرطاج وحالف روما. رأت روما أن الحرب أصبحت فرصة لاحتلال صقلية كلها، ولذلك بدأت ببناء أسطولها البحري. لم يكن في روما أي سفينة في البداية، فصعب ذلك عليها، لكن أضيف إلى السفن سلاح جديد يُسمى الـ"كورفوس" (يعني الغراب) وهو خشبة طويلة تستعمل كجسر لدخول سفن الأعداء، وبه ربحوا في البحر. وفي ٢٥٥ هاجموا قرطاج نفسها، وكادت قرطاج تستسلم، لكن استمرت الحرب بعد سماعهم شروط روما فتمكنوا من طرد الرومان من إفريقية، ثم حاربوهم في صقلية وبدؤوا الحرب الثانية ضد نوميديا في إفريقية؛ ولما صار النصر وشيكاً في صقلية، قرروا أن يرسلوا معظم سفنهم إلى نوميديا في عام ٢٤٧ ق م، فلم يكن النصر حليف أحد في صقلية وقتاً طويلاً. لكن في النهاية بنت روما أسطولاً جديداً دمّر سفن قرطاج، فسلمت قرطاج كل صقلية إلى روما وانتهت الحرب البونيقية الأولى في عام ٢٤١ ق م.

قدّم القرطاجيون مالاً كثيراً للرومان كجزء من اتفاقهم، فلم يبق لديهم مال لدفعه لأجرائهم، ففضب هؤلاء وبدؤوا حرباً ضد قرطاج بمعاونة نوميديا في عام ٢٤١ ق م. كان قائدا الأجراء ماثوس اللوبي وسبنديوس العبد

الروماني، ويقال إنهما رجما كل من تحدث عن هدنة، ولهذا أيضاً تسمى "حرب اللا هدنة". وبعد سنوات، انتصر القائد القرطاجي العظيم حملقار برقة بتجنيد ١٠٠٠٠ من مواطني قرطاج (وكان معظم الجيش القرطاجي قبل ذالك من الأجراء وليس من المواطنين). وبعد نصره أصبح حملقار برقة رئيس الدولة وانطلق ليستعمر أسبانيا.

في عام ٢٣٦ ق م هاجم حملقار برقة أسبانيا، وحارب هناك حتى موته في القتال في سنة ٢٢٨ بعده قاد جيشه عزربعل، وكان حملقار برقة قبل موته في ٢٢٨ ق م قد فتح أسبانيا حتى نهر الايبرو واتفق مع روما ألا يعبر ذلك النهر. وبعده أصبح قائد الجيش حنبعل ولد حملقار برقة المشهور. كان حنبعل يكره الرومان وكان يظن أنه على قرطاج أن تحتل روما وإلا فستفشل كليا. وفي عام ٢١٩ هاجم ساغونتوم، وهي مدينة مستقلة وراء نهر الايبرو، ونقض كذلك اتفاق عزربعل، فبدأ الحرب البونيقية الثانية.

بعد عبور الايبرو سار حنبعل وجيشه بسرعة، واجتازوا جبال الألب في ٢١٨ق.م. ولما وصلوا إلى إيطاليا دخل في جيشهم كثير من الأجراء والحلفاء من قبيلة الكول فاستطاع هزيمة الجيوش الرومانية في المنطقة بسهولة. ولما رأى الناس هذا سارع إلى محالفته الكثير من مدن إيطاليا ومنها سيراقوسة. في نفس الوقت كان ثمة جيش روماني يحارب في أسبانيا، فاقترب من روما حتى وصل الى ميناء كابوا في ٢١١ ق م، لكن بسبب موت أخيه عزربعل في عام ٢٠٧ رجع إلى مدينة بروتيوم في جنوب إيطاليا. وأخيراً حالف الرومان الملك النوميدي ماسينيسا وأرسلوا جيشاً ليهاجم إفريقيا نفسها، ونجت روما بعد مدة وجيزة ودخلت أسبانيا كلها في اتفاق السلام، ومُنعت قرطاج من أي حرب - حتى ولو كانت دفاعاً عن نفسها - إلا بإذن روما.

وفي عام ١٩٥ ق م، وبعد أن طرد الرومان حنبعل من قرطاج، أخذ ماسينيسا ملك نوميديا جزءاً كبيراً مما كان تحت ملك قرطاج في إفريقيا، من عنابة في

الجزائر حتى لبدة الكبرى في ليبيا، وهو يعلم أنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم إلا بإذن حليفته روما. وفي عام ١٦٠ احتل المزيد من أراضي قرطاج، فبعثت قرطاج سفيراً إلى روما لتطلب إذنهم بالحرب، فأمرت روما عندها ماسينيسا أن يرد لقرطاج بعض المدن؛ لكن ذلك لم يكن كافياً في رأي قرطاج، ففي عام ١٥١ ق م، حاربوا ماسينيسا وخسروا بسرعة. وكان فريق كبير في روما يريد تدمير قرطاج تدميراً تاما - وأشهر هؤلاء كان ماركوس كاتون الذي زار قرطاج في عام ١٥٥ ق م وبعد زيارته كان يختتم كل خطاب له في المجلس بصرخة Carthago delenda est علينا أن ندمر قرطاج" - فزعموا أن قرطاج نقضت الاتفاق وهجموا عليها.

كانت الحرب البونيقية الثالثة أسرع من الحروب قبلها. أولا حاصر جنود روما قرطاج مدة ٣ سنوات، ثم نجحوا في دخولها ودمروها تدميراً شاملاً. ذبحوا معظم المدنيين وباعوا من تبقى كعبيد، وحرقوا المدينة ودمروا جدرانها، ويقال إنهم حرثوا الأرض بالملح لكي لا ينمو فيها أي نبات بعد ذلك ولا يسكنها أحد. وانتهت شهرة قرطاج وثبتت أقدام إمبراطورية روما.

ولم يبق شيء من قرطاج، لكن موقعها لم يزل من أفضل الأماكن حول البحر الأبيض المتوسط لبناء مدينة. وبعد قرون، قرر يوليوس قيصر أن يبني هناك (قرطاج) جديدة ليسكنها الرومان. وأصبحت قرطاج الجديدة عاصمة إفريقية الرومانية. وفي عام ٤٣٩ م، احتل غيسريك ملك قبيلة الفاندال الألمانية قرطاج، وحكمها الألمان حتى عودة الرومان البيزنطيين في ١٥ أكتوبر ٥٣٣ بقيادة بيليساريوس. لكن في أواخر سنين الإمبراطورية الرومانية قل عدد سكان إفريقية الشمالية، وبعد فتح قرطاج في سنة ٦٩٨ م أصبحت مدينة قريبة منها تسمى تونس أهم منها، وأخيرا أصبحت قرطاج أثراً غير مسكون، يبني بها سكان تونس بيوتهم.

وصف أرسطو حكومة قرطاج سنة ٣٤٠ ق م وقال إنها كانت أساساً حكومة أغنياء المدينة، وأن أساس نجاحها كان نموها الاقتصادي الدائم واستعمارها؛

وهكذا كان كل مواطن يرى أن حاله يتحسن. وكان أكبرهم الـ"شوفط"، قاضي القضاة، وقائد الجيوش الذي لم يكن ضمن حكومة المدينة؛

وفي القديم أيضاً كان لهم ملوك، دونهم كان مجلس الشيوخ ودونه مجلس المدنيين. أما اختيار الشوفطين والملوك فكان حسب حسنهم ومالهم، ولا يرتبط بعائلاتهم. ويذكر أرسطو أن من أراد مجادلة الملوك والشوفطين يستطيع فعل ذلك عند مخاطبة الملوك والشوفطين للشعب. وفي معظم تاريخهم كان جنودهم أجراء لا حلفاء، وكان هذا يسبب مشكلات كبيرة في بعض الأحيان.

وكان شعب قرطاج يعبد الأصنام كعادة الكنعانيين، وأهم آلهتهم بعل وملقرت وتنيت. ويظهر أنهم كانوا يرمون أطفالهم في النار قرباناً لآلهتهم في حال بدوّ خطر كبير على المدينة، أما في الأحوال العادية فيذبحون الحيوانات فقط .

للأسف الشديد، لم يتبق أي كتاب بونيقي (ولا فينيقي) إلا ترجمة يونانية لكتاب ماجو حول الزراعة. لكن يذكر الكاتب الروماني سالوست في كتابه حرب يوغرطا أن قرطاج كان فيها كتب عديدة تاريخية وجغرافية، وأنها لم تحترق في تدمير قرطاج، بل استولى عليها أهل نوميديا المجاورة؛ ويبدو مما اكتشف في رأس الشمرة أن أساطيرهم كانت طويلة ومتنوعة. لقد أتقن القرطاجيون صناعة الزجاج، وكانوا هم أول من صنعه، واشتهروا أيضا بصبغ الملابس باللون القرمزي.

ولكن من هي الملكة إليسا؟.. كيف انطلقت من صور في لبنان لتصل إلى تونس؟.. كيف تم إنشاء دولة قرطاجة؟.. وكيف امتدت هذه الدولة لتشمل مناطق من إسبانيا وإيطاليا؟؟ ومَن بنى مدينة برشلونة؟.. ومن هو هانيبال؟.. وكيف أسقط الرومان هذه الدولة؟

كثير منا لا يعرف دولة قرطاجة رغم ارتباطها بكثير من الأسماء والمواقع التاريخية البارزة.. سأقدم لكم فيما يلي لمحة عن تاريخ هذه الدولة التي أنشأها الأقدمون..

في عام ٨١٤ قبل الميلاد كان الفينيقيون يسودون سواحل شرق المتوسط،

وكانت طموحاتهم تسعى إلى الامتداد وراء سواحل هذا البحر.. وفي هذا العام بالذات وصلت سفنهم إلى الشواطئ التونسية قادمين من عاصمتهم صور في لبنان بقيادة إليسا، وهي ابنة بيلوس ملك الفينيقيين.

وبإشراف إليسا شيدت مدينة قرطاجة التي أصبحت أكبر مركز تجاري في غربي البحر المتوسط في ذلك الوقت، وأصبحت إليسا ملكة عليها. وتعني كلمة قرطاجة باللغة الكنعانية العاصمة الجديدة أو المدينة الجديدة، وقد تميزت بأسوارها المنيعة التي بلغت ١٢ متراً ارتفاعاً و ٩ أمتار عرضاً.

لقد شكلت قرطاجة مركزاً عسكريا وتجاريا انطلق الفينيقيون منه ليوسعوا سيطرتهم على غربي المتوسط، فاتسعت الأراضي التي سيطروا عليها لتشمل شمالي إفريقيا وجنوب شرق شبه الجزيرة الإسبانية إضافة لجزر سردينيا وكورسيكا والنصف الغربي من صقلية.

وقد كان القرطاجيون الفينيقيون دعاة بناء وحضارة، فقد أنشؤوا على السواحل الإسبانية مدينة قرطاجة الجديدة أو قرطاجنة في الجنوب، وأنشأوا مدينة بارسينو في الشمال قرب الحدود الإسبانية الفرنسية في عام ٢٣٠ ق.م، وتم ذلك من قبل القائد القرطاجي باركا والد هانيبال، وأصبحت هذه المدينة تعرف باسم برشلونة.

ورغم أن الدولة الفينيقية على سواحل المتوسط قد انهارت على يد الآشوريين الذين دخلوا العاصمة صور كما كانت تعرف في ذلك الوقت، في عام ٧٣٢ ق.م ومن ثم تخريبها من قبل البابليين عام ٥٧٣ ق.م، إلا أن دولة قرطاجة بقيت تابعة للفينيقيين.

كان الإغريق هم القوة الوحيدة المهددة لهذه الدولة بحكم سيطرتهم على اليونان وإيطاليا وشمالي إسبانيا وشرق صقلية. هاجم الإغريق صقلية في عام ٥٨٠ ق.م، ولكنهم هزموا على يد القرطاجيين في معركة ألاليا قرب كورسيكا في عام ٥٣٥ ق.م والتي تحالف فيها القرطاجيون مع الإيتروسكانيين الذين كانوا

يقطنون إيطاليا في تلك الحقبة.

وفي عام ٢٦٥ ق.م ظهرت أطماع الإمبراطورية الرومانية في المساحات الحيوية التي كان القرطاجيون يسيطرون عليها، وبذلك نشب ما سماه الرومان بالحروب البونيةحيث استطاعوا في أول هذه الحروب التغلب على القرطاجيين وانتزاع صقلية منهم نهائيا.

في عام ٢١٩ ق.م هاجم هانيبال والذي عاش في الفترة ٢٤٧-١٨٣ ق.م - القبائل الإسبانية في إحدى المدن الموالية للرومان لتوسيع نفوذه في الأراضي الإسبانية، وكان رد الرومان بإعلانهم الحرب في العام التالي لتنشب الحرب الثانية بين عامي ٢١٨ و ٢٠١ ق.م.

وقد ظهرت عبقرية هانيبال الحربية حين اجتاز الأراضي الأوروبية عبر جبال البيرينيه والألب وصولاً إلى شمالي إيطاليا معقل الرومان حيث ألحق بهم عدداً من الهزائم النكراء وقتل منهم عشرات الآلاف بمساعدة الكلتيين الذين كانوا يقطنون وسط أوروبا ويكنون العداوة للرومان، وقد استخدم الفيلة في المعارك التي خاضها وحقق انتصارات باهرة.

ورغم ذلك كان لايزال هنالك حلفاء كثيرون للإمبراطورية الرومانية حيث هاجم قائدهم سكيبيو المدن القرطاجية في إسبانيا وبدأ التوغل في شمالي إفريقيا مما حدا بهانيبال بالعودة إلى إفريقيا حيث هزم في معركة زاما عام ٢٠٢ ق.م رغم براعته وحنكته وذلك بسبب التفوق العددي للرومان.

بعد ذلك أبقت روما سيادة الدولة القرطاجية على أراضيها في شمالي إفريقيا مقابل تنازلها عن نفوذها في إسبانيا. وأصبحت إسبانيا تابعة للرومان بشكل كامل. ولكن الرومان كانوا لا يزالون يطمعون بشمالي إفريقيا. ولذلك تحرك هانيبال باتجاه الشرق في عام ١٩٥ ق.م بعد أن سمع باحتمال تقدم الرومان نحوه وتحالف مع ملك سوريا الآشوري أنتيوخوس الثالث. ولكن المعركة التي خاضاها عام ١٨٣ ق.م كانت خاسرة، وكان مصير هانيبال أن ينتحر في

تركيا عام ١٨٣ ق.م خوفاً من أن يقبض الرومان عليه.

بعد موت هانيبال عقد القرطاجيون اتفاقية مع الرومان للمحافظة على نفوذهم، ولكنهم حاولوا نقض هذه الاتفاقية لاحقاً فكانت النتيجة حرباً تأديبية أخيرة تم خلالها تدمير مدينة قرطاجة من قبل الرومان. وبذلك تمت سيطرة الرومان على حوض البحر المتوسط واتسعت مساحة الإمبراطورية، وانتهى وجود دولة قرطاجة الذي استمر ٦٦٨ سنة.

كان لقرطاجة دور هام تحت النفوذ الروماني نظراً لموقعها الاستراتيجي، واستمرت كذلك إلى أن سقطت بأيدي العرب المسلمين بقيادة عقبة بن نافع في عام ٦٩٨ م/ ٧٨ هـ وذلك في زمن ولاية معاوية بن أبي سفيان.

■■■

٢٢

فلورنسا .. دافنشي والموناليزا الساحرة

فلورنسا على عكس البندقية المعروفة بقنواتها المائية وأهوارها الإدرياتيكية الضخمة وبالتالي شاعريتها ورهافتها، إذ أن فلورنسا من المدن الفريدة في العالم من ناحية التاريخ والأهمية والحكم والفنون، وإضافة إلى جمالها التوسكاني الخاص، فهي تضم أكبر مجموعة من المتاحف والمقابر والجسور والحدائق والأسوار والقصور وصالات العرض التاريخية في العالم.

ويعود تاريخ بعض المنشآت التي لا تزال حية إلى القرن العاشر.

وربما أبعد من ذلك. يمكن القول إن المدينة من المدن التي احتضنت عصر النهضة وعاش فيها الكثير من الأسماء اللامعة في عالم الفن والنحت والفلك والسياسة والحكم وغيره - من أنجلو إلى ميكافيلي صاحب «الأمير الصغير». ولهذا اعتبرتها منظمة اليونيسكو إرثا إنسانيا يجب حمايته من مواقع التراث العالمي ١٩٨٢.

ولهذا أيضا تستقبل المدينة ملايين السياح سنويا، خصوصا الباحثين عن تاريخ وأصول الحضارة الإيطالية بشكل عام بعد العصر الروماني والقرون الوسطى. بكلام آخر يصعب العثور على مدينة مماثلة في إيطاليا أو في العالم تضم هذا الكم من الفنون والقطع الفنية المهمة في مكان واحد ولهذا أطلق عليها اسم «أثينا العصور الوسطى». وتقع المدينة كما هو معروف في وسط ايطاليا وهي عاصمة المقاطعة التي تحمل نفس الاسم ويبلغ عدد سكانها حوالي

نصف مليون نسمة. وقد كانت فلورنسا عاصمة إيطاليا من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر أيام عائلة ميديتشي ونهاية القرن التاسع عشر. وتقول الموسوعة الحرة عن تاريخ المدينة، إنه يعود إلى عام ٥٩ قبل الميلاد وتأسيس قرية فلونتيا التي أريد لها أن تكون مقرا للجنود الرومان آنذاك.

وقد تبادل السيطرة على المدينة المتحضرة كل من البيزنطيين والقوط الشرقيين واللومبارديين والفرنجة. وأصبحت المدينة ذاتية الحكم في بداية القرن الحادي عشر.



مدينة فلورنسا

ومن أهم المعالم التاريخية في المدينة التي تعتبر من التراث الإنساني حسب منظمة اليونيسكو التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، ساحة السيادة، التي تضم القصر القديم. وتعتبر هذه الساحة من أهم الساحات والمراكز في وسط المدينة وتضم مجموعة لا بأس بها من المنحوتات التي تحمل معانئ سياسية موجهة للحكام. ويضم القصر القديم أو البلدية كم هو معروف عروضا لأعمال مهمة

لبرونزينو وآنجلو وجورجيو فازاري.

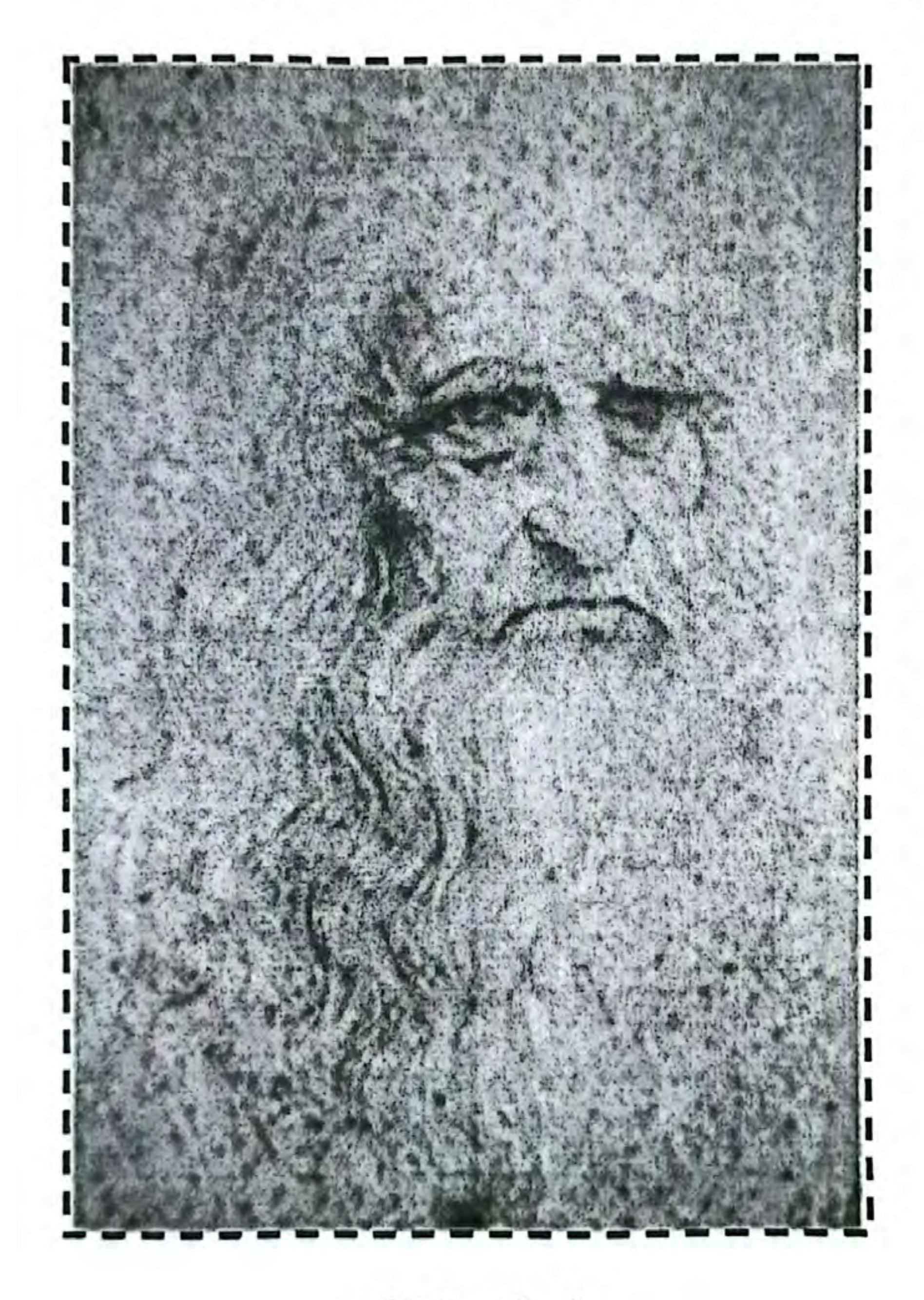
ويمكن للسائح الهروب من الساحة الرئيسية إلى ساحة الكاتدرائية التي تعتبر تحفة من التحف المعمارية والثقافية في أوروبا والعالم. وللهاربين من التاريخ يمكنهم اللجوء إلى ساحة الجمهورية التي تعج بالمقاهي والمطاعم ووسائل التلهية والترفيه وصالات العرض ومحلات التسوق.

ولمحبي كرة القدم يمكنهم التمتع بما تقدمه ساحة سانتا كروشي التي تحمل اسم الكنيسة التي تضمها وهي من الساحات القديمة التي كانت تشهد احتفالات ومسابقات رياضية قديمة في القرون الماضية ومنها لعبة كرة القدم وتشهد الساحة كل سنة مهرجانا خاصا في شهر يونيو (حزيران) لإحياء اللعبة القديمة والحفاظ على تراثها ويعتبر قصر غويلفا أيضا مقرا رئيسيا وتاريخيا لكرة القدم في المدينة. بالطبع المدينة مليئة بالساحات التاريخية والجميلة والتي تضم كل منها كاتدرائيتها أو كنيستها. مثل ساحة سان لورينزو سانتا ماريا نوفيلا والقديسة انونسياتا التي تعتبر الأجمل من الناحية المعمارية والتخطيطية. لكن لا يمكن للسائح المرور على فلورنسا من دون زيارة ساحة مايكل أنجلو التي يمكن من خلالها رؤية المدينة رؤية بانورامية عريضة لا تعوض بثمن.

ومن الساحات المحلية التي تجذب السكان المحليين بدلا من السياح هي ساحة سانتو سبيريتو في منطقة اولترارنو بسبب نشاطها المحلي الكثيف ومحلاتها ومطاعمها ومقاهيها.

وبعيدا عن الساحات هناك الكثير من القصور والحدائق والكنائس التاريخية في المدينة التي كانت مسرحا لعصر النهضة وتطوراته العمرانية والتقنية والمدنية مثل قصر عائلة ميديتشي في شارع كافورفيا الواسع. ويستخدم القصر للمناسبات والزيارات الخاصة إلى المدينة. وهناك قصر بيتي المهم على الضفة الجنوبية لنهر ارنو التي تشمل حدائق بوبولي المعروفة والمشهورة منذ سنوات طويلة تستقبل حوالي مليون سائح سنويا من جميع أنحاء العالم، لأنها نموذج

للحديقة الإيطالية الكلاسيكية. وفي القصر عدة متاحف فنية مهمة وأكبر عروض الموضة الإيطالية والديكورات والأثاثات الفاخرة.



ليوناردو دافنشي

ومن أهم قصور المدينة من الناحية المعمارية على الإطلاق هو قصر ستروتزي في شارع ترنابوني.

ومن الكنائس المعروفة جدا في المدينة والعالم كنيسة سانتا ماريا دل فيوري أو ما يعرف بكاتدرائية دومو التي تعتبر رابع أكبر كنيسة في أوروبا بعد كنيسة

القديس بطرس في حاضرة الفاتيكان، وسانت بول في لندن وكاتدرائية مدينة ميلان. ويمكن رؤية الكنيسة لضخامتها بالعين المجردة من المناطق الريفية المحاذية لمدينة براتو القريبة. وهناك كنيسة أخرى مهمة على هذا المستوى لأنها تضم رفاة الكاتب ميكافيلي والفنان مايكل آنجلو والعالم غاليليه وثلة من ألمع الأدمغة والشخصيات التي عرفتها إيطاليا في تاريخها العريق، وهي كنيسة سانتا كروشي في الساحة التي تحمل اسمها. ومن المتاحف الخاصة التي لا يمكن تجاهلها، متحف افيتسي الذي يعتبر من أقدم متاحف العالم الفنية قاطبة وهو موجود في الساحة التي تحمل اسمه أيضا.

ويضم المتحف مجموعة لا تقدر بثمن من القطع الفنية والتحف واللوحات، خصوصا لوحات بوتيتشيلي. ومتحف الأكاديمية الذي يضم مجموعة رائعة من منحوتات وتماثيل مايكل أنجلو ومنها تمثال ديفيد. ومن معالم المدينة الرائعة والكثيرة أيضا جسر سانتا ترينيتا الذي يعتبر أحد أجمل جسور إيطاليا وأوروبا والعالم المبنيه من الخشب عام ١٢٥٢ وأكثرها أناقة وجمالا.

ويربط الجسر ساحتي سانتا ترينيتا وفريسكوبالدي ويضم قصرين على جانبيه أيضا هما قصرا فيروني وديلا ميسيوني. وهناك أيضا الجسر القديم، وهو اشهر من نار على علم في المدينة وأحد أهم معالمها التاريخية، ويعود تاريخ الجسر إلى العصر الروماني وتم بناء أو ترميم الجسر عدة مرات منذ القرن العاشر وكان آخرها في عام ١٣٤٥.

وبالإضافة إلى الجسر الجديد هناك الكثير من الحدائق الرائعة والتاريخية مثل حديقة بوبولي التي ذكرناها سابقا في الضفة الجنوبية للنهر الرئيسي ارنون، وحديقة بارديني التي تنتشر على مساحة أربعة هكتارات على ضفاف نهر ارنو، وحديقة ديلا روز، وحديقة كاشيني العامة.

كما تضم فلورنسا نخبة من الفيلات والمقابر والمقامات المهمة التي كانت تملكها عائلة ميديتشي المعروفة تاريخيا ومن هذه الفلل فيلا على تلة كاستيلو

المطلة على جميع أنحاء المدينة والتي تعتبر من أجمل فلل العائلة التي سيطرت على المدينة لسنوات طويلة.

فلورنسا، مدينة في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا، عاصمة مقاطعة فلورنسا وإقليم توسكانا وهي أكبر مدنه وأكثرها سكانا وأهمها تراثا تاريخيا وفنيا واقتصاديا وإداريا، يبلغ سكانها ٣٦٦,٤٨٨ نسمة .

يخترقها نهر أرنو (الذي فاض في ٤ نوفمبر ١٩٦٦ مخلفا أضرارا جسيمة ووفاة ٣٥ شخصا)، كانت عاصمة لإيطاليا لفترة وجيزة بعد توحيد إيطاليا (١٨٦٥-١٨٧١) و لفترة طويلة أيام حكم أسرة ميديشي (١٤٣٤-, ١٤٩٤ ١٥١٢-١٥٢٧ و ١٥٣٠-١٧٣٧)، كانت فلورنسا في أوروبا العصور الوسطى مركزا هاما من الناحية الثقافية والتجارية والمالية.

وتعتبر منشأ عصر النهضة واشتهرت في العالم بأسره كمهدٍ للفن والعمارة بمبانيها التاريخية العديدة ومعالمها ومتاحفها الغنية، فاشتهرت باعتبارها واحدة من أجمل وأهم مدن العالم . سميت المدينة أثينا العصور الوسطى .

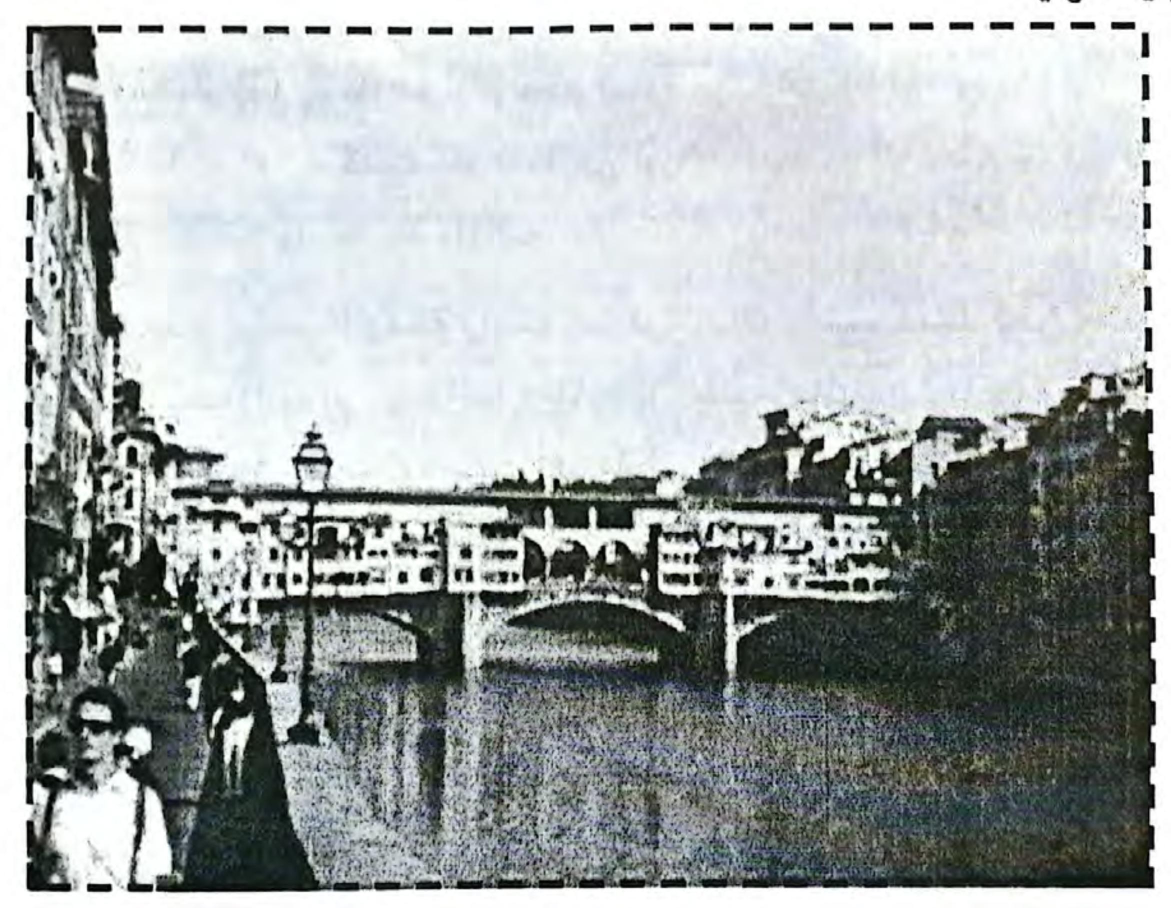
والتاريخ المعروف عن فلورنسا يبدأ من عام ٥٩ قبل الميلاد، بتأسيس قرية (florentia) لجنود رومان سابقين. كانت مقرا لأسقفية منذ القرن الرابع، تبادل السيطرة على المدينة كل من البيزنطيين والقوط الشرقيين واللومبارديين والفرنجة خلالها انخفض عدد سكانها عدد مرات حتى بلغ إلى ما دون الألف قاطن.

تقدمت المدينة ابتداءً من القرن العاشر، وبحلول عام ١١١٥ أصبحت بلدية ذاتية الحكم. قسَّمها الصراع الداخلي في القرن الثالث عشر بين الغيبيليني أنصار الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والغويلفي أنصار البابوية الرومانية. وانتصر الغويلفي (معركة كولي ١٧ يونيو ١٢٦٩)، ولكنهم سرعان ما انقسموا داخليا بين "بيض وسود".

لم يُعِق الصراع السياسي الداخلي تطور المدينة حتى أصبحت أحد أكثرها قوة و ازدهارا في أوروبا، ساعدها في ذلك عملتها الذهبية الخاصة الفلورين

(طُرحت عام ١٢٥٢)، وهزيمة خصيمتها بيزا (هزمتها جنوا في عام ١٢٨٤ واشترتها فلورنسا عام ١٤٠٦)، وقوتها التجارية الناتجة عن دستور مناهض للإرستقراطية (١٢٩٣).

حكمت فلورنسا كل توسكانا على مر القرون، باستثناء جمهورية لوكا التي ظلت دولة مستقلة وذات سيادة حتى القرن الثامن عشر (مع وصول نابليون إلى إيطاليا)، ودوقية ماسا وكرارا التي ظلت مستقلة حتى عام ١٨٢٩ بضمها إلى دوقية مودينا.



يُقدّرُ عدد سكان فلورنسا بنحو ثمانين ألفا قبل وباء الطاعون الأسود سنة ١٣٤٨ (مباشرة بعد البندقية و قبل ميلانو و بولونيا، كأكبر مدن إيطاليا سكانا) منهم خمسة وعشرون ألفا يعملون في صناعة الصوف . شهدت فلورنسا محاولة إضراب الشومبي) ciompi الأجراء خاصة في صناعة الصوف) في سنة ١٣٤٥، و هم الذين قاموا عام ١٣٧٨ بثورة خاطفة ضد سيطرة القلة الحاكمة للمدينة.

بعد قمعها، وسقطت المدينة تحت سيطرة آل ألبازي (١٣٨٢-١٤٣٤)، الذين حل محلهم أعداؤهم الألداء آل ميديشي.

انتهت الفترة الأولى من هيمنة آل ميديشي بعودة حكومة جمهورية، تأثرت بتعاليم الراهب الراديكالي الدومينيكي جيرولامو سافونارولا (الذي أُعدم عام ١٤٩٨، و قبل أن يموت ترك ميثاقا حول حكومة فلورنسا)، في كلماتها جدالات ستكون موضوع نزاعات دينية في القرون التالية.

شخصية أخرى ذات دهاء نادر هي نيكولو مكيافيلي، إشاراته إلى حكومة فلورنسا في معظمها غالبا ما تقرأ على أنها إضفاء شرعية على الاعوجاج وأيضا انتهاك السياسيين . أقصى الفلورنسيون آل ميديشي للمرة الثانية وأعادوا تأسيس جمهورية في ١٦ مايو ١٥٢٧.

وعادوا إلى مكانهم مرتين، بدعم من الإمبراطور والبابا، أصبح آل ميديشي دوقات بالوراثة على فلورنسا في عام ١٥٣٧، ثم غراندوقات توسكانا في عام ١٥٦٩ لمدة قرنين .

أدى انقراض سلالة ميديشي وصعود فرانسوا ستيفان دوق اللورين زوج ماريا تيريزا هابسبورغ عام ١٧٣٧ إلى إدخال توسكانا ضمن الأراضي التابعة للتاج النمساوي. وانتهت سيطرة النمساويين على يد فرنسا ثم مملكة سردينيا وبييمونتي في عام ١٨٥٩، و أصبحت توسكانا مقاطعة في مملكة إيطاليا الموحدة في عام ١٨٦١.

أخذت فلورنسا مؤقتا مكان تورينو كعاصمةٍ لإيطاليا في عام ١٨٦٥ بناءً على طلب نابليون الثالث على أساس اتفاقية سبتمبر، ولكن هذا الدور نُقل إلى روما بعد ست سنوات إثر انضمامها إلى المملكة. تضاعف سكان فلورنسا في القرن التاسع عشر، ثم زاد ثلاثة أمثاله في القرن العشرين مع نمو السياحة والتجارة والخدمات المالية والصناعة.

خلال الحرب العالمية الثانية احتل الألمان المدينة لمدة عام (١٩٤٣-١٩٤٤)، ثم

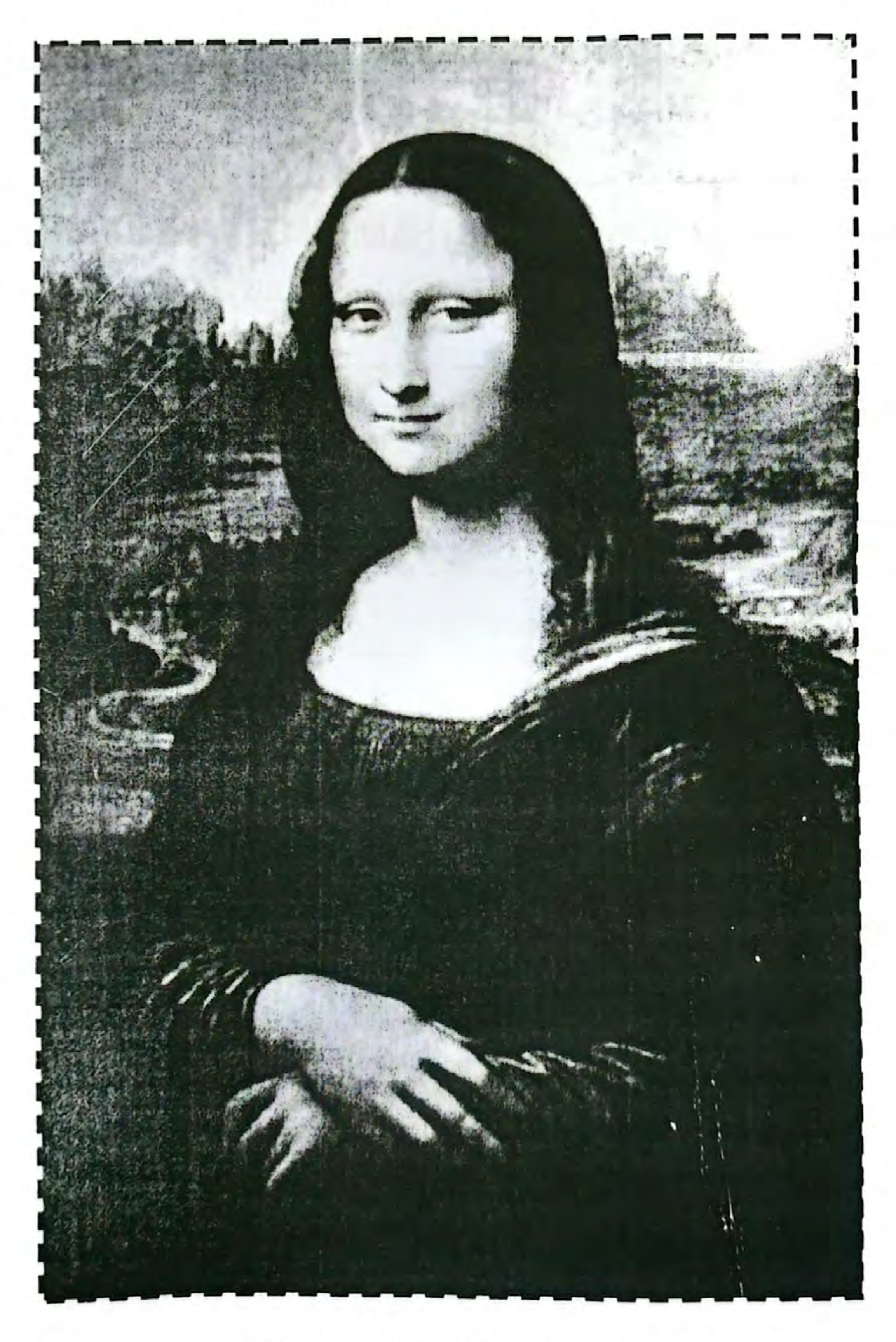
تحررت من قبل ألوية مقاومة الحزبية في الحادي عشر من أغسطس ١٩٤٤ . فلورنسا من بين المدن التي تقلدت نشان الشجاعة العسكرية بحرب التحرير، فقد تحصلت على ميدالية الشجاعة العسكرية الذهبية لتضحيات أهلها ولنشاطاتها في النضال الحربي خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن للمدينة أيضا ذكراها المحزنة بأعمال الفرانكي تيراتوري العنيدة، بقيادة ألساندرو بافوليني، لمواجهة التقدم الأنغلو - أميركي .

وفي الرابع من تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٩٦٦ غرق أغلب مركزها بفيضان نهر أرنو ملحقاً أضرارا بالعديد من الكنوز الفنية .

وترتبط مدينة فلورنسا بأعظم رسامي عصر النهضة ليوناردو دافنشي صاحب أشهر لوحة في التاريخ " الموناليزا " .

ويعد ليوناردو دافنشي واحداً من عبقريات عصر النهضة التي تميزت في الفنون كما تميزت في العلوم، وكانت آثاره التي خلفها في الفن إشارة إلى الاتجاهات الحديثة التي جاءت بعده كما كانت آثاره العلمية النبوءة التي حققتها عصور تلته.

فهو مصور ونحات ومعماري وموسيقي ومهندس وعالم إيطالي. ولد في العام ١٤٥٢ في بلدة تدعى (فنشي) في إيطاليا وكان ابناً غير شرعي لكاتب عدل وفتاة فلاحة. ثم انتقل مع عائلته في العام ١٤٦٩ إلى فلورنسا لتحصيل العلم والمعرفة فدرس الأدب والرياضيات والموسيقى والتصوير واللغة اللاتينية، وقد لاحظ أبوه سرعة تعلمه الفائقة فأدخله محترف الفنان (فيروكيو) . وهناك تعرف على الفنان ساندرو بوتشيللي وبيرو دجينو، واكتسب الأسس النظرية الكافية لبلورة اهتمامه في تآلف الفن والعلم وكيفية تهيئة العلم بالوسائل التقنية المتطورة، ومسألة اقتراب فن التصوير والرسم من الرياضيات وعلم المنظور، واقتراب النحت من خلال دراسة نظرية التناسب، وفن العمارة من خلال دراسة مفهوم الجاذبية وثقل الجسم وحجمه . وهكذا باتت المعرفة العلمية من مرتكزات الفن.



لوحة دافنشي الشهيرة " الموناليزا "

وأحس دافنشي بهذه الخاصية الدقيقة بكل قوة ووضوح، وليس مصادفة أيضاً أن يلتحم الفن والعلم في عبقريته كوجه لظاهرة متفردة .

كان من أعظم فناني النهضة الذين أعطوا المدرسة الواقعية أبعاداً جديدة، حيث كان له طريقة خاصة في التلوين وتوزيع الظل والنور في اللوحة فمعظم لوحاته كان لها خلفيات كالمناظر الطبيعية .

رسم لوحته الشهيرة "موناليزا " المسماة كذلك بالجوكندا سنة ١٥٠٣م الموجودة حالياً في متحف اللوفر في فرنسا وهي من أشهر اللوحات الفنية على مدار التاريخ . ونظرة السيدة المرسومة «موناليزا» ما تزال تحير الناس الى هذه اللحظة فهم يتساءلون : هل هي تبتسم، ام تسخر، أم ماذا ؟ إنها نظرة غامضة ورائعة في غموضها.

ولعل أبرز أعماله: لوحة (العشاء الأخير) ولوحة (القديسة آن) ولوحة (العذراء) ولوحة (البشارة) . توفي في العام ١٥١٩ .

■■■

٢٣
إنطاكية.. لويس التاسع والظاهر بيبرس

مدينة في شمال غربي سورية تقع على نهر العاصي . أسسها سلوقس الأول عام ٣٠٧ قبل الميلاد لتصبح عاصمة السلوقيين حتى الفتح الروماني لها عام ٦٤ قبل الميلاد . كانت مقرا هاما للحضارة الهلنسية (الرومانية-الاغريقية) ازدهرت فيها الآداب والفنون . فيها اتخذ النصارى لأول مرة اسم (المسيحيين) فأضحت كرسيا رسوليا على رأسه بطرس الرسول حتى انتقاله إلى روما. دمرها الفرس عام ٥٤٠م، ثم أجهزت عليها الزلازل في القرن السادس الميلادي. احتلها العرب عام ٦٣٦ ثم الصليبيون عام ١٠٩٨ م، ثم العثمانيون عام ١٥١٧ م .

إنطاكية واحدة من أشهر المدن الست عشرة التي أنشأها في مستهل القرن الثالث عشر قبل الميلاد سلوقس الأول نيكاتور، وهو أحد القادة الذين خلفوا الإسكندر المقدوني، تخليداً لذكرى والده أنطيوخس. تقع في شمال غربي سورية على نهر العاصي قرب مصبّه. اتخذت عاصمة للسلوقيين بعد الحرب السورية الثالثة (٢٤٦- ٢٤١ ق.م) حين احتل البطالمة العاصمة سلوقية، ونقل سلوقس الثاني مركز الحكم إلى أنطاكية. احتلها الرومان سنة ٦٤ ق.م وقد عرفت ازدهاراً سياسيا وتجاريا وعمرانيا كبيراً. حافظت على شهرتها في العهد المسيحي حتى غدت إحدى أبرز أسقفيات الشرق إلى جانب القسطنطينية والإسكندرية، ومدرسة لاهوتية هامة كان أشهر معلميها يوحنا فم الذهب. دمرها كسرى أنو شروان سنة ٥٢٨ م وهجر أهلها قبل أن تجهز الزلازل على

ما تبقى من مبانيها وسكانها.

احتلها العرب المسلمون بقيادة أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٦ هـ/ ٦٣٨ م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. انتزعها الإمبراطور نقفور فوكاس سنة ٩٦٦ م وظلت في يد البيزنطيين حتى استعادها السلجوقيون سنة ١٠٨٤ م. استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٨ م وظلت خاضعة لحكم الفرنجة حتى استردها الظاهر بيبرس سنة ١١٧١ م.

بقيت تحت حكم المماليك إلى أن سقطت بيد العثمانيين سنة ١٥١٧ م. غدت واحدة من مدن سورية بعد التحرر من الحكم العثماني وألحقت إدارياً بلواء إسكندرونة الذي اقتطعته تركيا من سورية سنة ١٩٣٩م. يقصدها السياح بكثرة لأهميتها التاريخية والدينية.



بعد مقتل السلطان قطز بطل معركة عين جالوت اتفق الأمراء المماليك على اختيار بيبرس سلطانًا على مصر، وجلس في إيوان القلعة في (١٩ من ذي القعدة ٦٥٨هـ = ٢٦ من أكتوبر ١٢٦٠م) إيذانًا ببدء فترة التأسيس والاستقرار لدولة المماليك البحرية بعد فترة التحول التي شهدتها بعد قضائها على الحكم الأيوبي في مصر، وكانت فترة قلقة مليئة بالفتن والقلاقل، وكان على بيبرس أن يبدأ عهدًا جديدًا من الثبات والاستقرار بعد أن أصبح بيده مقاليد الأمور في مصر والشام.



وما أن جلس بيبرس على سدة الحكم في مصر حتى قضى على الفتن والثورات التي اشتعلت ضده، وقام بتنظيم شؤون دولته، وسعى لإيجاد سند شرعي تُحكم دولة المماليك باسمه، فأحيا الخلافة العباسية في القاهرة، واستقدم أحد الناجين من أسرة العباسيين بعد مذبحة هولاكو في بغداد، ويدعى أبا العباس أحمد، وعقد مجلسًا في القلعة في (٨ من المحرم ٦٦١هـ حضره قاضي القضاة وكبار العلماء والأمراء، وقرأ نسب الخليفة على الحاضرين بعدما ثبت عند القاضي، ولُقِّب الخليفة بالحاكم بأمر الله، وقام بيبرس بمبايعته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، ولما تمت البيعة أقبل الخليفة على بيبرس وقلده أمور البلاد والعباد.

وسعى بيبرس إلى تقوية الجيش وإمداده بما يحتاج من السلاح والعتاد، وأولى عناية بالأسطول ودور صناعة السفن المصرية في الفسطاط والإسكندرية ودمياط. وعمل على تحصين مناطق الحدود، وتنظيم وسائل الاتصال ونقل المعلومات من خلال نظام البريد. ولما اطمأن إلى ذلك قام بمواجهة القوى المتربصة بالإسلام وفي مقدمتها الصليبيون.

لم يتجه "لويس التاسع" بعد إطلاق سراحه من مصر إلى فرنسا. وإنما اتجه إلى "عكا"، وكانت حملته الصليبية قد مُنيت بهزيمة مروعة في معركة المنصورة في (٣ من المحرم ٦٤٨هـ = إبريل ١٢٥٠م) فقد فيها زهرة جنده، وأصيب الصليبيون بكارثة كبرى ظل أثرها المروع مستعصيًا على العلاج والإصلاح.

وقضى لويس التاسع في الإمارات الصليبية بالشام أربع سنوات يحاول جاهدًا تصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين، والمحافظة على كياناتهم، وتنظيم الدفاع عن إماراتهم الصليبية، فعني بتحصين عكا وحيفا وقيسارية ويافا، وعمل على إعادة الصلح بين إمارة إنطاكية وأرمينية وسعى لإقامة حلف مع المغول، غير أن مسعاه لم يكلل بالنجاح، ثم غادر عكا عائدًا إلى بلاده في (٥ من ربيع الأول

٦٢٥هـ = ٢٥ من إبريل ١٢٥٤م).

ولم يكد لويس التاسع يرحل عن الشام حتى دبت المنازعات بينهم من جديد، وتصاعد الصراع بينهم إلى حد القتال، ولم يجدوا كبيرًا ينطوون تحت لوائه، فساءت أوضاعهم في الوقت الذي دولة المماليك بدأت في البروز بعد انتصارها العظيم في عين جالوت.

وكانت الفترة التي تلت رحيل لويس التاسع إلى أن تولى بيبرس سلطنة مصر والشام فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين لانشغال كل منهما بأموره الداخلية، على أن هذه السياسة المسالمة تحولت إلى ثورة وشدة من قبل المماليك بعد أن أخذ الصليبيون يتعاونون مع المغول ضد المماليك، ويعملون مرشدين لجيوشهم، ولم يقتصر الأمر على هذا بل استقبلت بعض الإمارات الصليبية قوات مغولية في حصونها.

وقد أصبح على المماليك أن يدفعوا هذا الخطر الداهم، وبدلاً من أن يواجهوا عدوًا واحدًا، تحتم عليهم أن يصطدموا مع المغول والصليبيين معًا، وكان بيبرس بشجاعته وسياسته قد ادخرته الأقدار لمثل هذه الفترات التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة، فكان على قدر المسؤولية، وحقق ما عجز عشرات القادة الأكفاء عن تحقيقه.

وبدأت عمليات بيبرس العسكرية ضد الصليبيين في سنة (٦٦٣هـ = ١٢٦٥م)، فتوجه في (٤ من ربيع الآخر ٦٦٣هـ) إلى الشام، فهاجم "قيسارية" وفتحها عنوة في (٨ من جمادى الأولى)، ثم عرج إلى أرسوف، ففتحها في شهر رجب من السنة نفسها.

وفي السنة التالية استكمل بيبرس ما بدأ، ففتح قلعة "صفد"، وكانت معقلاً من معاقل الصليبيين، وكان بيبرس يقود جيشه بنفسه، ويقوم ببعض الأعمال مع الجنود إثارة لحميتهم فيجر معهم الأخشاب مع البقر لبناء المجانيق اللازمة

للحصار. وأصاب سقوط صفد الصليبيين بخيبة أمل، وحطم معنوياتهم؛ فسارعت بعض الإمارات الصليبية إلى طلب الصلح وعقد الهدنة.

تطلع بيبرس إلى الاستيلاء على إنطاكية التي تحتل مكانة خاصة لدى الصليبيين لمناعة حصونها، وتحكمها في الطرق الواقعة في المناطق الشمالية للشام، وكانت ثاني إمارة بعد الرها يؤسسها الصليبيون في أثناء حملتهم الأولى على الشام، وظلوا يسيطرون عليها مائة وسبعين عامًا.

وكان بيبرس قد استعد لهذه الموقعة الحاسمة خير استعداد، ومهد لسقوط الإمارة الصليبية بحملاته السابقة حتى جعل من إنطاكية مدينة معزولة، مغلولة اليد، محرومة من كل مساعدة ممكنة، فخرج من مصر في (٣ من جمادى الآخرة ٦٦٦هـ = ١٩ من فبراير ١٢٦٨م)، ووصل إلى غزة، ومنها إلى "يافا" فاستسلمت له، ثم نجح في الاستيلاء على "شقيف أرنون" بعد حصار بدأه في (١٩ من رجب ٦٦٦هـ = ٥ من إبريل ١٢٦٨م)، وبفتح يافا وشقيف، لم يبق للصليبيين جنوبي عكا التي كانت بأيديهم سوى قلعة عتليت.

ثم رحل بيبرس إلى طرابلس، فوصلها في (١٥ من شعبان ٦٦٦هـ = ٣٠ من إبريل ١٢٦٨م) فأغار عليها وقتل كثيرًا من حاميتها، وقطع أشجارها وغور مياهها، ففزعت الإمارات الصليبية، وتوافد على بيبرس أمراء أنطرسوس وحصن الأكراد طلبًا للأمن والسلام، وبهذا مهد الطريق للتقدم نحو إنطاكية.

رحل بيبرس من طرابلس في (٢٤ من شعبان ٦٦٦هـ = ٩ من مايو ١٢٦٨م) دون أن يطلع أحدًا من قادته على وجهته، واتجه إلى حمص، ومنها إلى حماة، وهناك قسّم جيشه ثلاثة أقسام، حتى لا يتمكن الصليبيون من معرفة اتجاهه وهدفه، فاتجهت إحدى الفرق الثلاث إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين إنطاكية والبحر، وتوجهت الفرقة الثانية إلى الشمال لسد الممرات بين قلقلية والشام لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى.

أما القوة الرئيسية وكانت بقيادة بيبرس فاتجهت إلى إنطاكية مباشرة، وضرب حولها حصارًا محكمًا في (أول رمضان سنة ٦٦٦هـ = ١٥ من مايو ١٢٦٨م)، وحاول بيبرس أن يفتح المدينة سلمًا، لكن محاولاته تكسرت أمام رفض الصليبيين التسليم، فشن بيبرس هجومه الضاري على المدينة، وتمكن المسلمون من تسلق الأسوار في (الرابع من رمضان)، وتدفقت قوات بيبرس إلى المدينة دون مقاومة، وفرت حاميتها إلى القلعة، وطلبوا من السلطان الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وتسلم المسلمون القلعة في (٥ من رمضان ٦٦٦هـ = ١٨ من مايو ١٢٦٨م) وأسروا من فيها.

وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة، بلغ من كثرتها أن قسمت النقود بالطاسات، وبلغ من كثرة الأسرى "أنه لم يبق غلام إلا وله غلام، وبيع الصغير من الصليبيين باثني عشر درهمًا، والجارية بخمسة دراهم".

كان سقوط إنطاكية أعظم فتح حققه المسلمون على الصليبيين بعد استرداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، وفي الوقت نفسه كان كارثة كبرى ألمت بالصليبيين وزلزلت كيانهم، ومن طرائف الفتح أن بوهيمند السادس أمير إنطاكية لم يعلم ما حدث لها؛ إذ كان في إمارته الثانية طرابلس جنوبي إنطاكية، فتكفل بيبرس بإخباره بهذه الكارثة في رسالة ساخرة بعثها إليه من إنشاء الكاتب البليغ "ابن عبد الظاهر"، ومما جاء فيها:

«.. وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم تكن لك في هذه المدة بإنطاكية إقامة، فلو كنت بها كنت إما قتيلاً وإما أسيرًا، وإما جريحًا وإما كسيرًا ..».

وبينما كان بيبرس في إنطاكية وصل إليه رسل الملك هيثوم الأرميني يعرضون عليه اتفاقا بمقتضاه يعيدون ما أخذوه من المدن الإسلامية في أثناء الغزو المغولي للشام، مثل بهنسا، ومرزبان، ورعبان، كما ترك الداوية من الصليبيين

"حصن بغراس"، وبذلك عاد شمال الشام إلى حوزة المسلمين.

وبهذا النصر الذي فتح الباب لسقوط الإمارات الصليبية الباقية تبوأ بيبرس مكانته التاريخية، باعتباره واحدًا من أبطال الإسلام.

■ ■ ■

٢٤
غرناطة ..
وقصة بني الأحمر

في ٢ يناير ١٤٩٢ م سقطت مدينة "غرناطة" آخر مدن الأندلس المسلمة، ورفع العلم الصليبي على قصر الحمراء فيها! "غرناطة" كما يقول زوارها مدينة تنطق العربية والإسلامية في كل بقعة من بقاعها، تقع على هضاب حمراء راسخة في تضرعها إلى خالقها، ومعترفة بهذا التراث الإسلامي الذي شيدها وبناها.

وقصر الحمراء درة "غرناطة" وعنوانها وشعارها التاريخي الأول، يكاد يكون هو المعلم العربي الأبرز في الأندلس يطل على المدينة الحديثة من هضاب عالية تشكل جزءا منها، أو على الأصح هي في موقع القلب من المدينة ... والقصر ولا شك شاهد معجز على عظمة المسلمين ورقيهم الحضاري ونهضتهم العمرانية والهندسية والفنية وقتذاك.

ما كان أحد يظن أن شمس الإسلام التي أشرقت على أرض الأندلس ستغرب عنها يومًا، وأن كلمات الأذان الصادح من فوق قامات المآذن ستتحول إلى أصوات أجراس من فوق أعواد الكنائس، وما كان أحد يتصور أن ستغيب عن الأندلس حلقات العلم، ودروس الحديث والفقه في جوانب المساجد، وأن الأرض التي امتلأت جنباتها شعرًا ونثرًا عربيا ستصبح غريبة الوجه واللسان.. ولكن هذا ما كان.

لقد كان من شدة تعلق العرب بصفة خاصة والمسلمين على وجه العموم ببلاد الأندلس، أن أطلقوا على سقوطها ونهاية الحكم الإسلامي لها بـ " النكبة "، ولم يطلقوا هذه الكلمة في تاريخهم مرة أخرى إلا عندما سقطت فلسطين في أيدي

عصابات الصهاينة !!

وقد بدأت النكبة عندما دب الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرى الوهن في أطرافها، وراح العدو يتربص بها، وينتظر تلك اللحظة التي ينقضّ فيها على الجسد الواهن، فيمزقه ويقضي عليه، لم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولاية الأندلس الشرقية والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة وبلنسية، وإشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علما وثقافة وحضارة.

ولم يبق من دولة الإسلام هناك سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عُرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان: "فرديناند الخامس" و"إيزابيلا"، وحاصرا بقواتهما غرناطة في ١٢ من جمادى الآخرة ٨٩٦هـ= ٣٠ من إبريل ١٤٩١م حصارا شديدا، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا أي اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى؛ حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس.

لم تكن غرناطة تملك سلاحا أقوى من الشجاعة، ولا أمضى من الصبر في المواجهة والثبات عند اللقاء، فصمدت إلى حين، وظلت المدينة تعاني الحصار زهاء سبعة أشهر، وتغالب نكباته في صبر ويقين، وتواجه الجوع والبلاء بعزيمة لا تلين، وحاول الفرسان المسلمون أن يدفعوا هجمة النصارى الشرسة بكل ما يملكون خارج أسوار المدينة، لكن ذلك لم يغن من الأمر شيئا، فالأحوال تزداد سوءا، والمسلمون تتفاقم محنتهم، وانقطع الأمل في نجدتهم من بلاد المغرب.



في ظل هذه المحنة القاسية تداعت أصوات بعض القادة إلى ضرورة التسليم؛ حفاظا على الأرواح، وكان "أبو عبد الله محمد" سلطان غرناطة وبعض وزرائه يتزعمون هذه الدعوى، وضاع في زحام تلك الدعوة المتخاذلة كل صوت يستصرخ البطولة والفداء في النفوس، ويعظّم قيمة التضحية والكرامة في القلوب، فاتفق القائمون على غرناطة على اختيار الوزير "أبي القاسم عبد الملك" للقيام بمهمة التفاوض مع الملكين الكاثوليكيين.

وليس ثمة شك في أن هذين الملكين كانا وراء سريان روح التخاذل وإشاعة اليأس في غرناطة، وتهيئة الأوضاع لقبول التسليم، واستخدما في ذلك كل وسائل الإغراء مع السلطان أبي عبد الله وبعض خاصته.

استمرت المفاوضات بضعة أسابيع، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم، وافق عليها الملكان في ٢١ من المحرم ٨٩٧هـ= ٢٥ من نوفمبر ١٤٩١م، وكانت المفاوضات تجري في سرية خشية ثورة أهالي غرناطة، وحتى تحقق غايتها المرجوة.

ويتعجب المرء حين يعلم أن أبا القاسم بن عبد الملك ومساعده في المفاوضات الوزير "يوسف بن كماشة" كان سلوكهما مريبا، يقدمان المنفعة الشخصية على الصالح العام، فقد كتبا إلى الملكين الكاثوليكيين خطابا يؤكدان فيه إخلاصهما وولاءهما واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات التسليم، عُقدت معاهدة سرية أخرى، مُنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحًا خاصة بين ضياع وأموال نقدية.

وما كادت تذاع أنباء الموافقة على تسليم غرناطة حتى عمّ الحزن ربوعها، واكتست الكآبة نفوس الناس، واشتعل الناس غضبا حين تسربت أنباء المعاهدة السرية، وما حققه السلطان وخاصته من مغانم ومكاسب رخيصة، فسرت بين الناس الدعوة إلى الدفاع عن المدينة، وخشي السلطان من تفاقم الأحوال وإفلات الأمر من بين يديه، فاتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة قبل الموعد المحدد في ٢ من ربيع الأول ٨٩٧هـ= ٢ من يناير ١٤٩٢م.

وفي هذا اليوم الحزين استعد الجيش القشتالي لدخول المدينة، وأطلقت المدافع في قصر الحمراء طلقاتها إيذانا بالاستعداد للتسليم، ودخلت القوات المسيحية، واتجهت توا إلى قصر الحمراء، وما إن دخلت القوات حتى رفعت فوق برج القصر الأعلى صليبا فضيا كبيرًا، وهو الذي كان يحمله الملك "فرديناند" خلال المعارك مع غرناطة.. وأعلن المنادي بصوت قوي من فوق البرج أنّ غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين.

وباستيلاء القشتاليين على غرناطة طُويت آخر صفحة من تاريخ دولة المسلمين في الأندلس، وقُضي على الحضارة الأندلسية الباهرة وآدابها وعلومها وفنونها.

قامت مملكة غرناطة في الفترة التي ظهرت فيها بالحفاظ على تراث الأندلس، وبإيواء الوافدين إليها من المدن الأخرى، وكان من بينهم العلماء والكتاب والشعراء، وبإثراء الحياة الفكرية بالمؤلفات الجيدة في مختلف العلوم والفنون.

ويأتي في مقدمة من أنجبتهم غرناطة: أبو عبد الله محمد بن جُزى الكاتب الشاعر، المتوفى سنة ٧٥٧هـ= ١٣٥٦م، وابن خاتمة الشاعر المعروف المتوفى ٧٧٠هـ=١٣٦٩م، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ= ١٣٧٥م وهو يعد من كبار الأعلام في الثقافة العربية، فهو أديب وطبيب وفيلسوف وشاعر ومؤرخ، من أشهر إنتاجه: الإحاطة في أخبار غرناطة، وكتاب الإشارة إلى أدب الوزارة، واللمحة البدرية في الدولة النصرية.

وأيضا: الوزير ابن زمرك المتوفى سنة ٧٩٧هـ=١٣٩٥م، تلميذ ابن الخطيب، وكان شاعرا جيدا، وابن الأزرق المتوفى سنة ٨٩٥هـ=١٤٩٠م وكان بارعا في النثر والنظم والتاريخ، وله كتاب قيم في الفكر السياسي بعنوان: بدائع الأندلس في طبائع الملك، والشريف العقيلي وزير السلطان أبي عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس، وكان إمام عصره في النثر والنظم، ووُصف بأنه خاتمة أدباء الأندلس.

وكثر في غرناطة إنشاء المدارس ومعاهد العلم، وارتقت الصناعات والفنون، فازدهرت صناعة السفن والأنسجة والورق، والفخار والذهب، وصناعة الحلي، وتطورت صناعة الأسلحة، فظهرت المدافع والبنادق، ويحتفظ متحف مدريد الوطني بنماذج من البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة.

كانت مدينة غرناطة في هذا العصر أجمل مدن العالم بشوارعها النظيفة وميادينها الرائعة وحدائقها الغنّاء، ومبانيها ومرافقها الجميلة، ولا تزال آثارها الباقية تشهد على ما بلغته المدينة من رقي ومدنية.

وقد اشتهرت مساجد غرناطة باستخدام الرخام، وتجميل صحونها بحدائق الفاكهة، وإقامة المآذن منفصلة عن المساجد، وتوجد الآن مئذنتان يرجع إنشاؤهما إلى هذه الفترة الأولى: مئذنة مسجد تحوّل إلى كنيسة، وهي المعروفة باسم كنيسة "سان خوان دي لوس ريس"، والأخرى ببلدة "رندة" التي تحول مسجدها إلى كنيسة باسم "سان سباستيان".

ويعد قصر الحمراء من أعظم الآثار الأندلسية الباقية، بما حواه من بدائع الصنع،

والمهارة الفنية الراقية، بالإضافة إلى قصر جنة العريف، وهو يقع بالقرب من قصر الحمراء ويطلّ عليه، وكان يتخذه ملوك غرناطة متنزها للراحة والاستجمام.

ولعل مرثية الشاعر الكبير أبي البقاء الرندي، وأبياتها الخالدة في رثاء الأندلس هى أحد أعظم ما كتب من رثاء في شعرنا العربي، وخير تعبير عن نكبة العرب في أحد أكثر الأماكن التي تبوأت مكانة ما بعدها مكانة في قلوبهم، وعند ضياعها تركت في أنفسهم حسرة لا تزال مرارتها ماثلة حتى يومنا هذا.. وفيما يلي رائعة أبي البقاء الرندي " رثاء الأندلس " :

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصانُ

فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد

ولا يدوم على حال لها شان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن

وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم

وأين ما ساسه في الفرس ساسان

أتى على الكل أمر لا مرد له

حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومن مَلك

كما حكى عن خيال الطيف وسنان

كـــأنما الصـــعب لم يســـهل له
سبب يومـاً ولا مَلك الدنيـا سليـمـان
فـــجـــائعُ الدنيـــا أنواع منوعـــة
وللزمـــان مـــســـرات وأحـــزان
وللحـــوادث سلوان يســـــهلها
ومـــا لم حل بالإســـلام سلوان
دهى الجـــزيرة أمـــر لا عـــزاء له
هوى له أُحـــد وانهـــد ثهـــلان
أصـــابهـــا العين في الإســـلام فـــارتزأت
حـــتى خلت منه أقطار و بلدان
فـــاسأل بلنســـيـة ما شـــأن مرســـيـة
وأين شـــاطبـــة أم أين جـــيـــان
وأين قـــرطبـــة دار العلوم فكم
من عـــالم قد سما فيها له شان
وأين حـــمص ومـــا تحـــويه من نزه
ونهرها العـــذب فـــيـــاض وملآن
قـــواعـــد كن أركـــان البـــلاد فمـــا
عـــسى البـــقـــاء إذ لم تبق أركـــان
تبكي الحنيـــفـــيـــة البـــيـــضـــاء من أسف
كـمـا بكى لفـراق الإلف هيـمـان

على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس
ما فيها إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر تبكي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سِنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه
أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنْست ما تقدمها
وما لها من طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس
فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
لماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان
يا مَن لذلة قوم بعد عزتهم
أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم
واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم في ثياب الذل ألوان
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت و مرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يبكي القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان

■■■

٣٥

صبراتة.. تاريخ وأحداث وحضارة

صبراتة مدينة فينيقية تقع على بعد حوالي ٦٠ كم غرب طرابلس الغرب، وتم تأسيسها في الالف الاولى ق.م. واشتهرت في العصر الروماني. وأهم آثارها المسرح، الضريح البونيقي، الفورم، البازيلكا، الكوريا (مبنى البلدية) كنيسة جستنيان بعض المعابد والكنائس .

وإذا ما غادرت طرابلس وسلكت الطريق الساحلي واتجهت غرباً فستبلغ بعد ساعة تقريباً المدينة الأثرية صبراتة.

ولعل أول ما يلفت نظرالزائر أطلال مسرحها الروماني في الجانب الشرقي فيها، كذلك الضريح البونيقي الذي يبرز من خلال قطاعات التنقيب في الحي السكني الممتد جنوب السور البيزنطي.

يعود إنشاء مدينة صبراتة إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد، في الفترة التي تلت إقامة المستوطنات الفينيقية الأولى في الشمال الإفريقي والتي على رأسها مدينتا قرطاجنة وعتيقة "أوتيكا" في القطر التونسي الشقيق. وصبراتة واحدة من المدن الثلاث التي نسبت إليها قديماً أراضي الجزء الغربي الشمالي من ليبيا، والذي أطلق عليه قدماء اليونان اسم تريبوليس أى إقليم " المدن الثلاث" كما أطلقوا عليه اسم "ايمبوريا" أى المراكز التجارية حيث كانت تقوم هذه المدن الثلاث المشار إليها والتي بقيت من أنشط الأسواق والموانئ التجاريةالليبية الفينيقية " البونيفية" وذلك إلى انهيار الحكم القرطاجي وقيام الدولة النوميدية وتمكن الرومان من بسط نفوذها الذى واجه مقاومة عنيفة من الليبيين

النوميديين أسوة باستبسال البونيقيين.

وعلى إثر الحرب الأهلية الرومانية التي امتدت آثارها إلى الشمال الإفريقي وانتصار يوليوس قيصر على خصمه بومبي في موقعة "تايسوس" أسست الولاية الإفريقية التي ضمت إليها أراضي "لامبوريا" وذلك سنة ٤٦ق.م.؟

ترجع أطلال المدينة الحالية في معظمها إلى القرنين الأول والثاني من تأسيس الامبراطورية الرومانية، حيث تم تجديد بناء المعابد البونيقية السابقة والمحيطة بساحة السوق - (الفورم) والإيوان القضائي "البازيليكا" والمجلس البلدي (الكوريا) في القرن الرابع الميلادي. وإلى ذات الفترة السابقة يعود أيضاً حي المساكن على الطريق الرئيسية المؤدية إلى المتحف وكذلك الطريق الرئيسية الثانية والقاطعة للأولى عند الزاوية القائمة على امتداد سور المدينة البيزنطي. وفي فترة لاحقة أقيمت مساكن الحي الممتد بين المسرح والطريق الرئيسية الممتدة من الغرب إلى الشرق.

ويلاحظ النسق التربيعي في تقسيم الشوارع وتقطيعها وهذا يتفق بل وينطبق على النظام التخطيطي الهيبودامي، الأمر الذي نتج عنه تطابق في تخطيط ورسم المباني والشوارع مع محور تصميم المسرح والمساكن. وتحديداً تلك التي يعود إنشاؤها إلى القرن الثاني الميلادي- أي خلال فترة حكم الإمبراطورين انطونيوس بيوس وماركوس اوريليوس (١٣٨-١٨٠م) ومن المرجح أن يكون وضع صبراتة في هذه الفترة المزدهرة من حكم الإمبراطور انطونيوس بيوس قد آل إلى أنها أضحت مستوطنة رومانية وذلك بسريان نظام الحقوق المدنية الرومانية على سكانها، ويعتقد أن الأسباب التي تكمن وراء ازدهار المدينة تعود إلى النشاط التجاري فيها وليس الأعمال الزراعية.فأرض الضواحي المحيطة بها تعد أقل خصوبة من أراضي المقاطعة لبدة. يؤكد ذلك مقر وكلاء تجار صبراتة، الذي تم العثور عليه في مرفأ (أوستيا) القديم على الساحل القريب من مدينة روما، حيث تزدان قائمة المقر المذكور بفسيفساء.. صور الفيل.. وقد استنتج من هذا أن تجارة صبراتة الرئيسة كانت تقوم على تصدير العاج والمنتوجات ذات السمعة

الإفريقية الأخرى وذلك عن طريق فزان وغدامس .

وظل البلد مزدهراً طوال القرن الثالث الميلادي إلى عهد الأباطرة السويريين. في أواسط القرن الرابع الميلادي وقع زلزال، ناهيك عن غزوات السلب والنهب والتخريب التي قامت بها بعض قبائل الاوستوريين.

وتسترد المدينة مكانتها السابقة في فترات لاحقة وذلك حتى مجيء قبائل الوندال التي اجتاحت الشمال الإفريقي واستهدفت صبراتة تخريباً واحتلالاً سنة (٤٥٥م) شأنها شأن بقية المدن الإفريقية في تلك الحقبة. وظلت المدينة مهملة إلى أن احتلها الجيش البيزنطي ثانية سنة (٥٣٣م) . وفي عهد الإمبراطور جستينان الذي استمر في الحكم إلى سنة ٥٦٥م، أعيد تحصين القسم الأقدم من المدينة المجاور للميناء وذلك بإنشاء وإقامة سور بأبراج، كذلك شيدت فيها كنيسة غطيت أرضية بهوها بالفسيفساء (نقلت الأرضية الفسيفسائية إلى طرابلس عام ١٩٣١م وهي محفوظة الآن بقائمة خاصة بالمتحف الجماهيري). وتم في هذه الفترة أيضاً بناء مساكن جديدة وعبدت الطرق التي تتخللها على أنقاض المباني السالف ذكرها بمستوى يعلو ٣-٤ أقدام فوق المستوى القديم كما يلاحظ من قطاع التنقيب الواقع داخل الباب البيزنطي في الجهة اليمنى منه مباشرة.

في عام ١٩٢٣م. شرع بأعمال التنقيب والحفر في مدينة صبراتة ولأول مرة. ولقد استمرت هذه الأشغال حتى عام ١٩٣٦م، حيث تم خلال هذه المدة الكشف عن نصف مساحة المدينة القديمة تقريباً بما في ذلك المباني العامة وعدد من المساكن والشوارع.

ومن بين المنشآت الهامة التي تم العثور عليها في تلك الآونة مسرح صبراتة.

وفي الخمسينيات استؤنفت أعمال الحفر والتنقيب واتسع نطاقها فشمل القسم الغربي من المدينة والكائن جنوب السور البيزنطي، حيث اكتشف حي سكني يرجع للفترة الاولى من تأسيس الإمبراطورية الرومانية. ويتميز هذا الأثر المعماري البونيقي بطابعه الليبي الواضح.

٢٦

إستانبول ..
قصص وأساطير

مدينة إستانبول إحدى المدن العالمية الجميلة، بموقعها الفريد على بحر مرمرة، ومضيق البسفور الذي يطل على قارتي آسيا وأوربا، ويربط بين البحرين الأسود والمتوسط. وكأية مدينة قديمة تُحاك الأساطير حولها، حيكت حول مدينة استانبول العديد من الأساطير حول تأسيسها أو اكتشافها، قبل بداية التاريخ.

وتاريخ مدينة إستانبول (التي تقوم اليوم على موقع مدينة بيزنطة القديمة) يبدأ مع تأسيس الإمبراطوريات الكبيرة في آسيا وأوربا، ويعتبر عام ٦٦٠ قبل الميلاد عام تأسيس الدولة البيزنطية، هو عام تأسيس الأساطير السريَّة حول تلك المدينة، ففي هذه الآونة ذهب الماغاريون المقيمون بإحدى ضواحي مدينة أثنيا، إلى عرَّاف مدينة دُلفي، وطلبوا منه أن يساعدهم في إيجاد مكان لأنفسهم تكون أرضه خصبةً، وماؤه غزيرًا، وهواؤه عذبًا، فأجابهم العرَّاف بأن يذهبوا إلى المكان الواقع أمام مدينة العمياء، فهناك سيجدون أجمل وأروع الأماكن التي فيها الراحة غير الموجودة على سطح الأرض، وهناك سيصبح أطفالهم نشيطين، وسينعم الجميع بالصحة الجيدة.

وبالفعل غادر الماغاريون مدينة أثينا، وخرجوا متجهين إلى المكان الذي أشار إليه العرَّاف. وبعد سفر طويل قضوا ليلتهم في مكان يسمى قاضي كول (وهو موجود حاليا في مدينة استانبول) وهو المكان المطل على سراي بورنو القريب من طوب كابي (إحدى القلاع الحصينة المطلة على البسفور).

وعند بزوغ الفجر لاحظ القوم مياه البوسفور ومرمرة المرتعشة والألوان الطبيعية الخلابة، فصرخوا قائلين: ها هو المكان الذي أشار له العرَّاف، ولاشك أننا قضينا ليلة عمياء في هذا المكان، فلم نر هذا الجمال إلا صباحا (أو أن الناس المقيمين في هذا المكان عمى، لأنهم لم يروا هذا الجمال أو يقدروه)، ومن ثم تقدموا وسكنوا سراي بورنو، وجعلوا فيزاس حاكما عليهم، فتأسست بذلك إمبراطورية البيزنطيين.

أسطورة أخرى حول تأسيس مدينة إستانبول - أو القسطنطينية - يعود تاريخها إلى عهد النبي سليمان الذي كان يحكم مخلوقات الدنيا، غير أن هناك شخصا يدعي سلطان سيدون يحكم جزيرة تسمى فراندوس، كان خارجا عليه، ولم يخضع له. وعندما ذهب إليه جنود سليمان طالبين منه الخضوع للملك النبي، أجابهم باستهزاء: ومن هو سليمان، وما يكون؟، إذا كان عنده جنود، فأنا بحوزتي جنود، فإذا أراد المجيء فليحسب ما سوف يراه ويجده.

ضحك سليمان لهذا العناد وأعطى أوامره لجنوده قائلا: اتحدوا أيها العفاريت والجان والذئاب والطيور المفترسة الموجودة على سطح الأرض، وسيروا فوق سيدون ولا تتركوا حجرة فوق الأخرى (أو حجرا فوق الآخر) على الجزيرة.

وعلى إثر ذلك هجم جيش سليمان على جزيرة فراندوس ونفذوا الأمر. فلم يبق مخلوق نجا من هذا الهجوم سوى السلطان سيدون، الذي أُسرت ابنته آلينا، وكانت آية في الجمال، وأُحضرت إلى النبي سليمان الذي لم ير جمالا من قبل في جمالها الرائع المسحور.

قال لها سيلمان: يا أجمل الجميلات، لقد لقى والدك عقابه نتيجة جهله، وأنا وقعت في حبك، فالذنب ليس ذنبي، أومرى فلن أبخل عليك مهما كان طلبك.

قالت آلينا والدموع تذرف من عينيها: لم يعد في الدنيا أي أحد لي، ومن المستحيل أن يسليني أي شيء مهما كان.

قال سليمان: من الآن أنا تحت أمرك وخدمتك، اطلبي فأي أمنية تتمنيها

سوف ألبيها لك.

ردت عليه قائلة: قلبي مجروح، فانشئ لي سراي في أجمل مكان في الدنيا، واحبسني فيها، عندها لا يسليني سوى الجمال الذي حولي.

فأمر سليمان مخلوقات الأرض قائلا: ابحثوا لي عن أجمل مكان على وجه الأرض، واعلموني به قبل أن يفوتنا الوقت.

وعلى الفور استعد واستنفر كل العفاريت والجان وجاءوا إلى سليمان قائلين: إن أجمل مكان في الدنيا هو المرتفع الذي يشرف على بحر البوسفور مع بحر مرمرة.

وكان هو المكان المطلوب والمعروف حاليا ب "سراي بورنو".

وعلى الفور أنشأ سليمان السراي قائلا: سيبقى المكان وإلى الأبد أجمل مكان في الدنيا.

أما ياقوت الحموي (١١٧٨ ـ ١٢٢٨م) فيذكر القسطنطينية في معجم البلدان (وتسقط ياء النسبة أحيانا فيقال: قسطنطينة) التي قال عنها ابن خرداذبة (٨٢٠ ـ ٩١٣م): كانت رومية دار ملك الروم، وكان بها منهم تسعة عشر ملكا، ونزل بعمورية منهم ملكان، وعمورية دون الخليج، وبينها وبين القسطنطينية ستون ميلا، وملك بعدهما ملكان آخران برومية، ثم ملك أيضا برومية قسطنطين الأكبر، ثم انتقل إلى بزنطية، وبنى عليها سورا، وسماها قسطنطينية، وهي دار ملكهم إلى اليوم، واسمها اصطنبول، وهي دار ملك الروم. بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح (يقصد البحر المتوسط). عمَّرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه، والحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة، ولها خليج من البحر يطيف بها من وجهين مما يلي الشرق والشمال، وجانباها الغربي والجنوبي في البر، وسمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعا، وسمك الفصيل مما يلي البحر خمسة، بينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعا.

وذكر كذلك أن لها أبوابا كثيرة، نحو مائة باب، منها: باب الذهب، وهو حديد مموه بالذهب. وهي اليوم بيد الإفرنج غلب عليها الروم وملكوها.

وقال بطليموس (المتوفي بعد ١٦١ م)عنها في كتاب "الملحمة": مدينة قسطنطينية طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاث وأربعون درجة، وهي في الإقليم السادس، طالعها السرطان، ولها شركة في النسر الواقع ثلاث درج في منبر الكفة، والردف أيضا سبع درج، ولها في رأس الغول عرضه كله، وهي مدينة الحكمة لها تسع عشرة درجة من الحمل، بيت عاقبتها تسع درج من الميزان. وقال: وليست هذه المدينة كسائر المدن، لأن لها شركة في كواكب الشمال، ومن هاهنا صارت دار ملك، وقيل: طولها تسع وخمسون درجة ونصف وثلث، وعرضها خمس وأربعون درجة.

وقال عنها الرحالة العربي علي بن أبي بكر الهروي (المتوفي عام ١٢١٤م):

ومن المنائر العجيبة منارة قسطنطينية لأنها منارة موثقة بالرصاص والحديد والبُصرُم، وهي في الميدان إذا هبَّت عليها الرياح أمالتها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا من أصل كرسيّها، ويُدخل الناس الخزف والجوز في خلل بنائها فتطحنه. وفي هذا الموضع منارة من النحاس، وقد قُلبت قطعة واحدة إلا أنها لا يُدخل إليها، ومنارة قريبة من البيمارستان قد أُلبسَتْ بالنحاس بأسرها وعليها قبر قسطنطين، وعلى قبره صورة فرس من نحاس، وعلى الفرس صورته وهو راكب على الفرس، وقوائم الفرس محكمة بالرصاص على الصخر، ما عدا يده اليمنى، فإنها سائبة في الهواء، كأنه رفعها ليشير. وقسطنطين على ظهر الفرس، ويده اليمنى مرتفعة في الجو، وقد فتح كفه وهو يشير إلى بلاد الإسلام، ويده اليسرى فيها كُرَةٌ، وهذه المنارة تظهر عن مسيرة بعض يوم للراكب في البحر.

وقد اختلفت أقاويل الناس في هذه الكُرَة، فمنهم من يقول إن في يده طلسما يمنع العدو من قصد البلد، ومنهم من يقول بل على الكرة مكتوب: ملكتُ الدنيا حتى بقيتْ بيدي مثل هذه الكرة، ثم خرجتُ منها هكذا لا أملك شيئا.

ويذكر التاريخ أن القسطنطينية كانت أكبر مدينة بأوربا في العصور الوسطى. ولم ينجح ممن حاولوا حصارها إلا ثلاثة: جيش الحملة الصليبية الرابعة

(١٢٠٤) وميخائيل الثامن (١٢٦١) والسلطان محمد الثاني ـ الفاتح (١٤٥٣). وقد كانت بها ثروة لا يكاد يتصورها العقل من الكنوز الفنية والأدبية، قبل أن تخرَّب في ١٢٠٤ و,١٤٥٣ وحين سقطت في يد الأتراك كانت مدينة مهجورة تقريبا، ولكنها سرعان ما ازدهرت في ظل السلاطين، وأصبحت مركزا سياسيا وتجاريا عظيما في أوربا.

أما علم الجغرافيا فيقول: إن المدينة أقيمت على سبعة تلال على البوسفور، وأقيم حولها ثلاثة خطوط من الحصون.

وتقول الموسوعة العربية الميسرة عن استانبول: ولاية تقع شمال غرب تركيا، على ضفتي البسفور والبحر الأسود وبحر مرمرة، عاصمتها استانبول. تطل المدينة القديمة على القرن الذهبي. وكان الأباطرة البيزنطيون قد عملوا على توسيع رقعتها، وشيدوا حولها الأسوار المنيعة التي صمدت لهجمات غزاة كثيرين، منها ألكسيوس كومنينوس (١٠٨١) والصليبيون (١٢٠٤). فتحها الأتراك العثمانيون بقيادة محمد الفاتح (١٤٥٣) وظلت عاصمة الإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٩٢٢ حينما نقلت الحكومة الكمالية الجمهورية (نسبة إلى كمال أتاتورك) العاصمة إلى أنقرة عام ١٩٢٣، احتلتها قوات الحلفاء (١٩١٨ ـ ١٩٢٣). وفيها خُلع آخر سلاطين العثمانيين (١٩٢٢). بها جامعتان ترجع إحداهما إلى عام ١٤٥٣ وأعيد تنظيمها عام ١٩٣٣، وهي مقر بطاركة الروم والأرثوذكس واللاتين والكاثوليك الرومان والأرمن.

وتقوم إستانبول وضواحيها على سبعة تلال متناثرة. وغلطة هو حي المدينة التجاري. ومن أحيائها بيره وهازكوي. ويربط جسر غلطة الواصل عبر القرن الذهبي قسمي المدينة.

وكان الحي اليوناني (الأوربي) يشغل القطاع الشمالي الغربي للمدينة. أما الجزء الآسيوي من استانبول فيشمل حي قاضي كوي (أو قاضي كول) واسكودار (سكوتاري).

وأهم آثار العصر البيزنطي هاجيا صوفيا (آيا صوفيا) وهو اليوم متحف هام، وخزان للمياه، وقناطر شامخة.

وتزخر استانبول بالعمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وأضرحة ووكالات وأسبلة. ومن أهمها المسجد السليماني (١٥٥٠ ـ ١٥٥٧) وهو أجمل وأفخم مساجد استانبول، وقد شيد في عهد السلطان سليمان القانوني. ومسجد السلطان سليم ويعتبر منبره ومحرابه آيتين في فن النحت الإسلامي. ومسجد السلطان أحمد، وهو أعجوبة في فن العمارة العثمانية، وهو المسجد الفريد في تركيا الذي له ست مآذن، وفناؤه مغطى بالرخام، ويعرف أيضا بالمسجد الأزرق لأن جدرانه مغطاة بالقاشاني الأزرق والأخضر. ومسجد أبي أيوب الذي يتقاطر عليه الزوَّار من أنحاء العالم الإسلامي تبركا بضريح الصحابي الجليل ابي ايوب الأنصاري، الذي كان في حملة الخليفة يزيد بن معاوية (٦٧٠ م) واستشهد في أثناء القتال. والمسجد الجديد (يني جامع) الذي يرجع بناؤه إلى عام ١٥٩٧، ومسجد با يزيد الذي شيده المهندس التركي خير الدين (١٥٠١ ـ ١٥٠٥).

ومن مشاهد استانبول قصر توب كابي (الذي شيده السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧٨ على مساحة ٧٠ ألف متر مربع، ويحتوي على ٤٠٠ غرفة، وحديقة ضخمة لأشجار التين والجوز) والذي يضم مخلفات آل عثمان، وشتى كنوز الفن الإسلامي.

وباستانبول عدة متاحف للآثار القديمة. وهي تفخر بضواحيها الرائعة الجمال. وقد أُعيد تخطيط القسم القديم من المدينة، وشقت فيه الطرق الفسيحة والميادين الكثيرة.

أما بنت بطوطة (أميرة خواسك) فتقول عن استانبول في كتابها رحلات بنت بطوطة": القسطنطينية.. الأستانة.. إسلام بول (مركز الإسلام) أو استنبول.. أسماء لمدينة واحدة ترك عليها التاريخ بصمات بارزة في كل حقبة من حقبه، لتصبح متحفا ناطقا بكل ما شهدته هذه المدينة الجميلة من أمجاد وبطولات، وأيضا هزائم وانكسارات.

ومن أهم متاحفها، متحف أمانات الرسول الموجود في قصر طوب كابي (أو توب كابي)، حيث يقال إنه يضم أمانات الرسول، ومنها: بردة الرسول ﷺ، وعصاه، ومكان لقدمه (الشريفة) بارز على الرخام، وسيوف الخلفاء الراشدين، ومفاتيح الكعبة، وسيف خالد بن الوليد وعمار بن ياسر، وعصا موسى، وسيف داود، وعمامة يوسف والله أعلى وأعلم

■ ■ ■

مصادر ومراجع

- كتاب "سميراميس: ملكة آشور وبابل" - جيوفاني بيتيناتو- ترجمة عيد مرعي- دار روافد للثقافة والفنون.

- كتاب بابل - د. منير يوسف طه.

- موسوعة حضارة العالم لأحمد محمد عوف.

- تدمر مدينة العجائب والغرائب والتاريخ الحافل بالبطولات - عبد الجليل سلاح - ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٨.

- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

- إرم ذات العماد - فاضل الربيعي - دار رياض الريس -٢٠٠٠

- كتاب مع الأنبياء - عفيف طبارة

- كتاب من آيات الإعجاز في القرآن الكريم - د. زغلول النجار

- " فريق لوس انجلوس يكشف غبار المدينة الأسطورية المفقودة" - توماس موج- صحيفة لوس انجلوس تايمز- ٥ فبراير ١٩٩٢

- رحلة فيلبي إلى أرض مدين- د. إبراهيم بن عبد الله السماري- الشرق

الأوسط - ١٤ ديسمبر ٢٠٠٣

- " أور " المدينة التي ولد بها إبراهيم الخليل - نعيم عبد مهلهل - الحوار المتمدن - ٢٥ مارس ٢٠٠٥

- أطلس تاريخ العالم- هيرمن كندر - فيرنر هيلغيمن

أكروبوليس: هضبة اليونان المقدسة - محمد عبد الخالق - الحوار المتمدن - ٢٧ أغسطس ٢٠٠٨

- "حوار في الايزوتيريك (مع المعلمين الحكماء)" - ج ب م - منشورات أصدقاء المعرفة البيضاء-بيروت- ١٩٩١ .

- لغزها يزداد غموضاً يوماً بعد يوم: جماجم الكريستال من هتلر إلى الفاتيكان - جريدة النهار - ١٨ أكتوبر ٢٠٠٢

- فلورنسا ..أثينا القرون الوسطى- كمال قدورة

- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون- حسين محمد عطية - دار المعرفة الجامعية-- ١٩٨٩ .

- الحركة الصليبية- سعيد عبد الفتاح عاشور- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٨٦ .

- قيام دولة المماليك الأولى- أحمد مختار العبادي- دار النهضة العربية- بيروت- ١٩٦٩ .

- عصر سلاطين المماليك- قاسم عبده قاسم -عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- القاهرة- ١٩٩٨ .

- غروب شمس الأندلس - أحمد تمام

- غرناطة.. نهاية الفردوس الإسلامي - إسلام أون لاين

- الأساطيرُ والعلومُ المؤسِّسة لمدينة استانبول - أحمد فضل شبلول - ١٠ سبتمبر ٢٠٠٣

■■■

فهرس المحتويات

اقرأ فى هذا الكتاب

للعالم القديم سحره وغموضه.. بهاؤه وجماله.. أسراره وألغازه.. عالم تمتزج فيه الحقيقة بالخيال.. الواقع بالأسطورة.. في هذا العالم كانت هناك مدن مثلت عظمة وروعة هذا العالم وقلبه النابض.. مدن لا تزال آثارها شاهدة على أحداث جسام.. بطولات وانكسارات.. تواريخ وحضارات.. شخصيات وحكايات، وأشياء كثيرة جعلت من هذه المدن أماكن خالدة في ذاكرة التاريخ .

ولأن مدن العالم القديم تحوي الكثير والكثير من أخبار هذا العالم، وكذلك كان لها أكبر الأثر في تغيير مسار التاريخ، فقد فكرنا في إعداد هذا الكتاب لكي يكون إضافة للمكتبة العربية، وموسوعة مصغرة لهذه المدن التاريخية.

في هذا الكتاب سنروي تاريخ أثينا القديمة وحكايتها مع أفلاطون وسقراط، وروما وقصتها مع رومولوس الذي بناها، ونيرون الذي أحرقها، ومنف وطيبة الفرعونيتين وارتباطهما بملك عظيم هو الملك مينا، وأور التي شهدت مولد خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام.

في الكتاب أيضا قصة سدوم وعمورة وكيف أهلك الله قوم سيدنا لوط عليه السلام، ومدين، وسبأ، وغرناطة، وسمرقند، وأنطاكية، وفلورنسا، وبابل، وآشور، وبيزنطة، والفسطاط، وأوغاريت، وصبراتة، وغيرها من مدن العالم القديم.

ونحاول في الكتاب تتبع الحياة في هذه المدن والشخصيات التي لعبت الدور الأعظم سواء في نشوئها، أو أحيانا في سقوطها.

هذا الكتاب هو موسوعة مصغرة لمدن العالم القديم الساحرة بكل ما تحويه من أسرار وتواريخ وأحداث وشخصيات لا تزال شاهدة على ذلك العصر الذي وقعت فيه.

W.Salama 010 15 17 873


I.S.B.N. 977-376-491-4


دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة